مواقف من حياة الرسول
الجزء الثاني

للشيخ

ابوعمر احمد بن محمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾

ـ ١ ـ

السنـة : الأولى من الهجرة " الثالثة عشرة من النبوة .

الشهـر: غرة ربيع الأول .

اليـوم : الاثنين .

الـوقت: الفجـر .

.. كانت مكة تغط فى نوم عميق، جثم على صدور أهلها، فلقد هد أثرياءها إفراطهم فى اللهو، وهد فقراءها اشتدادهم فى الكدح ؛ وفى نومهم لا أحد من هـؤلاء أو هؤلاء يدرى من أمر نفسه شيئا : أهى موتة صغرى يصحـو بعدها ليمارس حياته من جديد، أم هى موتة كبرى لا فواق منها ولا عودة إلى الدنيا !.

.. وقف الحبيب محمد ﷺ يلقى نظرة أخيرة على مكة قبل أن يرحل عنها، وقد فاض به الحـزن لفراقها : كانت الدور والخيام تتلاصق متحلقة حول الكعبة، فبدت كأنها تتقرب إلى بيت الله الحرام وتحتمى بـه ؛ ثم علا البصر إلى حيث كانت الجبـال ترتفع ـ بأمـر ربها ـ فى صرامة تناطح السـحاب، وتحـيط بالكعبـة والدور، فتضرب حولهما سورا لا يسهل اجتيازه !! .

.. ولعل الحبيب ﷺ قد أطال النظر والتأمل فى جبـل بذاتـه، حيـث غـار حـراء مهـبط الـوحى، وتذكـر مجيء جبريل عليه السلام فى ذاك اليوم المشهود من أيام شهر رمضان، بأول أمر من ربه :

ـ اقرأ .

ولعل البصر قد توقف به ﷺ طويلا متأملا فى شعب محدد حيث حصر وأهله ثلاث سـنوات، منعـوا فيهـا من مخالطة أهـل مكـة، وحظر عليهم المشركون أن يتعاملوا معهم فـلا يبيعـونهم ولا يبتـاعون منهـم ؛ ورغـم مرارة الذكريات، غلبته مشاعر حب الـوطن، وتغلبـت مشـاعر الفـراق عـلى كـل مـا عـداها مـن مشاعر الألم والمرارة، وفاض الوجد بالحبيب محمد ﷺ فقـال :

ـ ما أطيبك من بلد وأحبك إلى،ولولا أن قومى أخرجونى منك ما سكنت غيرك.

.. وتحرك رسول الله ﷺ ماشيا، وتلاحقت حركة قدميه فى خفة فوق الرمال الممتدة بلا نهاية، ومع كـل خطوة كانت مكة تبتعد وتتراجع، بينما هى لاصقة بالقلب لا تغادره، رغم كل ما لاقاه من أهلها من سوء معشر وجيرة، وظلم له ولأهله ولأصحابـه، ورغم ما قالته فيه قريش من اتهامات بالباطـل، فلقـد تجـاوز بغيهم كافة الأعراف، وكل حدود المعقول، ثم ها هم أولاء قد اجتمعوا خارج باب داره، يلبون ما وسـوس لهم به إبليس، يترقبون خروجه، وقد أجمعوا على قتله بضربة واحدة من سيوفهـم، حتى يتفرق دمه بين القبائل !! .

.. ورغم هذا جميعه قال ﷺ وهو صابر على أذاهم، أملا فى أن تدركهم رحمة الله يوما :

ـ اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون، فلعلك يا رب هاديهم، ومخرج يا رب من أصلابهم ذريـة تـؤمن بك .

.. ولما اشتد إيذاء قريش للمسلمين، جاءوا إليه قائلين :

ـ يا رسول الله ادع على المشركين .

فقال ﷺ :

ـ لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة .

.. وحتى لما تمادوا فى غيهم يعمهون، متحدين وساخرين من توعد رب العالمين لهم بالعذاب، إذ قالوا :

ـ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) سورة الأنفال

.. لم يدع رسول الله ﷺ عليهم بالهلاك، أو بالعذاب، كما دعوا على أنفسهم، أو كما فعلت الكثرة ممن سبقوه من الرسل والأنبياء، وكيف له أن يقسو وقد وصفه ربه فى سورة التوبة، بأنه بالمؤمنين، وأيضا بغير المؤمنين رءوف رحيم :

ـ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)

.. ثم كيف يكون لهم العذاب وفيهم الحبيب محمد ﷺ، يتعبد ويقنت لربه طوال الليل والنهار: ألم يدركوا أنه برجل واحد صالح، يحفظ الله أمة بأسرها : فما بالكم وقد أتى الحبيب ﷺ وعد ربه، فى سورة الأنفال :

ـ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣)

.. توقف الحبيب ﷺ واستدار يلقى نظرة أخيرة على أحب بلاد الله إليه، وقبل أن يغادر مكانه، رفع يديه إلى السماء ضارعا متضرعا وقال :

ـ الحمد لله الذى خلقنى ولم أك شيئا، اللهم أعنى على هول الدنيا، وبوائق الدهر، ومصائب الليالى والأيام، اللهم احجبنى فى سفرى، واخلفنى فى أهلى، وبارك لى فيما رزقتنى ؛ عليك فدلنى، وعلى صالح خلقى فقومنى، وإليك فحببنى، وإلى الناس فلا تكلنى ؛ أنت رب المستضعفين وربى، أعوذ بوجهك الكريم الذى أشرقت له السماوات والأرض، وكشفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين : أن يحل بى غضبك، أو ينزل على سخطك، أعوذ بك من زوال نعمتك، وفجأة نقمتك، ولا حول ولا قوة إلا بك .

.. وبعد أن انتهى رسول الله ﷺ، حث الخطى مخلفا وراءه مكة بأسرع ما يستطيع، ليلحق بموعده مع أبى بكر الصديق أمام غار ثور، وقبل أن يعرف المتآمرون بخروجه من بينهم، وقد تغشاهم الله فهم لا يبصرون، فلم يروه وهو يغادر داره، وضرب على سمعهم فلم يسمعوه وهو يتلو عليهم سورة : يس؛ بينما أخذت تتردد فى أذنيه كلمات ورقة بن نوفل وهما يطوفان معا بالكعبة عند بدء الوحى :

ـ والذى نفس ورقة بيده، إنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى : وليكذبنك، وليؤذينك، وليقاتلنك، وليخرجنك ...

ـ ٢ ـ

.. على درب الخروج سارت جموع الأنبياء : يتقدمهم أبو البشر آدم عليه السلام هابطا من الجنة إلى الأرض .

.. فلقد استمع آدم عليه السلام إلى إبليس فغوى، وأكل، وأكلت معه حواء من الشجرة المحرمة .

.. وضحك إبليس طويلا .. طويلا فى نشوة المنتصرين، ثم قال هازئا من آدم :

ـ ألا ما أضعفك يا غريمى .

.. ثم قهقه، وقهقه، حين تكشفت سوءتا آدم وحواء، فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ليواريا ما انكشف، وكان الله قد ستره، لكنهما كشفاه بعصيانهما .

.. لقد انهزم أبو البشر فى أول مواجهة .

وانتصر إبليس .

انهار آدم عليه السلام ساجدا لله تائبا مستغفرا، طالبا رحمة الرحمن الرحيم، وقد ملئت نفسه بالندم والحسرة على ما فرط فى حق الله .

وعفا العفو الرءوف الرحيم .
ولكن كان لا بد من جزاء :
وخرج آدم، وخرجت حواء من الجنة ليعمرا الأرض .
.. ولأن الإنسان من خلقه النسيان .
.. ورغم التحذير الإلهى للبشر :
ـ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (٢٧) سورة الأعراف

.. بدأ النسيان يعمل عمله فى أبناء آدم، فبعد وفاة الأب، ظلوا لسنوات يتذكرون تحذيره لهم من الشياطين، وما نصحهم به من ضرورة تقوى الله، ثم بدأت النصيحة تخفت، وتتراجع كلما مرت الأيام، وانتشرت بينهم العداوة والبغضاء، وسيطر عليهم إبليس ؛ وحاول المخلصون منهم الإصلاح، لكن الفساد استشرى، وعمت الرذيلة، وزين لهم إبليس أن يصنعوا صورا وتماثيل، لخمسة ماتوا من الصالحين، هم : ودا، وسواعا، ويغوث، ويعوق ونسرا، ثم وسوس لهم أن يتقربوا إلى تلك التماثيل، ويشركوها فى عبادتهم لتقربهم إلى الله ؛ ومع الأيام نسوا الله، فصاروا من عبدة الأصنام، فلقد استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ؛ وسيطر الشر على الحياة، وتحول البشر إلى حيوانات تحكمها الغرائز، بعد أن غيب العقل، وهذا حال يصير إليه الناس حين يغفلون عن ذكر الله :

ـ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) " سورة الجن

ويحذر الله رب العالمين الناس من الغرق فى أوساخ الكفر أو الشرك، ويبين لهم الحال التى سينتهى إليها المشركون والكافرون، فى سورة طه، قائلا :

ـ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ
الْيَوْمَ تُنسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧)

.. ومن رحمة الله بالناس أن يبعث إليهم النبيين مذكرين ومنذرين ..

ـ ٣ ـ

.. أوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام فقال لأهله، من سورة الأعراف :
ـ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩)
.. وحمل نوح عليه السلام رسالة ربه، وراح يدعو أهله ليلا ونهارا، فى السر وفى العلن:
ـ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِي (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) سورة نوح
.. لكن قومه ظلوا فى غيهم يعمهون، وبقوا على طاعتهم لإبليس، وسخروا من نوح، بل تمادوا فيما هم عليه من فساد قائلين :
ـ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٦٠) سورة الأعراف
ويرد عليهم نوح مؤكدا :
ـ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) سورة الأعراف
.. ومع كون نوح عليه السلام كان معجزة تجسدت بينهم فى طول عمره، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما، وشهد ذهاب أجيال وإقبال أجيال، مؤكدا بمعجزة وجوده أنه على حق، وأن ما دون ذلك من الهالكين لقصر أعمارهم، إنما هم على الباطل يعيشون ويموتون، وأن كلنا هالكون، طال بنا العمر، أم قصر !.

.. ورغم هذه المعجزة الربانية المتجسدة فى طول عمره، بقيت الأجيال تتوارث الفساد، وشكا نـوح حـال قومه لربه، وقد امتلأ مرارة ويأسا من استمرارهم على توارث الفساد والضلال، قَالَ نُوحٌ :

ـ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلا تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالا (٢٤) سورة نوح

.. ولما أصروا على التمادى فى ضلالهم لم يملـك نـوح عليـه السـلام إلا أن يـدعو ربـه أن يهلكهـم، لـيرحم الحياة من شرورهم، وَقَالَ نُوحٌ :

ـ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ولا يَلِدُوا إِلا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) سورة نوح

.. وجاء أمر الله لنوح أن اصنع الفلك، واحمل عليها من آمن،ومن كـل المخلوقـات زوجـين، وأن انتظـر ساعة الخروج للخلاص من القوم الضالين ! .

.. أطاع نوح ما أمر به، وبدأ يصنع السفينة، وكلما مر به نفر من قومه، يتغامزون ويسخرون من صـانع السفينة فى أرض بعيدة عن الأنهـار والبحار، ويسألـونه :

ـ ماذا ستفعل بسفينتك هذه يا نوح ؟! .

ويقول لهم نوح عليه السلام :

ـ أنتظر أمر ربى لأخرج بها هاجرا مفاسدكم، فهل بينكم رجل رشيد يفر معى إلى الله ؟ .

ويجيبه السفهاء :

ـ ليتك تفعل هذا وحدك يا نوح، فتريح بخروجك من بيننـا، وتستريح !! .

قال نوح عليه السلام :

ـ .. إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩) سورة هود

وجاء أمر الله ..

وفار التنور ..

وفتحت أبواب السماء بماء منهمر ..

وفجرت الأرض عيونا ..

فالتقى الماء على أمر قد قدر .

وبدأت الأرض تغرق وتختفى بكل ما فوقها من دواب وبيوت وزرع، فلقد ابتلع الطوفان كل شئ، بينما أخذت السفينة تعلو وتستقيم على سطح الماء، وأسرع الكافرون

يهرعون إلى قمم الجبال، بينما ركب نـوح السفينة مع من آمن منهم، وما آمن معه إلا قليـل .

ونوح عليه السلام يرى ما يحدث لهم، عارف بالهلاك الـذى هـم إليـه سـائرون، فلقـد أعلـم بـه مـن قبـل رب العالمين، حين أمر ببناء السفينة بسورة هود :

ـ وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧)

لكنهم كانـوا لا يسمعون تحذيره، فلقـد ضـرب إبلـيس علـى آذانهـم فهـم لا يـدركون، وطمـس عـلى عقولهم فهم لا يفقهون، وحين نادى نوح ابنه :

ـ يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين .

قال الابن الكافر :

ـ سآوي إلى جبل يعصمنى من الماء .

ويصرخ نوح عليه السلام فى ابنه قائلا :

ـ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم .

.. وحال بينهما الموج فكان من المغرقين .

.. وحمـل المـاء السـفينة وراح يـدفعها مبتعـدا، إلى حيـث شـاء اللـه، ليمحـو اللـه القريـة وأهلهـا، وليطهر الأرض من الأوساخ والأدران بالماء تطهيرا : مما خطيآتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجـدوا لهـم مـن دون الله أنصارا .

وقضى الأمر ..

وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعى وغيض المـاء .

.. ونشأ جيل ما بعد الخروج .

ـ ٤ ـ

.. سعدت الحياة بأناس من الصالحين المهتدين، ثم عاد الفساد يتفشى، وعمت الرذائل، وأصبحت حيـاة البشر مثلها مثل حياة الحيوانات بل هى أشد سـوءا، فـالحيوان لا يعمـل الفكـر، ولا يرسـم الخطـط، ولا يطـور أساليب الشر، فى حين يستطيع ذلك الآدميون بما حباهم الله به من نعمة العقل !! .

ووسط ركام الفسـاد الذى عـم بين عبدة الشمـس والقمـر والنجـوم والأصـنام، راح إبـراهيم يتطلـع إلى السماء، باحثا عن رب أقوى، وأكثر إقناعـا لعقلـه الـذى رفـض الأربـاب التـى يعبـدها أهلـه، مـن تماثيـل صنعوها بأيديهم، وكواكب فى السماء العلا ، وقال رب العالمين موضحا سورة الأنعام :

ـ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ (٧٥)

.. فلما جَن عَليه اللَيل رأى كوكبا قال :

ـ هذا ربى .

.. فلما أفل قال :

ـ لا أحب الآفلين .

فلما رأى القمر بازغا قال :

ـ هذا ربى .

فلما أفل قال :

ـ لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين .

فلما رأى الشمس بازغة قال :

ـ هذا ربى هذا أكبر .

فلما أفلت قال :

ـ يا قوم إنى برئ مما تشركون، إنى وجهت وجهـى للـذى فطـر السـماوات والأرض حنيفـا ومـا أنـا مـن المشركين .

واهتدى إبراهيم عليه السلام إلى الذات العليا، وقال :

ـ آمنت بالله رب العالمين، وإنى أول المسلمين .

ثم قال لأبيه يدعوه لأن يرقى إلى ما صار عليه الابن :

ـ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا، يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مـا لم يأتـك فاتبعنى أهدك صراطا سويا، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا، يا أبـت إنى أخـاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا .

قال الأب عاجبا :

ـ أراغب أنت عـن آلهتى يا إبراهيم ؟..لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا .

قال إبراهيم عليه السلام :

ـ سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا، واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسىـ ألا أكون بدعاء ربى شقيا .

.. ثم التفت إلى قومه يسألهم :

ـ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟ .

قالوا :

ـ وجدنا آباءنا لها عابدين .

قال إبراهيم عليه السلام :

ـ هل يسمعونكم إذ تدعون، أو ينفعونكم أو يضرون ؟!!.

قالوا :

ـ وجدنا آباءنا كذلك يفعلون .

قال إبراهيم عليه السلام :

ـ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إلا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) سورة الشعراء

.. وأصر إبراهيم على أن يتبع قوله بالعمل، فلما أقبل الصبح، وخرج قومه إلى احتفالهم بعيدهم، اتجه إلى أصنامهم فطاح فيها ضربا وتدميرا، فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم، ثم علق الفأس التى فعل بها فعلته فى رقبة التمثال، ولما رأوا ما صارت إليه آلهتهم، سألوه :

ـ أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم !!.

أشار إبراهيم عليه السلام إلى التمثال الذى تدلت الفأس من رقبته، وقال :

ـ بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون .

.. وصدقه قومه، ثم نكسوا على رؤوسهم، وقد أدركوا أن إبراهيم هو الفاعل، وأن قولته تحمل السخرية بهم والاستخفاف بما يعبدون، وقالوا :

ـ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون .

قال إبراهيم عليه السلام :

ـ أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم وشيئا ولا يضركم، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون .

وجادله النمرود ملك البلاد، فقال له :

ـ ماذا يستطيع ربك ؟ .

قال إبراهيم :

ـ ربى الذى يحيى ويميت .

قال النمرود :

ـ أنا أحيى وأميت .

.. ثم أمر بسجينين حكم عليهما بالإعدام، فقتل أحدهما، وعفا عن الآخر .

قال إبراهيم عليه السلام :

ـ الله يأتى بالشمس من المشرق فآت بها من المغرب .

.. فبهت الذى كفر !! .

وغضب الملك أشد الغضب لهزيمته، وتنادى أنصاره، قالوا :

ـ ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم .

.. وتنافس القوم فى جمع الخشب والقش، وتأججت النار تفح كالأفاعى، وتصاعد لهبها يلفح الوجوه فيكويها، وألقوا بإبراهيم فى النار، وجاءها أمر الله :

ـ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ الأَخْسَرِينَ (٧٠) سورة الأنبياء

.. وخرج إبراهيم من النار سالما بأمر الله، ورغم المعجزة الخارقة التى رآها الكفار رأى العين، ورغم تجلى قدرة رب إبراهيم سبحانه وتعالى علوا كبيرا، إلا أن إبليس حاورهم ووسوس لهم فأعماهم عن الحقيقة الملموسة التى تجلت أمام أبصارهم، وعن الحق الذى بين أيديهم .

.. خرج إبراهيم عليه السلام من قريته بالعراق، مهاجرا إلى أرض فلسطين، وليس معه إلا من آمن وهما : زوجته سارة، وابن أخيه لوط الذى قال فى إيمان وهو خارج :

ـ إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم .

.. ثم استأذن لوط من عمه فى أن يتجه بالدعوة إلى أرض عمورية وسدوم بالقرب من البحر الميت، وهى بلاد صحراوية أهلها غلاظ منحرفون، فأذن له .

.. تزوج لوط عليه السلام من بينهم وانتسب إليهم، وظل سنين وسنين يدعوهم للكف عن الشر : فلا يقطعون الطريق لينهبوا القوافل، ويروعوا المسافرين جماعات وأفرادا، ولا يغشون فى الكيل والميزان، ولا يأتون الرجال من دون النساء، فلم يستمع إليه ولم يؤمن معه إلا قليل، وظلت الكثرة الكاثرة تفاخر بفجرها وقوتها وجبروتها، ويتناسون ما يؤكده لهم لوط عليه السلام من أن الله هو الجبار ذو القوة، وأن الله غاضب من أفعالهم وظلمهم، وأنه يخاف عليهم من سخط الله .

.. قنط لوط عليه السلام من صلاح حال قومه، فدعا عليهم بالهلاك، ثم خرج مهاجرا بمن آمن من قومه، بعد أن أتاه أمر ربه عن طريق الملائكة :

ـ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنْ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمْ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١) سورة هود

.. ثم حل بهم غضب الله، فأرسل ملائكته الغلاظ الشداد، فقلبوا الأرض التى يعيشون عليها، وجعلوا عاليها سافلها، ودمرها الله تدميرا، واستوت الأرض، فكأنها لم تعمر من قبل، ولم تكن عليها حياة ولا أقوام، وسبحان القادر العظيم .

.. بينما خرج إبراهيم عليه السلام إلى مصر، ثم خرج بأمر من الله ومعه زوجه هاجر وابنه إسماعيل من مصر إلى وادى مكة حيث قواعد بيت الله الحرام، فأسكنهما بواد غير ذى زرع بالقرب من الكعبة المشرفة، و دعا ربه قائلا :

ـ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .

.. وحتى يومنا هذا، ما تزال أفئدة المسلمين تهفو إلى بيت الله الحرام، فيجعلها الشوق تترك المال والدار والأهل والولد، وتخرج ساعية لزيارته، فلقد قال الله تعالى :

ـ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) سورة الحج

.. ولما شب إسماعيل، أختبر إبراهيم عليه السلام فى مدى طاعته لله تعالى، ومدى صدق عقيدته، فأرى الرؤيا التى رأى، وأمر أن يذبح ابنه الحبيب إسماعيل، فأطاع أمر الله، وأطاع الابن أباه، ففداه الرحمن الرحيم بذبح عظيم، ثم بدأ يرفعان القواعد بأمر الله،

وهما يرجوان رضاء الله، قائلين:

ـ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .

.. ثم اتجه إبراهيم عليه السلام إلى الله داعيا، يقول :

ـ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم .

.. ثم قال، راجيا، وأملا فى البشارة برسول الله :

ـ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم .

ـ ٥ ـ

خرج موسى عليه السلام أول ما خرج، من بيت أمه وهو لم يزل وليدا، فلقد كان فرعون يقتل كل ذكر يولد خوفا من تحقق نبوءة جاءه بها كهانه تقول : إنه سوف يولد طفل من بنى إسرائيل سيقتله، ويبيد ملكه، وكان يفعل فعلته تلك عاما ثم يترك من يولدون فى العام التالى أحياء حتى لا يبيد قومه،ولقد ولد موسى فى عام القتل، كما جاء فى سورة القصص :

وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩)

.. ثم يخرج موسى ثانية بعد أن صار رجلا، فارا من قومه بعد أن قتل رجلا من عدوه، إلى أن أتاه أمر ربه أن : اذهب إلى فرعون إنه طغى .

.. ويظهر موسى خوفه من العودة إلى مصر حتى لا يقتل عقابا لقتله من قتل من عدوه، ويضرع إلى ربه أن يرسل معه أخاه هارون، ليشدد به أزره .

.. ويستجيب الرحمن الرحيم، ثم يأمره سورة الشعراء:

ـ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧)

قال فرعون لموسى معاتبا، ومذكرا بمن عليه بما قدم له فى سالف الأيام، لعله يرجع عن طلبه :

ـ ألم نربك فينا وليدا و لبثت فينا من عمرك سنين، وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين .

قال موسى عليه السلام :

ـ فعلتها إذا وأنا من الضالين، ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين، وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل .

قال فرعون :

ـ وما رب العالمين .

قال موسى :

ـ رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين .

قال فرعون لمن حوله ساخرا :

ـ ألا تسمعون ؟!! .

استطرد موسى قائلا :

ـ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون .

قال فرعون غاضبا ومتوعدا :

ـ لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين .

قال موسى :

ـ أولو جئتك بشئ مبين .

.. وتتوالى المعجزات الحسية الواضحة، ويخرج موسى يده المسودة من جيبه فإذا هى بيضاء بأمر الله، ثم يتفوق على السحرة الذين حشدهم فرعون، بأن يلقى عصاه فلقفت إفكهم بأمر الله، ويبطل سحرهم، ولكن فرعون لا يستجيب، ويصر على حصر الذين آمنوا، فلقد تمكن إبليس منه حتى جعله يظن نفسه إلها، وساعده شعبه باستكانته وحبه لمليكه على أن يتمادى فى غيه، ويزداد طغيانا وكفرا .

إلى أن جاء أمر الله لموسى عليه السلام بالخروج :

ـ واسر بعبادى ليلا، إنكم متبعون .

.. ويخرج موسى بمن آمن معه من بنى إسرائيل، يسرع بهم مبتعدا عن الشرك بالله، فارين من الهلاك الذى يلاحقهم به فرعون وجنوده ؛ يقطعون الفيافى والقفار متحملين مشاق الطريق، وقلة الزاد، فكل أمر يهون فى سبيل رضا الله، ثم واجههم البحر بأمواجه المخيفة تزمجر وتعوى، وبامتداد مياهه بلا انتهاء على مدى ما يدرك البصر، فانتاب اليأس نفوس من لم يستقر الإيمان فى قلوبهم استقرارا يقينيا ثابتا، بينما لم تهتز ثقة موسى عليه السلام فى ربه، وفى أنه سبحانه وتعالى مغيثه ومنقذه من هذا الكرب العظيم، ومن هذا الخطر الذى أحاط بهم، لأن فيه هلاكه، وهلاك قومه، وانتصار الكفر والشرك، فلو لحق بهم فرعون لقتلهم تقتيلا، ولأفناهم جميعا، ولو خاضوا البحر لغرقوا، ولابتلعتهم أمواجه ؛ ولكن ثقة موسى لم تهتز فى تحقق وعد الله، وقال لأتباعه :

ـ إن الله معى سيهدينى .

.. وحين اشتد اقتراب فرعون وجيشه من المهاجرين، حتى كاد أن يطبق عليهم، جاء غوث الله، وأمر الله موسى أن:اضرب بعصاك البحر.

.. ففعل موسى فانشق البحر فلقتين، فسار هو والذين آمنوا معه فى رعاية الله وحفظه، حتى وصلوا إلى الشاطئ الآخر، بينما كان فرعون قد أعماه الغضب، وأصابه الجنون، لأن موسى ينتصر عليه، ويفلت بمن آمنوا من عقابه، فراح يشتد فى سعيه، ويلهث للحاق بهم، فأمر الله البحر فانطبق عليهم، وغرق فرعون وجنوده فى أليم .

.. وخرج موسى مهاجرا إلى أرض الميعاد .

ـ ٦ ـ

.. عاد اليهود إلى المعصية، فكانت معجزة الله الأزلية إليهم بأن جعل مريم ابنة عمران، القانتة الصالحة، التى تنتمى لأشرفهم نسبا، تلد السيد المسيح من غير أن يمسسها بشر، فكما نفخ الله من روحه فى آدم فحيا، نفخ من روحه فى مريم فولدت عيسى عليه السلام بلا أب :

وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَت فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) سورة التحريم

.. إِذْ قَالَتْ الْمَلائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا وَمِنْ الصَّالِحِينَ (٤٦) سورة آل عمران .

قالتَ مريمَ من سورة آل عمران :

ـ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ .

قالت لها ملائكة الرحمن :

ـ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) سورة آل عمران

فحملته مريَم، فانتبذت به مكانا قصيا، فجاءها المخاض إلى جذع النخلة، قالت :

ـ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (٢٣) سورة مريم .

فناداها الوليد من تحتها، قائلا :

ـ أَلا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) سورة مريم

فأتت مريم قومها تحمل عيسى، قالوا :
ـ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) سورة مريم

فأشارت إلى طفلها أن اسألوه، قالوا متعجبين :
ـ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) سورة مريم
وأجابهم الوليد قائلا :
ـ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا(٣٢)وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) سورة مريم

.. فتن اليهود بالمعجزة الربانية، وأصبحوا ولا حديث لهم إلا معجزة الله فى بنت عمران، وهو ما أوغر صدور كهانهم، فخاضوا فى سيرة مريم، مما جعلها تخرج بابنها، وهو بعد صبى إلى مصر، ثم عادت بعد أن كبر عيسى عليه السلام، ليدعو قومه إلى عبادة الله الواحد، وأعطاه الله من فضله الكثير، واختصه بمعجزات مادية، فكان يشفى الأبرص بأمر الله، ويجعل الأعمى بصيرا بأمر الله، والتف حوله الحواريون مؤمنين مصدقين، داعين الناس إلى الدخول فى دين الله، ولكن الأحبار بعد أن قل نفوذهم بين الناس، وضاعت مكانتهم، وسوس الشيطان فى نفوسهم، ونمى فيهم الكراهية لعيسى عليه السلام، فتآمروا عليه، وكادوا له عند الملك فأحل دمه، وأمر بقتله، ولكن شبه لمن ذهبوا لتنفيذ حكم الملك، وصلبوا الواشى وقتلوه !! .

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) سورة النساء

.. ورفع عيسى ابن مريم عليه السلام بمعجزة ربانية، فخرج مغادرا الأرض بمظالمها، إلى السماء برحمتها، بعد أن بشر بمجيء الحبيب محمد ﷺ،إذ قال عيسى ابن مريم:

ـ يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد .

.. وتمر السنون .

.. ويعود النسيان والشيطان من ورائه،ليفسدا على البشرية حياتها، فتشرك بالله ..

وقال الله تعالى فى ذلك، بسورة التوبة :

وَقَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢)

.. وها قد جاء أحمد الخاتم ﷺ ، النبى الأمى : دعوة إبراهيم، ونبوءة موسى، وبشارة عيسى عليهم السلام، ليدحض قول المشركين والكافرين، ويصلح دينهم، داعيا الإنس والجن إلى العودة إلى الله، وأن يشهدوا أنه : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لم يكن له صاحبة، ولم يكن له ولد : قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) سورة الإخلاص

.. وها هو ذا قد خرج من داره مهاجرا فى سبيل الله، تاركا وراء ظهره الوطن والأهل والصحبة، والظلم والظلمة، ساعيا إلى نصرة دين الله، متمما لخروج من سبقه من الرسل والأنبياء، حاملا وعد الله له بالعودة إلى مكة، من بعد الخروج :

ـ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٨٥) سورة القصص

: وإنك لتعلم يا حبيبى، أنه الحق من ربك ..

.. وأن الله على كل شئ قدير .

الفصل العاشر :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

سورة التوبة

الله ثالثهما

ـ ١ ـ

.. التقى الحبيب محمد ﷺ وأبو بكر الصديق أمام جبل ثور، حيث تواعدا من قبل، وبدأ يرتقيان الأحجار، بحثا عن مكان يختبئان فيه، بعيدا عن عيون المشركين، وبعد جهد جهيد من الارتقاء، إذا ببصر الحبيب محمد ﷺ يرتفع لأعلى، فإذ بهما يقفان أسفل غار قد فتح فاه، وكأنه يود أن ينطق يدعوهما للاستخفاء .

كان الغار يقع أسفل صخرة ضخمة، مرتفعا بما يزيد على طول قامة الرجل بقليل، وحين هم رسول الله ﷺ أن يدخل متقدما، مس الصديق يد الحبيب ﷺ، حتى يبعدها عن المحاولة قائلا :

ـ لا تلج الغار يا رسول الله، حتى أدخله قبلك .

.. تسلق الصديق النتوءات وصعد إلى الغار، ودخله، ثم اعتدل واقفا، وراح يجوس ببصره فيما حوله مدققا ومستكشفا المكان .

.. كان الغار قليل الضوء فهو أقرب إلى الظلمة منه إلى النور، وأقرب للضيق منه للاتساع، فهو بالكاد يتسع لشخصين أو ثلاثة، ولما اطمأن أبو بكر إلى أنه لا يوجد بالغار حيوان أو زاحف، بدأ يمزق من ثوبه قطعا صغيرة، أخذ يدسها فى الفتحات التى تفغر فاها بين الصخور، حتى إذا كان بها ثعبان أو عقرب منعته من الخروج، وحالت بينه وبين إيذاء الحبيب محمد ﷺ ؛ فلما انتهى الصديق، فرد ذراعه لرسول الله، يدعوه ليصعد إلى الغار.. فصعد .

ـ ٢ ـ

ازداد لهيب الشمس ..

.. وما زال المتآمرون على قتل رسول الله ﷺ، يقفون أمام بابه، وكأنهم أعجاز نخل خاوية، فلما لسعتهم أشعة الشمس أفاق من غشيته من أفاق، ثم راح يوقظ بعضهم بعضا، وهم فى أشد العجب من الحال التى كانوا عليها، ومر بهم مار فسألهم مستغربا وقفتهم :

ـ يا قوم، فيم وقوفكم بباب محمد ؟! .

قالوا :
ـ لننفذ ما اتفقنا عليه .
قال ساخرا :
ـ و فيمن ستنفذون القتل يا قوم، وقد خرج محمد من داره فى الليل، وقبل بزوغ الشمس ونثر على رؤوسكم التراب، وأنتم نائمون .
.. تحسسوا رؤوسهم فإذا بالتراب يعلوها، فراحوا ينفضونه فى ضيق، وإن كانوا فى شك مما قيل، فلعلها ريح قد هبت فطمرتهم بترابها، أما أن يخرج محمد من بينهم وهم يترقبون خروجه، فهذا ما يتعدى قدرة الساحر وإن سحرهم .
ظلوا على وقفتهم لحظات، وقد أخذهم التفكير فى سراديبه، فتاهت منهم السبل، لكن سرعان ما تغلب عليهم الشك وحب الاستطلاع، فتدافعوا إلى جدر بيت رسول الله ﷺ يتسلقونها، وينظرون داخل الدار فى قلق،فإذا بهم يرون محمدا نائما فى فراشه، وقد تدثر ببردته الخضراء، فتصايحوا مستبشرين، وهم يرمون بالحصى من نبأهم بهربه قائلين :
ـ خسئت، إن محمدا ما يزال متدثرا ببردته الخضراء، نائما بفراشه .
.. ثم تنادوا متنافرين :
ـ فلنقتله وهو نائم .
.. اندفعوا إلى باب الدار يخلعونه متكاتفين، وقد سيطر عليهم هوس الدم، فانهار الباب منفتحا تحت ضغط أجسادهم ؛ شهروا سيوفهم، وتسابقوا يرفعون البرد عن وجه النائم، ولما رأوه، تراخت السيوف المشرعة منهزمة، وصرخ أحدهم :
ـ واللات والعزى، لقد سحرنا محمد وهرب أمام عيوننا ، ولقد كذب من قال إننا كنا نائمين، فما غفلت أعيننا لحظة واحدة؛ وإن محمدا لساحر عظيم !!.
.. انتاب الجمع غم شديد، وشعروا بالعار مما حدث، ثم خرجوا من دار رسول الله ﷺ، وهم من غيظهم يهرولون فى كل اتجاه، وقد انقسوا إلى مجموعات صغيرة، راحت تتخبط ذات اليمين، وذات إليسار، فلعلهم لاحقون بالمهاجر .
ذهب البعض منهم إلى دار أبي بكر، فلم يجدوا محمدا، ولم يجدوا الصديق، ونفثوا عن غضبهم بأن لطم أبو وجهل أسماء ابنة أبي بكر على وجهها فأدماه، لما رفضت ان تدلهم على مكان أبيها، وقالت لهم إنها لا تعرف وجهته، وكانت صادقة فيما قالت، فلم ينبئها فى أى طريق سوف يسير، ولا أى درب سوف يسلك ؛ بينما ذهب البعض الآخر إلى غار حراء فلم يحصلوا إلا على ما حصل عليه الآخرون ؛ ثم اجتمعت خطاهم متجهة إلى مخرج القوافل من مكة إلى طيبة، فكان لهم الفشل بالمرصاد .

ـ ٣ ـ

.. رغم سير قطيع الأغنام، التى تبع بها عامر بن فهيرة خطي مولاه أبي بكر ، لتمسح أثار أقدامه وهو متجه إلى غار ثور، حتى لا يستدل المتآمرون على مكان اختفائه، فلم تترك الأغنام أثرا إلا طمسته، ورغم تخير رسول الله ﷺ لأن يسلك طريقا معاكسا للطريق المؤدي إلى طيبة، كما أنه لم يتجه إلى جبل حراء حيث عهدوا توجهه إليه متحنثا ؛ رغم هذا جميعه ؛ فإن حنكة القرشى فى تقصيـ الأثر، وفطرته الفذة التى تجعله يحسن التوقع، قد انتهت بالمطاردين لأن يتجهوا إلى جبل ثور، بل ها هم أولاء يتقافزون حوله، وفوق صخوره، حتى وصلوا إلى الغار، وأصبحت خطواتهم تسمع بوضوح وهى تدب فوق سطحه، ومن حوله، وكان الصديق يرتعد فرقا وهو يكاد يتمزق من الخوف على الحبيب محمد ﷺ، همس فى قلق :
ـ يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت رجليه لرآنا .
قال رسول الله ﷺ فى هدوء :

ـ ما بالك باثنين الله ثالثهما .

.. ولقد نظر المشركون فلم يبصروهما، فلقد أراهم الله ما يؤكد استحالة أن يكون هناك مخلوق قد دخل الغار منذ سنوات طوال، بعد أن نسج العنكبوت بأمر ربه ساترا من الخيوط على المدخل وعشش به، وأمرت حمامتان بريتان، فوقفتا فى سلام فوق حجر صغير فى مقدمة الغار، فلما قال قائل منهم :

ـ لندخل الغار، ولنبحث بداخله عن محمد وصاحبه .

سخر الجميع منه، قائلين فى استنكار :

ـ إن نسيج العنكبوت أقدم من مولد محمد !! .

وقال بعضهم :

ـ ما بالك بالحمامتين تقفان فى اطمئنان، ولو وفد عليهما وافد لارتاعتا ولفارقتا مكانهما !! .

.. وانحدر المشركون منفضين من حول الغار إلى أسفل الجبل يصفقون فى عجب .

قال أبو بكر ﷺ :

ـ تري ماذا كنا فاعلين لو دخلوا الغار يا نبى الله ؟! .

أجابه النبي ﷺ فى ثقة بالله :

ـ لو جاءونا من هاهنا، لخرجنا من هاهنا .

ونظر أبو بكر فرأي الغار قد شقت، وإذا البحر قد اتصل بالجبل، وسفينة مشدودة بجانب الغار، فبكي أبو بكر من ضعفه وقلقه قائلا :

ـ والله لا أخاف على نفسي، ولكن خوفى عليك أنت يا رسول الله، فلو مات أبو بكر، فقد مات واحد من المسلمين، أما لو مت أنت، لضاعت شهادة : لا إله إلا الله .

فقال له رسول الله ﷺ يطمئنه :

ـ لا تحزن إن الله معنا .

.. ثم رفع يديه إلى السماء متضرعا وقال :

ـ اللهم اجعل أبا بكر معي فى درجتي من الجنة .

وجاءه جبريل عليه السلام، يخبره : أن الله قد استجاب لدعائه، فالتفت الحبيب ﷺ إلى أبي بكر مستبشرا، وأبلغه بما نبئ به، فهلل أبو بكر وكبر، وسجد شاكرا لله ما أنعم به عليه .

ـ ٤ ـ

.. انصرف المشركون من حول الجبل منتشرين فى كل الدروب التى تصل إلى طيبة، يلهثون فى سعيهم، ويلحون فى سؤال كل من يقابلهم :

ـ هل من راء لمحمد ؟!! .

.. وكان الجواب دائما بالنفى، فعادوا إلى مكة يجرون أرجلهم جرا، والخزى والهزيمة يعششان على رؤوسهم، كما عشش فوقها التراب من قبل، وأعلنوا عن جائزة مائة بعير، تكون لمن يأتى بمحمد حيا أو ميتا، فتسابق الفتيان ما بقي من النهار يبحثون فى الشعاب والدروب بلا جدوى، فلما غلبهم الليل، انكفئوا

عائدين إلى مضاربهم ! .

.. وحين ظهر بصيص من ضوء يوم جديد، عادوا إلى البحث مرة أخرى .

.. ومرت أيام ثلاثة .

.. والبحث والمطاردة للمهاجر لا ينقطعان .

.. ثم سكنت حركة الطلب، بعد أن يئس المتآمرون من أنهم سيلحقون به.

.. فى مساء الليلة الثالثة : تسلل عبد الله بن أريقط دليل الرحلة، فى غفلة من قريش، وقد صحب معه عامر بن فهيرة مولى أبي بكر، قاصدين جبل ثور ومعهما الراحلتان .

.. نزل رسول الله ﷺ من فوق جبل ثور، يتبعه الصديق تارة، وتارة يتقدمه، مستطلعا الطريق، جاعلا من جسده درعا للحبيب .

.. وحين وصلا إلى سفح الجبل وجدا عامرا، وابن أريقط فى إنتظارهما، فركب رسول الله ﷺ ناقته، وركب أبو بكر الناقة الثانية ، وأردف عامر خلفه ..

.. وبدأت الرحلة إلى الصحاب من المهاجرين والأنصار بطيبة، وتخير الدليل طريق الساحل، ليبتعد قدر المستطاع عن الطرق التى اعتادت أن تسلكها قوافل
الحجيج والتجارة .

.. ولكن هل لهم أن يأمنوا جانب المغامرين، والباحثين عن المجد والسمعة، أو الفوز بالمائة ناقة ؟!! .

يقول سراقة بن مالك : إنه لما خرج محمد من مكة مهاجرا إلى طيبة، جعلت قريش لمن يرده عليهم مائة ناقة ؛ فبينما أنا جالس فى نادى قومى، إذ جاء رجل منا فقال :

ـ والله لقد رأيت ركبا لثلاثة مروا على آنفا، وإنى لأظنه محمدا .

فأومأت إليه بعينى، أن أسكت، وقلت :

ـ إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم .

قال :

ـ لعلهم كذلك .

.. وسكت، ولما انصرف القوم تبعتهم متخفيا لأري ماذا سيفعلون .

وحين اطمأن سراقة إلى أن القوم قد انطلت عليهم حيلته، وإلى أنه قد صرف
ذهنهم عن الحقيقة التى أدركها، فلقد تفرقوا كل لشأن ؛ أسرع عائدا إلى داره، ودعا جاريته وأمرها بأن تعد له فرسه الشهباء، وتضع فى ركابها زادا يكفيه عدة أيام، ثم استل رمحه، وتمنطق سيفه، وانطلق بفرسه مسرعا ليلحق بالمهاجر، وهو واثق كل الثقة من أنه لاحق بالمهاجر، وفائز بالمائة ناقة التى وعدت بها قريش من يعود إليها بمحمد.

.. وصدق حدث سراقة، وكان له ما توقع، فبعد مسيرة يومين وليلة، رأى عن بعد ليس بالبعيد الناقتين يتقدمهما الدليل، فاستحث فرسه فأسرعت فى عدوها، حتى كادت أن تمسك بمؤخرة الركب، وهنا صرخ فى نشوة المنتصر ملوحا برمحه، مسددا نصله ناحية رسول الله ، وقال :

ـ ما يمنعك منى اليوم يا محمد ؟ .

قال الحبيب ﷺ فى ثقة :

ـ يمنعني الجبار الواحد القهار .

وطار الرمح من يد سراقة، فقد انكفأت الفرس فجأة على وجهها عاجزة عن الحركة، فصاح سراقة وقد ارتمي واقعا على الأرض، مستجيرا برسول الله ﷺ، لكي يطلق إساره وإسار فرسه ؛ فلما أجابه رسول الله ﷺ إلى رجائه، ودعا الله أن يطلقه : فأطلق، حدثت سراقة نفسه الأمارة بالسوء ، بأن يكر عليهم مرة ثانية، فما إن نخس بكعبيه الفرس لتبدأ ركضها، حتى بدأت ساقاها الأماميتان تغوصان فى
الصخور، ويتصاعد لغوصهما دوامة هائلة من الدخان،حملت معها ذرات من الرمال غطت ساقيه، وبطن فرسه، فما استطاع كرا، ولا استطاع فرا .

وأدرك سراقة أنه هالك لا محالة، وأنه فى مواجهة رجل قد حفظه الله، فامتلأ رعبا وصاح مستجيرا :

ـ الأمان يا محمد .

قال رسول الله ﷺ لأبي بكر :

ـ قل له، وما تبتغي منا ؟ .

ونفذ أبو بكر ما طلبه الحبيب، وسأل سراقة فأجابه قائلا :

ـ تكتب لي كتابا يا محمد يكون آية بيني وبينك، على ألا أعود إلى المطاردة، وأن أكتم سرك إذا ما عدت إلى مكة .

قال رسول الله ﷺ لأبي بكر :

ـ أكتب له .

فكتب أبو بكر كتابا فى رقعة، ثم رمي به إلى سراقة فتناوله من على الأرض، واستوت الفرس واقفة، وطلب سراقة من رسول الله ﷺ، أن يقبل ما يحمله من زاد هدية تساعدهم فى سفرهم الطويل، أو أن يأخذ قوسه وسهامه علامة لغلمان يرعون له قطعانا من الأغنام، فإذا ما عثروا بهم، قدموا إليهم السهام، فيعطيهم الغلمان ما يريدون من لبن أو خراف .

قال رسول الله ﷺ لأبي بكر :

ـ قل له لا حاجة بنا فيما يعرض .

.. واستأنف ركب المهاجر سعيه إلى طيبة .

وعاد سراقة إلى مكة .

وأوفى بما عاهد عليه .

فكتم ما حدث حتى عن جاريته .

ـ ٥ ـ

وتمر أيام ..

وتتبعها أيام ..

وركب رسول الله ﷺ يرتحل كلما غربت الشمس، ويتوقف حينما يشتد لهيبها، ليلجأ مع رفقته إلى الظل.

.. وسط قيظ الصحراء، وطول الرحلة، نفد منهم الماء، فأناخ الركب إلى جانب دار فى الخلاء يستريحون، فإذا بالدار لأعرابية تدعى " أم معبد "، فلما سألوها أن تبيعهم طعاما يطعمونه، أو لبنا يشربونه، قالت آسفة :

ـ لو كنا نملك شيئا من هذا لما أحوجناكم للسؤال، ولكننا لا نملك إلا هاتين الغنمتين الهزيلتين، وهما كما تريان لا لبن بهما، فاذهبوا إلى دار سيد القبيلة، فهو اقدر على أن يضيفكم .

.. ولكن رسول الله ﷺ استأذن "أم معبد" فى أن تسمح له بحلب إحدى نعجتيها، فأدنت منه إحداهما، وهي تعجب من طلبه غاية العجب، حتى صارت تخاطب نفسها، أكثر مما تخاطب رسول الله ﷺ، قائلة :

ـ والله لو بهما جهد لا لبن، للحقتا بصويحباتهما إلى المرعى، وما بقيتا تشقيانى بغثائهما .

مسح رسول الله ﷺ على ضرع النعجة، وسمى باسم الله تعالى، وتوسل بقدرة القادر، ثم طلب إناء، فجاءته الأعرابية بإناء من فخار، وهى متكاسلة غير راغبة،

فلا أمل أو رجاء من وراء سعى الرجل الطيب، وكل ما سوف يحلبه من نعجتها : خيبة الرجاء ! .

.. تناول رسول الله ﷺ الإناء، وبدأ يحلب النعجة، وهى مستسلمة تغثو فى حنو وخفوت، فإذا باللبن يتدفق بأمر الله تعالى فى الإناء، فلما امتلأ، ناوله لأبى بكر فكبر وسمى باسم الله ثم شرب، ثم أعاده إلى رسول الله، فدعا رفاقه لأن يقبلوا، فشربوا جميعا حتى ارتووا، وارتوت معهم الأعرابية، وكان رسول الله ﷺ آخرهم مشربا .

.. ثم ترك الإناء للأعرابية ممتلئا حتى حافتيه، فتناولته وهي ذاهلة مما يحدث، عاجبة من أمر هذا الوافد بالخير، الذي يتميز عن صحبه، بحب العزلة، وبالنظر طويلا إلى السماء، وكثرة مخاطبتها، وكثرة الحمد، ورفع اليدين بالدعاء، مع الإكثار من السجود، ولا تملك " أم معبد " لنبى الله إلا الشكر .

.. ومع ميل الشمس للغروب .
صلي رسول الله ﷺ بأبي بكر وعامر، صلاة المغرب والعشاء جمعا، ثم تجهزوا لمغادرة الواحة، مودعين من " أم معبد " بالدعاء .
.. انطلق الركب معاودا مسيره الحذر إلى طيبة، فى خطوط متعرجة، ودروب غير مأهولة، رأي دليلهم أنها الأكثر أمنا وبعدا عن قوافل قريش، وكان رسول الله ﷺ يستر وجهه حتى لا يعرف، وكانوا كلما عثروا بقافلة من قوافل التجارة، وهم يعبرون طريقا مأهولا، اتجه أهل القافلة إليهم، يسألون عن آخر أخبار مكة، ثم انثنوا
إلى أبى بكر، الذي يعرفهم ويعرفونه، وسألوه عن رفيقه، قائلين :
ـ من هذا الذي معك يا ابن قحافة ؟! .
فيصدقهم الصديق ﷺ قولا حين يجيبهم :
ـ إنه هاد يهدينى إلى الطريق .
.. وهو ما كذب فيما قال .
.. فلقد كان محمد ﷺ هاديا لأبى بكر، يهديه إلى طريق الله .

الفصل الحادى عشر :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحشر

لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ 

ويؤثرونهم

ـ ١ ـ

اعتاد الأنصار، أن يخرجوا إلى أطراف طيبة مع إشراقة كل صباح، بعد أن علموا بنبأ خروج رسول الله ﷺ من مكة مهاجرا إليهم، وعرفوا بما حاكت له قريش من مؤامرات لإيذائه أو قتله، وهو ما جعل القلق يأكل قلوبهم خشية على رسول ﷺ .
لقد أحب الأنصار من الأوس والخزرج رسول الله من أعماق أعماق قلوبهم، رغم أنهم كانوا فى كثرتهم قد سمعوا به، وسمعوا عنه ولم يروه، ولكنهم رأوا صحبه ممن سبقوه فى الهجرة إليهم، فإذا كان أولئك المهاجرون، قد أصبحوا بحسن خصالهم، ونبيل سلوكهم : يتصدرون مجالسهم، ويتحركون داخل عيونهم، بما اكتسبوه من محبة وتقدير واحترام ؛ فما بالكم بالنبى الذى علم وربى ؟ .
.. ما بالكم بالحبيب محمد ﷺ، كيف سيكون، وأى رحمة وبركة ستحل بهم مع وصوله ؟.

.. كانوا راغبين بكل وجودهم ووجدانهم، فى أن يحظوا بلقاء الحبيب، فيروه رؤيا العين، وفى أن يعيشوا معه ويعيش معهم، هو وصحبه، إخوانا آمنين، بعد أن طحنتهم الحروب التى لم تنقطع بينهم كأوس وخزرج لسنوات طوال، إلا مع دخولهم فى دين الله .

كان الأنصار يقضون أغلب نهارهم فى الصعود إلى أعالى التلال والجبال، وفى التوجه إلى مداخل طيبة، يبحثون بالعيون والأقدام، فى الطرقات والدروب، ويسألون الوافدين عن الموكب المرتقب، فلا يجدون عندهم إجابة تطفئ قلقهم ؛ وحين تشتد عليهم شمس الظهيرة فتلهب جلودهم، يعودون إلى دورهم، والرجاء لا ينقطع فى تحقق ما يتمنونه مع ما تبقى من سويعات النهار، وهو ما يجعلهم يعاودون الخروج بعد صلاة العصر، ثم مع كل صبح جديد، يترقبون منتظرين، بلا كلل أو ملل .

ولما كان يوم الإثنين، الثانى عشر من شهر ربيع الأول، وفد من أعلمهم بوصول ركب رسول الله ﷺ إلى قباء، فهلل الأنصار وكبروا، وحمدوا الله كثيرا على نجاة الحبيب محمد ﷺ من مكر مشركى قريش .

أقام رسول الله ﷺ وصحبه بقباء ثلاثة أيام، فى ضيافة كلثوم بن هدم، وقد بدءوا منذ اليوم الأول لوصولهم، فى تأسيس مسجد قباء، وخلال عملهم فى إرساء قواعد المسجد، كانوا يقيمون صلاة الجماعة فى أرض البناء، كما كان كلثوم وصحبه يفعلون منذ دخلوا فى الإسلام .

ثم لحق على بن أبى طالب برسول الله ﷺ، قبل أن يغادر قباء إلى طيبة، بعد أن نفذ ما أوكله به الأمين ؛ فرد ما كان لديه من أمانات إلى أصحابها، ثم غافل قريشا، وخرج فى ظلام الليل، متتبعا خطوات رسول الله وصحبه إلى أرض المهجر .

وأشرق صباح يوم الجمعة ..

السادس عشر من ربيع الأول ..

فإذا بطيبة قد ازينت .

.. وأخذت زخرفها وتجملت .

.. حتى أنه ما من وافد أتاها فى ذلك اليوم، إلا وقال :

ـ والله ما شهدناك يا طيبة من قبل، على مثل هذا البهاء .

.. وجاء من أفصح بالسر وبين، قائلا :

ـ إن رسول الله ﷺ قد وصل إلى ضاحية " الحرة "، ونزل بنخل بها، وهو آخذ طريقه إلى الطيبة المتطيبة .

.. تعالى نبض القلوب وازداد، فها هو ذا الحبيب قد أصبح إلى الأحضان أقرب من حبل الوريد، وتنادى المسلمون وخرجوا فيما يزيد على خمسمائة رجل، من الأنصار والمهاجرين، وقد تجهزوا بأسلحتهم، وتعاهدوا على فداء رسول الله ﷺ إذا ما أراد به كائن من كان سوءا ؛ وكما توحدوا فى العهد، توحد فيهم الحلم، فكل رجل منهم يحلم بأن يكون له السبق فى رؤية الحبيب ﷺ ومصافحته، فما إن اقتربوا منه حتى أحاطوا به كالسوار، والدمع يفيض من العيون فرحا بلقائه، والأيدى كل الأيدى، ممتدة فى شوق آملة فى عناق يده الشريفة، وهو ﷺ يمد يده إليهم مصافحا ومستبشرا، فلم يترك يدا إلا وقد عانقتها يده .

.. وبعد أن هدأ منهم انفعال لحظات اللقاء الأولى، قال له الأنصار :

ـ اركب يا رسول الله إلى ديارنا فى عزة ومنعة .

وركب الحبيب ﷺ ورفاقه إلى طيبة، وقد أحاط به جند الله، وراح الركب يتحرك ببطء شديد وسط أمواج من البشر لا تتلاطم، بل تتعانق وتتوحد وتذوب فى ذات واحدة، على عقيدة واحدة هى : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

.. ظل من لم يخرج من أهل طيبة، يترقبون وفود رسول الله ﷺ، ولما اقترب وقت الظهيرة، صعد يهودى إلى تل مرتفع يبصر بأمر يخصه، وكانت الشمس قد اشتد هجيرها، فراح يتماوج كاللهب؛ ووسط هذا التماوج ابصر اليهودى برسول الله ﷺ على راحلته وقد لبس ثوبا أبيضا، فإذا بالنور قد أخذ يشع من حوله، بينما سحابة سحابة تظله، فارتاع اليهودى من هول المشهد، ولم يتمالك نفسه، وراح يصيح مناديا دون وعى، يقول :

ـ يا بنى العرب هذا حظكم الذى كنتم تنتظرون قد أقبل .

.. فتدافع لصراخه من بقى من المسلمين يهرولون فى لهفة، خارجين من دورهم إلى الطرقات، وهم ما بين ماش وراكب، وقد ارتدوا أبهى ما عندهم من ثياب، غير آبهين بحرارة الشمس، ولا بضياع لحظات إغفاءة القيلولة التى اعتادوا على الاعتكاف خلالها، بل لقد شاركهم كثير من اليهود فى الخروج للقاء رسول الله ﷺ، رغبة فى رؤية من تناقل الآباء منهم عن الأجداد : بشارة مبعثه، فهم يعلمون بمقدمه، قبل أن تتكلم به قريش .

.. فلما لحقوا بركب رسول الله ﷺ خارج طيبة، اكتفى اليهود بمراقبة ما يحدث عن مبعدة، بينما انضم المسلمون إلى الركب .

كان رسول الله ﷺ كلما مر بحى من الأحياء، استقبله أهله من الأنصار، يتنافسون على استلام خطام ناقته، مهللين مكبرين، يدعونه إلى النزول بحيهم، وهو يشكر لهم دعوتهم، ويدعو لهم بالخير، ويطلب منهم أن يتركوا خطام الناقة فهى مأمورة ؛ إلى أن أدركتهم صلاة الجمعة على مشارف طيبة، بديار بنى سالم بن عوف، فتنادى الحضور للصلاة، وانعطف الموكب إلى الوادى، وتراص المصلون، فأصاب اليهود ممن رأوهم الرعب : حقا إنها ليست المرة الأولى التى يرون فيها المسلمين يتجمعون لصلاة الجماعة، فلقد رأوهم من قبل كثيرا وهم يصلون بطيبة، ولكنهم لم يكونوا على هذا القدر من العزم والهمة ، ولا على مثل هذا العدد والعدة، ولا على مثل هذا المشهد المهيب .

.. كان المسلمون متراصين، متوحدين، أحدهم لصيق أخيه، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وقد اشرأبت أعناقهم، وتعلقت عيونهم فى حب بوجه الحبيب محمد، متمنين أن تحفر قسماته داخل أفئدتهم، فلا تغادرها للحظة، متشوقين لسماع كلماته .

نزل رسول الله ﷺ عن ناقته، ونظر إلى الحشد الحاشد أمامه، وهو يحمد الله كثيرا على ما أنعم به عليهم بأن جعلهم إخوانا متحابين .

ولعلك يا حبيبى ﷺ وأنت تنظر إليهم فى تلك اللحظة قد رفرف قلبك مسبحا يقول : يا رب، هذه بشارة أمتى، أمة الموحدين الحامدين، قد تكاتفت وتآلفت على كلمة واحدة : لا إله إلا الله محمد رسول الله، فلا إله إلا أنت سبحانك، واحد، أحد، فرد، صمد، ولك الحمد يارب على ما أنعمت به علينا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ..

تخير رسول الله ﷺ، مكانا وسطا فى مواجهة جموع المصلين، ثم خطب فيهم، قائلا:

ـ الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأعادى من يكفره، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة، على فترة من الرسل، وقلة من العلم، وضلالة من الناس، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا ؛ أوصيكم بتقوى الله، فإنه خير ما أوصى به المسلم أن يحضه على الآخر، وأن يأمره بتقوى الله عز وجل، فحذروا ما حذركم الله من نفسه ولا أفضل من ذلك ذكرا، وإن تقوى الله لمن عمل بها على وجل ومخافة من ربه عون صدق على ما تبغون من أمر لآخرة، ومن يصلح الذى بينه وبين الله تعالى من أمره فى السر والعلانية لا ينوى بذلك إلا وجه الله يكن له ذكرا فى عاجل أمره وذخرا فيما بعد الموت، حين يفتقد المرء إلى ما قدم، وما كان مما

سوى ذلك يود لو أن بينه و بينه أمدا بعيدا : "وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ"، هو الذى صدق قوله، وأنجز وعده، لا خلف لذلك، فإنه يقول عز وجل : " مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ " فاتقوا الله فى عاجل أمركم وأجله فى السر والعلانية فإنه :" وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً " ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما، وإن تقوى الله توقى مقته، وتوقى عقوبته، وتوقى سخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجوه، وترضى الرب، وترفع الدرجة ؛ فخذوا بحظكم ولا تفرطوا فى جنب الله، فقد علمكم كتابه ونهج لكم سبيله، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فاحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا فى الله حق جهاده، هو اجتباكم وسماكم المسلمين :" لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ " ولا حول ولا قوة إلا بالله، فأكثروا ذكر الله تعالى، واعملوا لما بعد الموت، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه .

الله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

.. توقف نبى الله ﷺ لحظات، وجلس، ثم قام وواصل خطبته، قائلا :

ـ إن الحمد لله أحمده وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى، قد أفلح من زينه الله فى قلبه،

وأدخله فى الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسن الحديث وأبلغه .

أحبوا من أحبه الله، أحبوا الله من كل قلوبكم ولا تملوا كلام الله وذكره، ولا تقس عنه قلوبكم، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى قد سماه الله خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد والصالح من الحديث، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا، واتقوه حق تقاته، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم، وتحابوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن ينكث عهده.

أيها الناس فقدموا لأنفسكم، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه، وليس له ترجمان، ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك وآتيتك مالا وأفضلت عليك، فما قدمت لنفسك ؟ . فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم، فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

.. وأقيمت الصلاة،والمسلمون متراصون فى صفوف متلاحمة، والكتف بالكتف، والقدم لصق القدم، والكل متوحد فى التوجه الواحد : لله الواحد، بينما الدمع يفيض على الوجوه، ويتساقط من على شعر الذقون فى فرحة وثقة وثبات عقيدة، واطمئنان لوجود القائد الذى ارتفع صوته مرتلا آيات القرآن العظيم، لتصل كلمات الله إلى الأفئدة فتقشعر منها الأبدان والجلود : فإذا ما استقام ﷺ استقاموا، وإذا ما رتل ﷺ أنصتوا فى خشوع لكلام الله، وإذا ما ركع ﷺ ركعوا، وإذا ما سجد سجدوا .

.. فلما انتهت الصلاة، امتدت الأيدى تتعانق فى مودة وعزم، وكأنها تتعاهد على ألا تتفرق أو تفترق .

.. ركب الحبيب ﷺ ناقته، فحفت به مئات الأرواح تسنده وتسانده، ولم يركب أحد غيره، فلقد سار الجميع على أقدامهم يغبرونها محبة فى الله، وفى حبيب الله .

.. وتحرك ركب المسلمين الأول، ليواصل زحفه إلى طيبة، ووقع أقدامهم فوق الأرض يدكها دكا، فيبدو كدقات الطبول، بينما الأرض من تحتهم تهتز طربا وسعادة بما تحمل فوقها من رجال أطهار أخيار، يسعون لنصرة نبى الله ﷺ، الآتى بدين الله، منادية ..

: اللهم زدنى منهم، فأزداد بهم شرفا وطهرا .

.. أخذت طيبة تظهر وتقترب، وتتضح ملامحها ، وقد غشيها نور لم غشها من قبل، فتوهجت مدينة رسول الله ﷺ بالأنوار، وتألقت دورها التى بنى بعضها بالطوب اللبن وبنى البعض الآخر بالحجارة، مرتفعة عن الأرض ما بين طابق وطابقين، تحيط بها الحدائق المثمرة، وتفصل بين أحيائها غابات من أشجار النخيل باسقات شامخات، فهى ليست فى مجموعها كمكة، أحياء متلاصقة، بل هى وحدات متباعدة تسكن كل منها قبيلة من القبائل، أما طرقها فهى وسيطة لا هى بالضيقة ولا هى بالمتسعة .

وحين دخل الموكب إلى المدينة، قال رسول الله ﷺ :

ـ اللهم أجعل بالمدينة ضعفى ما جعلت بمكة من البركة .

.. كانت الطرقات والساحات قد امتلأت بمن تبقى فيها من الصبية، أما النساء فقد اعتلين أسطح الدور، والكل مستبشر بمقدم الحبيب ﷺ ، يريدون أن يحظوا برؤيته، وجميعهم ينشدون فى نشوة، راحت تهتز بها الكلمات، وأخذت تهتز لها السماوات :

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع

أيها المبعوث فينا   جئت بالأمر المطاع

وعاد أهل طيبة إلى التعلق بزمام ناقة رسول الله ﷺ، كلما مرت بدار من الدور، أو حى من الأحياء، وراحوا يعددون ما أنعم به الله عليهم من فضل ومنعة ومال ونسب، راجين رسول الله ﷺ أن يكون بينهم وأن ينزل بدورهم، فكان رسول الله ﷺ يقول لهم باسما :

ـ بارك الله فيكم، خلوا سبيل الناقة، فإنها مأمورة .

فلما مر بحى بنى بياضة، قال له سعد بن عبادة والمنذر بن النجار :

ـ نحن أخوالك،هلم إلى العدد والعدة، والعزة والقرابة، لا تجاوزنا لغيرنا، فإن قومك أولى بك .

.. فأعاد رسول الله ﷺ تكرار قوله، وهو يشير إليهم بأن يتركوا زمام الناقة :

ـ إنها مأمورة .

.. ولعل قلبك الشريف فى هذه اللحظة يا حبيبى، قد خفق بذكريات الطفولة، وما قبل المولد .

.. فهنا يا حبيبى، على هذه الأرض شاء الله أن يمرض أبوك، ويتخلف عن قافلة التجارة التى قودته عليها قريش، ثم يموت ويدفن بترابها، لتتيتم وأنت ببطن أمك جنينا .

وهنا على ذات الأرض ماتت أمك بعد أن زارت قبر أبيك، وشاركت وأنت طفل، لم تتخط السادسة من عمرك فى دفنها، وبهذا فقدت أركان نصرتك ونصرة أى طفل : الأب والأم .

.. وكأنما شاء ربك الكريم، أن يجعل من بلد اليتم، بلد نصرة لك، فتكون هى وأهلها من الأنصار، أشد وأمنع من الأهل الذين قلوك، بعد أن خالفت ما وجدوا آباءهم عليه من شرك بالله، ثم ها هم أولاء قد أخرجوك من بينهم، فإذا أنت أكثر أثرة على المسلمين والمسلمات من إيثار : الأب لابنه، والأم لفلذة كبدها، بل إنهم ليؤثرونك على أنفسهم، ولو كانت بهم خصاصة .

فسبحانك اللهم ..

سبحانك يا حنان، يا منان .

.. بيدك الأمر .

وأنت على كل شئ قدير .

.. استمرت الناقة فى سيرها وقد علاها الحبيب ﷺ، والناس يسيرون ملتفين حوله، وقد تعلقت عيونهم فى شغف بوجهه الشريف، بينما أيديهم تتلمس ما تستطيع أن تصل إليه من جسده، فكأنهم نيام يريدون أن يتأكدوا من تجسد ما يرون، ومن كون الحبيب ﷺ حقيقة بينهم، وليس رؤيا، كتلك التى يرونها فى نومهم، أو أمانى كتلك التى كانوا يتمنونها فى صحوهم .

.. وبعد طول مسير وترقب وانتظار، أناخت الناقة وحدها فى مربد لتج

فيف التمر به عريش، وهو من حى بنو النجار، ولما حـاول بعض المسلمين تحريكهـا، لتتجـه إلى دورهـم، فتكون لهم سعــادة نزول الحبيب ﷺ عليهم، ألصقت الناقة عنقها بالأرض، ورفضت التحرك من مكانها، ونزل رسول الله ﷺ عنها قائلا :

ـ رب أنزلنى منزلا مباركا، وأنت خير المنزلين .

ولجأ رسول الله ﷺ إلى العريش يستظـل به، فأسرع أبو أيوب الأنصارى إلى رسول الله ﷺ قـائلا، وهـو يشير إلى دار من طابقين فى مواجهة المربد :

ـ هذه دارى، وهى الأقرب، أفلا تنزل عندى يا نبى الله ؟.

قال نبى الله ﷺ :

ـ نعم .

وحمل أبو أيوب متاع رسول الله ﷺ إلى داره، وأخذ يسرع فى مشيه، وهو فى نشوة تفوق كل ما شعر به على مدى حياته مما كان يظنه سعادة، ولما أشار آخرون على رسـول اللـه ﷺ بـأن دورهـم هـى أيضـا قريبة، قال ﷺ يطيب خاطرهم :

ـ المرء مع رحله حيث كان .

ـ ٤ ـ

نزل رسـول الله ﷺ ضيفا على دار " أبو أيوب "، وطلب أن يكون مقامه فى دورها الأول، ورغم إلحاح صاحب الدار على الحبيب ﷺ أن يكون هو فى دورهـا الأعلى، وقولـه للحبيـب راجيـا :

ـ يا نبى الله، بأبى أنت وأمى إنى لأكـره أن أكون فوقك وتكـون تحتـى، فـاظهر أنـت فكـن فى العلـو، وننزل نحن فنكون فى السفل .

فقال نبى الله ﷺ :

ـ انه من الأرفق بنا وبمن يغشانا، أن نكون فى سفل البيـت .

واستراح رسول الله ﷺ قليلا، ثم توافد المسلمون من أنصار ومهاجرين لتحيته، وليسعدوا بـالجلوس فى حضرته، وسأل رسول الله ﷺ من حوله عن أصحـاب المربد التى أناخت بهـا الناقـة، فعلـم أنهـا مملوكـة لصبيين يتيمـين، وأن أسـعد بـن زرارة وبعـض المسـلمين يتخـذونها مسجــدا لصـلاة الجماعـة، ويسـتترون بشجرها وعريشها إذا ما اشتدت عليهم الشمس، فأرسل إلى الصبيين مع صحبه، فلـما حضرا إليـه، طلـب منهما رسول الله ﷺ شراء المربد ليقيم عليها المسجد، ولكن الغلامين قالا:

ـ بل نهبها لك يا رسول الله، خالصة لله .

ولكن الرسول ﷺ أصـر على أن يتقاضيا ثمن الأرض، لأنهما يتيمان، وفى سن لا تسمح لهـما بالتصرف فى أموالهما، وقد أوصى رب العالمين باليتامى خيرا : "ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هـى أحسـن حتـى يبلـغ أشده ."

.. وقد كان، واشترى رسول الله ﷺ الأرض منهما بعشرة دنانير أداها لهما، أما الأرض التى كانت تحـيط بالمربد فكان جزء منها بستانا، والجزء الآخر أرضا بوارا يمتلكهـا بنـو النجـار، ولقـد أصروا عـلى أن يهبوهـا خالصة لله ولرسوله .

وفى اليوم التالى، ما إن أدى المسـلمون صــلاة الصـبح، حتـى تنـادوا للبـدء فى بنـاء المسجــد ؛ وتسـابق الأنصـار والمهاجرون إلى العمل، فرفع ما كان بالأرض من خبث، ونكت ما كان بها مـن عظـام المـوتى، ثـم دفنت خارج المسجد، وقطعت جذوع النخيل، وصرف ما ظهر بـالأرض مـن مـاء، وحفــر الأسـاس، وبنـى بالحجارة، ثم بدأ ضرب الطوب اللبن، فكان يخلط الطين بزعاف النخيل، ويصنع على شكل قـوالب كبـيرة، تصف على الأرض، وتترك فى الشمس لتتماسك وتجف، ثم تحمل لتبنى بها حوائط المسجد .

.. كان النبى ﷺ، ومعه أصحابه، يشاركون فى البناء، فكان ﷺ يحمل الأحجار، وقوالب الطوب حتى يتغبر صدره، ولقد حاول كثير من المسلمين، مرات عديدة، أن يثنوا رسول الله ﷺ عن العمل، لينهضوا هم به، حياء من قدره، ولمكانته العظيمة فى قلوبهم، ولكنه ﷺ ظل يرفض قول من يقول له :

ـ يا رسول الله اعطنى هذا الحجر أحتمله عنك .

.. ويجيب قائلا ﷺ فى تواضع :

ـ اذهب فاحتمل غيره، فإنك لست بأفقر إلى الله منى .

وهكذا تتكرر الأحداث عبر الأيام، فها هو إمام المسلمين ونبيهم محمد بن عبد الله ﷺ يشارك فى بناء ثانى أعز ثلاثة أماكن على المسلمين : الكعبة المشرفة، ومسجد رسول الله، والمسجد الأقصى، فلقد شارك فى شبابه قريشا فى بنائها الكعبة، بل لقد وضع الحجر الأسود بيديه فى مكانه، حين اختلفت بطون قريش على من يكون أحقهم بوضعه، ثم ها هو ذا يعود ليعمل فى بناء مسجده بالمدينة المنورة دار الهجرة والمستقر، وليكرم رب العزة سبحانه وتعالى مسجده، نزل فيه قوله تعالى بسورة التوبة : لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨)

كان رسول الله ﷺ إذا ما انتهى من البناء، يذهب فى المساء، إلى دار " سعد بن خيثمة "، وكان "سعد" بلا زوجة، وكان يؤوى فى داره العزاب من مسلمى مكة، ومن هاجر منهم دون زوجاتهم، فيجلس ﷺ إلى أصحابه، وإلى من يفد عليهم من المسلمين يدارسهم القرآن ويرتله معهم، ويحفظهم ما يتنزل به جبريل عليه السلام، ويناقشهم فى أمور دنياهم تفقيها لهم فى أمور دينهم، وكان يحثهم على أن يتحابوا فى الله، وأن يبتعدوا عن الظلم والتظالم، فالظلم ظلمات، ويذكرهم بما أوحى إليه عن رب العزة جل جلاله أنه قال :

ـ يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرما، فلا تظلموا، يا عبادى، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدونى أهدكم، يا عبادى، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم، يا عبادى كلكم عار، إلا من كسوته، فاستكسونى أكسكم، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفرونى أغفر لكم، يا عبادى، إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى، يا عبادى، لو أن أولكم وأخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا، يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا فى صعيد واحد، فسألونى، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندى، إلا كما ينقص المخيط، إذا أدخل البحر، يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه .

.. وكان رسول الله ﷺ يبارك عمل من أحسن عملا، ويعلم فى حلم وصبر لا ينفد : من يجهل، أو تاه منه السبيل، فينصحه ويهديه إلى طريق الرشاد .

.. جاءه فتى وهو فى صحابته وقال :

ـ يا رسول الله ائذن لى فى الزنا .

فصاح الصحابة فى غضب مستنكرين مقولة الفتى، فتحريم الله تعالى للزنا شديد فى قوله بسورة الإسراء :

ـ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا (٣٢) ، وأكد ذلك فى قسوة الجزاء الذى رصده لمن يقدم عليه فى قوله سبحانه وتعالى : الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِد مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَة وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّه إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّه وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) سورة النور

.. ولكن رسول الله ﷺ أسرع يسكتهم، وقرب الفتى منه، وسأله فى أناة قائلا :

ـ أتحبه لأمك ؟ .

قال الفتى :
ـ لا .
قال رسول الله ﷺ :
ـ وهكذا الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لأختك ؟ .
قال الفتى :
ـ لا .
قال رسول الله ﷺ :
ـ وهكذا الناس لا يحبونه لأخواتهم، أتحبه لعمتك ؟ .
قال الفتى :
ـ لا .
قال رسول الله ﷺ :
ـ وهكذا الناس لا يحبونه لعماتهم، فاكره لهم ما تكره لنفسك، وأحب لهم ما تحبه لنفسك .
قال الفتى وقد أخذته رعدة، وتنزلت الخشية من الله فى قلبه، وسال الدمع على خديه مدرارا :
ـ أدع لى يا رسول الله .
قال رسول الله ﷺ، وهو يمسح على صدر الفتى :
ـ اللهم حصن فرجه، وطهر قلبه، وأغفر له ما تقدم من ذنبـه .
.. وغشيت الصبى راحة، وقد انهد شيطانه، وسط تكبير الموجودين، واستبشارهم بدعاء رسول الله ﷺ.

.. كان المسلمون يسارعون ببشائر ثمارهم، ليقدموها إلى الحبيب ﷺ فيتلقاهـا مستبشرـا ويضـعها عـلى عينيه، وهو يقول :

ـ اللهـم بارك لنا فى ثمرنا وبارك لنا فى مدينتنا، وبارك لنا فى صاعنا، وبارك لنا فى مدنا، اللهـم إن إبـراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإنه دعـاك لمكة، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه .

وبعـد أن ينتهى من دعائه، يعطى أصغر من حوله سنا ذاك الثمـر .

ـ ٦ ـ

.. يقول حبر يهود المدينة عبد الله بن سلام :

ـ لقد وجدت أهل الإسلام يسعون كل ليلة فى عـزم، وقد تجمعـت خطـاهم متجهـة إلى دار " سـعد بـن خيثمة "، فراودتنى نفسىـ أن أكتشـف سرهـم، فسرـت معهـم، ولم أكـن قـد دخلـت فى ديـن اللـه بعـد، فوجدتهم يقصدون من وراء هذا السعى لأن يجلسوا إلى رجل ذى هيبة ووقـار، يجلـس بـين كوكبـة مـن الصحاب، لا يتميز من بينهم، إلا بأنه يتكلم، بيـنما هـم ينصـتون إليـه فى خشـوع، فلـما تبينـت وجهــه، عرفت أنه ليس بوجه كذاب، وكان أول شئ سمعته منه قوله :

ـ أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلـوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة فى سـلام .

فلما كان ثانى الأيام، ذهبت إليه بدار " أبى أيوب "، وقلت له :

ـ أشهد أنك رسول الله، وأنك جئت بالحق، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم، فأدعهم فسلهـم عنى قبل أن يعلمـوا أنى قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أنى قد أسـلمت، قـالوا فى ما ليس فى .

.. ورجعت إلى أهلى فأمرتهم فأسلموا، وكتمت الأمر عن اليهود .

.. بعث رسول الله ﷺ فى طلب أحبار اليهود، وهـو بـدار سـعد، فقـدموا عليـه، وعبـد اللـه بـن سـلام مختبئ، فقال لهم :

ـ يا معشر يهود ويلكم، اتقوا الله، فوالله الذى لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقــا، وأنى جئتكم بحـق فأسلمـوا .

قالوا منكرين :
ـ ما نعلمه .
قال ﷺ :
ـ فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ .
قالوا :
ـ سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا .
قال ﷺ :
ـ أفرأيتم إن أسلم ؟ .
قالوا :
ـ حاش لله ما كان ليسلم .
قال ﷺ :
ـ يا ابن سلام اخرج عليهم .
.. فخرج " ابن سلام " عليهم، وقال لهم :
ـ يا معشر يهود، اتقوا الله، فو الله الذى لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بالحق.
قالوا :
ـ كذبت، فأنت شرنا وابن شرنا .
قال :
ـ يا رسول الله هذا الذى كنت أخاف .
قال نبى الله ﷺ :
ـ لا تحزن يا ابن سلام، فلقد قال فيهم رب العالمين فى قرأنه العظيم : وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) سورة البقرة

.. وتمر الأيام والشهور .
والمسجد يعلو، ويرتفع البنيان، فلقد تسامقت جدرانه، وبنيت قبلته من الحجر المنضد وكانت إلى بيت المقدس، وعن يمينها كان جذع نخلة بدلا من المنبر، وجعلت أعمدة المسجد من جذوع النخيل، وفرشت أرضه بالحصى، وكانت مساحته تزيد على الأربعة آلاف ذراع، أما السقف فقد عرش بسعف النخيل وغطى بالطين، وجعل للمسجد ثلاثة أبواب : باب الرحمة، وباب النساء، وباب جبريل، وهو الباب الذى يدخل منه رسول الله ﷺ، لأنه يفتح على داره، وجعلت فى الجهة الجنوبية من الجامع، مظلة من سعف النخيل، فكان يلجأ إليها الوافدون من خارج المدينة، والمهاجرون ممن ليست لهم دور، وسميت بالصفة .
.. وأثناء البناء مات بقباء كلثوم بن هدم، فصلى عليه رسول الله ﷺ ودفنه، وقام على قبره، ثم لحق به " أبو امامة "، فقالت اليهود والمنافقون ساخرين :
ـ لو كان محمد نبيا بحق لما مات صاحبه .
.. ولقد تأذى رسول الله ﷺ كثيرا من قولهم، وقال :
ـ لبئس الميت أبو أمامة، اليهود ومنافقو العرب يقولون : لو أن محمد نبى ما مات صاحبه، ولا أملك لنفسى ولا لصاحبى من الله شيئا .
.. ولقد حاول بعض المقتدرين من المسلمين أن يزخرفوا المسجد، ولكن رسول الله ﷺ، قال :
ـ ما أمرت بتشييد المساجد لنزخرفنها، كما زخرفت اليهود والنصارى .
.. وقال أيضا :

ـ لا تقوم الساعة حتى يتباهى فى المساجد .

منذ القدم كانت العداوة والبغضاء مستعرة بين الأوس والخزرج، وكان اليهود ينفخون دائما فى نارها كلما هدأت ليشعلوا جذوتها، ولكن بعد دخول الكثرة من القبيلتين فى دين الله، استطاع الإسلام أن يؤلف بينهم، ونزل جبريل بقول من الله تعالى بسورة آل عمران، يحضهم على التمسك بنعمة الله "*وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَإذا كان الحث على التآلف وَالاَعتصام بدين الله، واضح كل الوضوح فى هذه الآية، فإن التحذير الإلهى بالبعد عن التفرق والعداوة واضحا كل الوضوح ، فلقد شبه التفرق بحفرة من النار ..

: إذن أليس من الكياسة أن يكون هناك عقد يؤاخى بين كل هذه العناصر، ويكون ميثاقا بينهم، يتواثقون عليه أمام الله ورسوله ؟ .

.. استأذن رسول الله ﷺ من أنس بن مالك أن يدعو إلى داره الأوس والخزرج والمهاجرين، وتنادى المسلمين، فلما تجمعوا كانوا تسعين رجلا أو يزيد، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يتآخوا فى الله، قائلا :

ـ تآخوا فى الله أخوين أخوين .

.. فلبوا دعوته بلا تردد، وأخذ كل واحد ممن حضروا اللقاء يتخذ له أخا، وأوصاهم رسول الله ﷺ بأن تواصوا ويرث بعضهم بعضا بعد الممات، فلم يبق إلا على، فقال ﷺ وقد دمعت عيناه :

ـ يا رسول الله قد آخيت بين أصحابك، ولم تؤاخ بينى وبين أحد .

.. فأخذ رسول الله ﷺ بيد على بن أبى طالب، وضرب عليها قائلا :

ـ أما ترضى أن أكون أخاك .

قال على ﷺ :

ـ بلى يا رسول الله .

قال رسول الله ﷺ :

ـ فأنت أخى فى الدنيا والآخرة .

.. وهكذا بدأ رسول الله ﷺ بتنفيذ أول خطوة فى بناء قواعد راسخة للأمة، توحيدا بين أهم عناصرها من المسلمين الذين فى أصولهم ينتمون لعناصر ثلاثة : الأوس والخزرج والمهاجرين، ثم أضيف إليهم عنصر رابع وهم غير المسلمين من يهود وغيرهم .

.. وظهرت الأثرة بين الأنصار والمهاجرين تهز القلوب هزا، فلقد أصر من يملك مالا أو دارا، على أن يقتسم ما يملك مع أخيه فى حياته، ولكن المهاجرين رفضوا، واكتفوا بأن يكون الاقتسام فى ثمار الزرع والتجارة.

.. بل لقد وصل حد الأثرة بسعد بن الربيع، أن يقول لعبد الرحمن بن عوف:

ـ هاك مالى، فاقتسمه معى، وهاك زوجتى،اختر إحداهما فأنزل لك عنها فتتزوجها بعد أن تنقضى عدتها .

.. فإذا بعبد الرحمن ﷺ يرد عليه قائلا :

ـ بارك الله لك فى زوجك ومالك، إنما دلنى على السوق لأتجر وأربح .

أما البقية من الذين ليس لهم سبيل على التجارة، فلقد اشتغلوا بالزراعة مع إخوانهم من الأنصار، ونزل فيهم قول الله تعالى سورة الحشر: وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)

.. كان الرسول ﷺ يستمع ويرى، ويحمد الله على ما أنعم به على عباده من الأنصار والمهاجرين، فجعلهم إخوانا متحابين :

وجاءه الوحى ينبئه برضا الله تعالى،عما قضى به من مؤاخاة، وبما صاغ من عهد.

قال رسول الله ﷺ يوصيهم :

ـ أنصر أخاك ظالما أو مظلوما .

قالـوا :

ـ يا رسول الله ننصره مظلوما، فكيف ننصره ظالما ؟! .

قال رسول الله ﷺ :

ـ بمنعه عن ظلمه .

ويؤكده بقول الله تعالى فى سورة الأنفال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ .

.. وتنادى بعض من المهاجرين، بالمؤاخاة لمن بقوا فى مكة من المسلمين، ووتتابع كلمات الآية من ذات السورة، فى قول الله تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إلا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٧٢)

.. وحسمت القضية، ولم يعد أحد من المهاجرين للخوض فيها .

.. ولقد وصل الحال من كثرة ما أغدق الأنصار من رعاية وحب على المهاجرين، أن المهاجرين قد خشوا من ضياع أجرهم عند رب العالمين، فلقد فاق عمل الأنصار أعمالهم، فذهبوا إلى رسول الله، قائلين:

ـ يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل، ولا أحسن بذلا فى كثير، مثل الأنصار، لقد كفونا المئونة، وأشركونا فى المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله .

قال رسول الله ﷺ :

ـ لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتم الله لهم .

: ما أروع نصحك يا حبيبى : ما أثنيتم عليهم ، ولم لا وقد قال الله تعالى فى سورة إبراهيم : " وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأزِيدَنَّكُمْ ."

الفصل الثانى عشر :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

سورة الفتح

- ١ -

لما انتهى بناء المسجد، هفت أفئدة المسلمين إليه، وزاد من تعلقهم به، وجود رسول الله ﷺفيه دائما، فتكاد تكون حياته كلها قائمة بالمسجد، فهو لا يغادره إلا للنوم، أو لقضاء حاجة .

توافدت جموع المسلمين على مسجد رسول الله، من يقيم منهم بالمدينة، ومن يفد من البادية، وانتظمت فى مداومة ترددها عليه، لأداء الصلاة، أو للجلوس بين يدى نبى الله، وكان ﷺ يقول ممتدحا عملهم :

ـ ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة،وذكرهم الله فيمن عنده.

يقول الله عز وجل، فى حديث قدسى : أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه حين يذكرنى، فإذا ذكرنى فى نفسه، ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ، ذكرته فى ملأ خير منه، فإن اقترب إلى شبرا، اقتربت إليه ذراعا، وإن اقترب إلى ذراعا، اقتربت منه باعا، وإن أتانى مشيا أتيته هرولة .

ويرتل رسول الله ﷺ عن رب العزة سبحانه وتعالى قوله فى سورة التوبة :

ـ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ فَعَسَى ـ أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ الْمُهْتَدِينَ (١٨)

ويَقول رسول اللَه ﷺ :

ـ من بنى مسجدا ليذكر الله فيه، بنى الله له بيتا فى الجنة .

وقال رسول الله ﷺ :

ـ لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدى هذا، والمسجد الحرام، ومسجد بيت المقدس .

ـ صلاة فى مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا الحرام.

ـ ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة، ومنبرى على حوضى .

قال رسول الله ﷺ يعلمهم، وقد وجد أحدهم قد تفل فلصقت بصقته بقبلة المسجد :

ـ إن أحدكم إذا قام فى الصلاة فإنما يناجى ربه، فلا يبصقن أحدكم قبل قبلته .

ثم مسح رسول الله ﷺ البصقة بطرف بردته .

وفد أعرابي من البادية،ليسأل رسول الله ﷺ فى بعض أمور دينه، فلما ولج إلى المسجد انفرد بركن منه، وبال على أرضه، وحين هم بعض الصحابة بزجره، أسكتهم الحبيب ﷺ قائلا فى رحمة :

ـ لا تروعوه .

ولما انتهى الأعرابى من قضاء حاجته، أقبل على رسول الله ﷺ، فلم يزجره، ولم يعلن الحرب على عشيرته، ولا أمر بهدم مضاربهم، كما فعل " أبرهة الأشرم "، فى الماضى البعيد، لما أحدث أعرابي فى كنيسته، فقدم على مكة يريد أن يهدم الكعبة؛ بل هش فى وجهه، وقال لمن حوله :

ـ إنما جعلت المساجد للطهر وللصلاة .

ثم أمر بوعاء به ماء، وصار ينثره على بول الأعرابى .

- ٢ -

.. كان يجمع للصلاة فى المسجد بغير دعوة، فيفد بعض المسلمين بعد انتهاء صلاة الجماعة، فيأسى رسول الله ﷺ على الذين فاتهم ثوابها، فصلاة الجماعة بعشر صلوات منفردة، وهو ما كان يجعل رسول الله ﷺ يطلب من بعض أصحابه إعادة الصلاة مع من وفد متأخرا، قائلا :

ـ من يأخذ ثواب أخيه ؟.

.. ولقد شغل ذهن رسول الله ﷺ بالبحث عن سبيل لتنبيه المسلمين إلى مواقيت الصلاة، وحين أخبر أصحابه بأنه يريد أن يعلن بالصلاة، قال البعض :

ـ لنعلن عن موعدها بالبوق .
ولم يعجب رسول الله ﷺ، وقال :
ـ هو من أمر اليهود .
قال البعض الثانى :
ـ لنعلنها بالناقوس .
.. ولم يعجب رسول الله ﷺ، وقال :
ـ هو من أمر النصارى .
قال البعض الثالث :
ـ لو رفعنا نارا .
.. ولم يعجب رسول الله ﷺ، وقال :
ـ ذلك للماجوس .

وانفض المجلس دون الوصول إلى رأى، ولحظ " عبد الله بن زيد " وهو نفر من الأنصار، انشغال بال رسول الله ﷺ بهذا الأمر، فعز عليه أن يكون الحبيب محمد ﷺ على مثل هذا الحال، ونام ليلته وهو مهموم، فأتاه آت فقال له :

ـ إيت رسول الله ﷺ، فمره أن يقول : الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، حى على الصلاة، حى على الصلاة، حى على الفلاح، حى على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله .

ثم جلس القائل قليلا، ونهض يقول : الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله، حى على الصلاة، حى على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله ."

قام عبد الله من نومه منشرح الصدر، فلقد ذهب عنه الهم، وأسرع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بما أرى، فقال الحبيب ﷺ لعبد الله :

ـ إنها لرؤيا حق إن شاء الله تعالى، فقم إلى بلال فألق عليه ما رأيت، ليؤذن به فإنه ندى الصوت .

.. وكان جبريل عليه السلام قد جاء نبى الله ﷺ ، فى ذات الليلة بمثل ذلك، فلما صعد بلال إلى حائط المسجد ونادى للصلاة ، كان رسول الله ﷺ، يقول مثل ما يقول بلال، عدا : حى على الصلاة، حى على الفلاح، فلقد كان رسول الله يقول :

ـ لا حول ولا قوة إلا الله .
فإذا ما انتهى الأذان، قال :
ـ اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، صل على محمد وأعطه سؤله يوم القيامة .

وعند أذان الإقامة، كان رسول الله ﷺ يقول مثلما يفعل عند الأذان، وعندما يقول المؤذن : قد قامت الصلاة، يقول :

ـ أقامها الله وأدامها .

.. وحين تجمع المسلمون للصلاة، إذا بعمر بن الخطاب يقبل مهرولا، ويقول لرسول الله ﷺ :

ـ والذى بعثك بالحق يا رسول الله، لقد رأيت فى نومى مثل الذى أرى .
فقال رسول الله ﷺ :
ـ فلله الحمد فذلك ثبت .

كان رسول الله ﷺ يؤم المصلين، وهو يعلم تمام العلم مدى التصاق عيونهم بحركاته وسكناته ليتأسوا به، وتلهف آذانهم لالتقاف كلماته ليتعلموا منها ويعلموا، فهو النبى المقتدى .

كان يعلمهم كل شئ، بدءا بإظهار وضوئه خارج المسجد، فيؤتى له بالإناء، فيسمى اسم الله، ثم يصب على يديه فيغسلهما ثلاثا، ثم يحسو بكفيه من الإناء فيتمضمض ثلاثا، ثم يستنشق ثلاثا، ويغسل وجهه ثلاثا،ويغسل ذراعه اليمنى فاليسرى ثلاثا حتى المرفقين، ثم يمسح على رأسه ثلاثا، ويمسح بأذنيه، ثم يغسل رجليه ثلاثا بادئا باليمنى ثم اليسرى .

ويقول أثناء وضوئه :

- اللهم اغفر لى ذنبى، ووسع لى فى رزقى .

.. وكان ﷺ يقول عن ماء الوضوء :

- الماء لا ينجسه شئ، إلا ما غلب على : طعمه وريحه ولونه .

.. وإذا لم يكن هناك ماء تيمم، فضرب الأرض بكفيه ومسح على وجهه، ثم ضربها ومسح على يديه، ويكرر ذلك كل صلاة إذا لم يتوافر الماء .

.. وحين يتجه ﷺ إلى المسجد، يقول وهو يدخله :

- اللهم صل على محمد، اللهم اغفر لى ذنوبى، وافتح لى أبواب رحمتك .

فإذا اجتمع المسلمون للصلاة، دعاهم لأن يسووا صفوفهم، ويصفهم بيديه، أو بإشاراته، قائلا :

- استووا، أقيموا صفوفكم وتراصوا، لا تختلفوا فتختلف قلوبكم .

فإذا ما اطمأن إلى تراص الصفوف، اتجه إلى القبلة رافعا ذراعيه مكبرا، ثم وضع يديه على صدره، اليمنى فوق اليسرى، واستغرق فى ذكر الله، وراح يناجى ربه فى سره قائلا :

- وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك الحق لا إله إلا أنت، سبحانك وبحمدك، أنت ربى وأنا عبدك، لا شريك لك، ظلمت نفسى، واعترفت بذنبى، فاغفر لى ذنوبى جميعا، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق، وأحسن الأعمال، لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنى سيئها، وقنى سئ الأعمال وسئ الأخلاق، لا يصرف سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله فى يديك، والشر ليس إليك، الهدى من هديت، فأنا بك وإليك، لا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، استغفرك وأتوب إليك .

.. وكان من عادة رسول الله ﷺ، إذا ما انتهت صلاة الفجر، أن يبقى فى مجلسه يذكر الله، ثم يستدير إلى جموع الحاضرين يدعو قائلا :

- اللهم إنى أعوذ بك من كل عمل يخزينى، وأعوذ بك من كل غنى يطغينى،
وأعوذ بك من كل صاحب يردينى، وأعوذ بك من كل أمل يلهينى، وأعوذ بك من
من فقر ينسينى .

وكان من دعاء رسول الله ﷺ :

- اللهم إنى أسألك رزقا طيبا،وعلما نافعا، وعملا متقبلا.

ويرفع صوته ليسمع أصحابه دعاءه، مكررا كل دعاء ثلاث مرات :

- اللهم أصلح لى دينى الذى جعلته عصمة أمرى .

اللهم أصلح لى آخرتى التى جعلت إليها مرجعى .

اللهم أصلح لى دنياى التى جعلت فيها معاشى .

اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بك منك .

اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

وكان رسول الله ﷺ يقول :

ـ لأن أقعد مع قوم يذكرون الله من بعد صلاة الفجر إلى أن تطلع الشمس، أحب إلى من أن أعتق أربعة من بنى إسماعيل، دية كل رجل منهم اثنا عشر ألفا، ولأن أقعد مع قوم يذكرون الله من بعد صلاة العصر الى أن تغرب الشمس، أحب إلى من أن أعتق أربعة من بنى إسماعيل، دية كل رجل منهم اثنا عشر ألفا .

جلس رسول الله ﷺ إلى من بالمسجد يوما، فقال :

ـ أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، ما تقولون يبقى ذلك من درنه شيئا ؟.

قال الحاضرون :

ـ لا يبقى ذلك من درنه شيئا .

قال رسول الله ﷺ :

ـ فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله تعالى بها الخطايا .

فإذا ما انقضت الصلاة، وختم الدعاء، وأراد رسول الله ﷺ أن يخرج من المسجد قال :

ـ اللهم اغفر لى ذنوبى، وافتح لى أبواب فضلك .

جاء رجل إلى المسجد، وكان رسول الله ﷺ يجلس، ومعه صحابته، وقال :

ـ يا رسول الله إنى أصبت حدا فأقمه على .

فتشاغل عنه رسول الله ﷺ، فأعاد الرجل مقولته، فسكت عنه رسول الله ﷺ، وأذن لإقامة الصلاة، وقام الحاضرون إلى صلاتهم، فلما انقضت، انصرف رسول الله ﷺ، فتبعه الرجل، وأعاد عليه ما قاله من قبل، فقال له الحبيب :

ـ أرأيت حين خرجت من بيتك، أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء ؟.

قال الرجل :

ـ بلى يا رسول الله .

قال رسول الله ﷺ :

ـ ثم شهدت الصلاة معنا ؟.

قال الرجل :

ـ نعم يا رسول الله .

قال رسول الله ﷺ :

ـ فان الله تعالى قد غفر لك ذنبك .

: ألا ما أرحمك يا حبيبى .

: وما أعظم صبرك .

: وما أشرح صدرك .

ذات يوم، جاء إلى رسول الله ﷺ رجل، فقال :

ـ يا رسول الله، لقد ربحت اليوم ربحا ما ربحه أحد من أهل هذا الوادى .

فسأله رسول الله ﷺ :

ـ ويحك، وما ربحت ؟.

قال الرجل :

ـ ما زلت أبيع وأبتاع، حتى ربحت ثلاثمائة أوقية .

فقال له رسول الله ﷺ :

ـ أفلا أنبئك بخير وأربح ؟.

قال الرجل :
ـ ما هو يا رسول الله ؟.
قال رسول الله ﷺ :
ـ ركعتين بعد الصلاة .
سئل رسول الله ﷺ :
ـ أى الأعمال أفضل ؟.
قال ﷺ :
ـ الصلاة لأول وقتها .
قال رسول الله ﷺ ناصحا بعض ضيوفه :
ـ عليك بكثرة السجود، فانك لا تسجد سجدة لله تعالى، إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة.
قال رسول الله ﷺ :
ـ مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع،واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم فى المضاجع .
ـ من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك .
ـ بين الرجل وبين الشرك ترك الصلاة .

ـ ٤ ـ

.. كان من يفدون على مسجد رسول الله ﷺ، يحبون أن يسألوه فى أمور دينهم، زيادة فى العلم، واستزادة فى التفقه، ولما سألوه عن الصوم، قال رسول الله ﷺ :
ـ كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى : إلا الصوم، فإنه لى، وأنا أجزى به، يدع شهوته وطعامه من أجلى .
ـ للصائم فرحتان : فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه . ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .
وقال :
ـ الصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن شاتمه أحد أو قاتله، فليقل : إنى صائم، إنى صائم .
ـ من صام يوما فى سبيل الله تعالى، جعل الله بينه وبين النار خندقا كما بين السماء والأرض .
ـ إن فى الجنة بابا يقال له باب الريان، لا يدخله إلا الصائمون، فإذا دخلوا أغلق فلا يدخل منه أحد .
ـ إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وسلسلت الشياطين، وينادى مناد كل ليلة : يا باغى الخير هلم، ويا باغى الشر أقصر .
.. ولما سألوا رسول الله ﷺ عن الحج والعمرة، قال :
ـ جهاد الصغير والكبير، والضعيف والمرأة : الحج والعمرة .
قال أبو هريرة رضي الله عنه :
.. خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم، فقال :
ـ يا أيها الناس، قد فرض عليكم الحج فحجوا .
فسأله رجل :
ـ أفى كل عام يا رسول الله ؟.
فسكت رسول الله، حتى قالها الرجل ثلاث مرات، ثم قال :
ـ ذرونى ما تركتكم، لو قلت : نعم، لوجبت ولما استطعتم، إنما أهلك من قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإن أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شئ فاجتنبوه .

كان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه، ويحبب إليهم التعلم، فكان ينقل إليهم بعض ما يحمله إليه جبريل عليه السلام من علم، ولا يفصح به كله، فهو ينبئهم بما تطيقه أفئدتهم، لأنه لا ينسى ـ كيف ارتعدت الأفئدة، واهتز اليقين، حين سمع المسلمون الأول بأمر إسرائه ومعراجه، فما بالكم لو قال بما يوحى إليه من السماء من أمور الغيب، إذن لاختلت العقول ؟.

قال رسول الله ﷺ :

ـ من سلك طريقا يطلب به علما، سلك الله به طريقا من طرق الجنة، وان الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العلم ليستغفر له من فى السماوات ومن فى الأرض، والحيتان فى جوف الماء، وأن فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وأن العلماء ورثة الأنبياء، وأن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، ولكن ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر .

.. ويحض رسول الله ﷺ على التعلم، فيقول :

ـ من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين .

ـ من خرج فى طلب العلم، فهو فى سبيل الله حتى يرجع .

ـ من سئل عن علم فكتمه، ألجم بلجام من نار .

ـ ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما، اتخذ الناس رؤساء جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم،
فضلوا وأضلوا .

.. ولقد شخص رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء ذات يوم وهو فى مجلسه، وكثيرا ما يفعل، ثم قال :

ـ هذا أوان يختلس العلم من الناس، حتى لا يقدروا منه على شئ .

وتساءل " زياد بن لبيد الأنصارى " دهشا، قال :

ـ كيف يختلس العلم منا وقد قرأنا القرآن، والله : لنقرأنه ونقرأنه أولادنا ونساءنا ؟.

قال رسول الله ﷺ :

ـ إنى كنت لأعدك يا زياد من فقهاء المدينة، هذه التوراة والانجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تغنى عنهم ؟.

وقام " زياد " وفكره مشغول بما قاله رسول الله ﷺ، فلم يدرك معناه، فلقى " عبادة بن الصامت " رضي الله عنه فحدثه بما سمع، فقال له عبادة :

ـ صدق رسول الله ﷺ، فإن شئت أخبرتك ما أول علم يرفع : أول علم يرفع من الناس الخشوع، يوشك أن تدخل المسجد الجامع، فلا ترى فيه رجلا خاشعا .

قال رسول الله ﷺ :

ـ تعلموا الفرائض والقرآن، وعلموا الناس فإنى مقبوض .

ذات يوم، بينما بعض الصحابة، جلوس إلى رسول الله ﷺ بالمسجد، طلع عليهم رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منهم أحد، حتى جلس إلى النبى ﷺ وقد أسند ركبتيه إلى ركبتيه، وقال :

ـ يا محمد أخبرنى، عن الإسلام ؟ .

فقال رسول الله ﷺ :

ـ الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا .

قال الرجل :

ـ صدقت .

وتعجب الصحابة من أمر الرجل، يسأل رسول الله ويصدقه، ثم قال الرجل :
ـ فأخبرنى عن الإيمان ؟ .
قال رسول الله ﷺ :
ـ أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره .
قال الرجل :
ـ صدقت، فأخبرنى عن الإحسان ؟ .
قال رسول الله ﷺ :
ـ أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك .
قال الرجل :
ـ صدقت، فأخبرنى عن الساعة ؟ .
قال رسول الله ﷺ :
ـ ما المسئول عنها بأعلم من السائل .
قال الرجل :
ـ فأخبرنى عن إماراتها ؟ .
قال رسول الله ﷺ :
ـ أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان .
.. ثم انطلق الرجل خارجا من المسجد، فلبث رسول الله ﷺ فى صمت مليا، ثم التفت إلى عمر بن الخطاب، وقال :
ـ يا عمر أتدرى من السائل ؟ .
قال عمر :
ـ الله ورسوله أعلم .
قال رسول الله ﷺ :
ـ هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

ـ ٦ ـ

.. سأل أعرابى رسول الله ﷺ بعد الصلاة، عن القضاء والقدر، فقال :
ـ قال موسى : يا رب أرنى آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة . فأراه الله أباه آدم عليه السلام، فقال : أنت أبونا آدم ؟ . قال : نعم . فقال : أنت الذى نفخ الله فيك من روحه، وعلمك الأسماء كلها، وأمر الملائكة فسجدوا لك ؟. قال : نعم . فقال : فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟. قال آدم : ومن أنت ؟ . فقال : أنا موسى . قال: أنت الذى اصطفاك الله برسالاته، أنت نبى بنى إسرائيل الذى كلمك الله من وراء الحجاب، ولم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه ؟. فقال : نعم . قال : فما وجدت ذلك فى كتاب الله قبل أن أخلق ؟. فقال : بلى . قال : فيم تلومنى، فى شئ سبق من الله فيه القضاء قبلى ؟!.
قال رسول الله ﷺ :
ـ فحج آدم موسى، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى عليهما السلام .
.. وكان رسول الله ﷺ يقول لصحابته ناصحا :
ـ لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر، خيره وشره، وحتى يعلم أن ما أصابه، لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

ـ من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله تعالى، ومن شقاوة ابن آدم تركه استخارة الله تعالى، ومن شقاوة ابن آدم سخطه بما قضى الله تعالى .

ـ المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شئ، فلا تقل : لو أنى فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان .

ـ ان خلق أحدكم : يجمع فى بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا بأربع كلمات يكتب :رزقه، وأجله، وعمله، وشقى أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح ؛ فوالذى لا إله إلا غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها .

ـ لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون : لا قدر ؛ فمن مات منهم فلا تمشوا فى جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوه، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال .

جاءه " سراقة بن مالك بن جثعم " ﵁ ، فقال :

ـ يا رسول الله، بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن : فيم العمل الآن ؟ .. أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل ؟ .

قال رسول الله ﷺ :

ـ لا . بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير .

قال سراقة :

ـ ففيم العمل ؟ .

قال رسول الله ﷺ :

ـ اعملوا، فكل ميسر لما خلق له، وكل عامل بعمله .

ـ ٧ ـ

.. فرضت الزكاة على المسلمين فى مسجد نبى الله ﷺ، تأكيدا على روح المؤاخاة بينهم، وعلى التكافل، وأمر رسول الله ﷺ أن يأخذها من المقتدرين منهم، ويعطيها لفقرائهم، وبهذا اكتملت أركان الإسلام الخمسة :

ـ "* خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ."

ـ "* يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ."

ـ " * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ."

.. وذات يوم، جلس رسول الله ﷺ إلى أصحابه، فقال :

ـ أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن : لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة .

جاءه رجل، وقال له :

ـ يا رسول الله، عندى دينار .

قال رسول الله ﷺ :

ـ تصدق به على نفسك .

قال الرجل :

ـ عندى آخر .

ـ تصدق به على ولدك .
قال الرجل :
ـ عندى آخر .
قال رسول الله ﷺ :
ـ تصدق به على زوجك .
قال الرجل :
ـ عندى آخر .
قال رسول الله ﷺ :
ـ تصدق به على خادمك .
قال الرجل :
ـ عندى آخر .
قال رسول الله ﷺ :
ـ أنت أبصر به .
.. دخل المسجد رجل على هيئة توحى بالفاقة، ورسول الله ﷺ يأمر بالصدقة، فتصدق الناس، فأعطى رسول الله ﷺ للرجل ثوبين، ثم قال ﷺ :
ـ تصدقوا .
فأعطاه الرجل أحد الثوبين، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال :
ـ أترون إلى هذا الذى رأيته فى هيئة بذة فأعطيته ثوبين، ثم قلت تصدقوا، فطرح أحد ثوبيه .
ومد يده بالثوب يعيده إلى الرجل، قائلا :
ـ خذ ثوبك .
.. جاءه رجل بمثل بيضة من الذهب، فقال :
ـ يا رسول الله، أصبت هذه من معدن فخذها فهى صدقة .
فأعرض عنه رسول الله ﷺ، فصار الرجل يكرر قوله، فأخذها منه رسول الله ﷺ، ثم ردها إليه، وقال:
ـ يأتى أحدكم بما يملك فيقول : هذه صدقة، ثم يقعد يتكفف الناس، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول .
ـ إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة، فلها أجرها بما أنفقت، ولزوجها أجره بما اكتسب، وللخازن مثل ذلك لا ينقص بعضهم من أجر بعض شيئا .
ـ لا تنفق المرأة من بيت زوجها إلا بإذنه .
قيل :
ـ يا رسول الله ولا الطعام ؟ .
قال :
ـ ذلك أفضل أموالنا .
ـ العائد فى صدقته، كالعائد فى قيئه .
ـ ثلاث من فعلهن فقد ذاق طعم الإيمان : من عبد الله وحده، وعلم أنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه، رافدة عليه كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا المريضة ولا الشرط اللئيمة، ولكن من أوسط أموالكم، فإن الله تعالى لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشره .
سأل رجل رسول الله ﷺ، قال :
ـ ما الإيمان، وما الإسلام يا نبى الله ؟.
قال رسول الله ﷺ :

ـ الإيمان بضع وسبعون شعبة، والحياء شعبة من شعب الإيمان، فأفضلها قول : لا إلـه إلا اللـه، وأدناهـا إماطة الأذى عن الطريق .

ـ ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مـما سـواهما، ومـن أحـب عبدا لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله تعالى منه، كما يكره أن يلقى فى النار .

ـ من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الايمان .

ـ من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريـك لـه، وأن محمـدا رسـول اللـه، وأن عيسى ـ عبـد اللـه ورسـوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان عليه من عمـل .

ـ والذى نفس محمد بيده، لا يسمـع بى أحد من هـذه الأمـة يهـودى ولا نصرانى ثـم يمـوت ولم يـؤمن بالذى أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار .

ـ يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان .

ـ لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

ـ عجبا لأمر المؤمن، إن أمـره كله خير وليس ذلك لأحد إلا المؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيرا لـه، وإن أصابته ضـراء صبر فكان خيرا له .

ـ من كان يؤمن بالله واليوم الآخـر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت .

ـ المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم .

قال رجل :

ـ يا رسول الله، أى الإسلام خير ؟.

قال رسول الله ﷺ :

ـ تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف .

ـ إذا أسلم العبد فحسن إسلامه، كتب الله له كل حسنة كان أزلفها، ومحيت عنه كل سيئة كان أزلفها، وكان بعد ذلك القصاص، كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والسـيئة بمثلهـا إلا أن يجـاوز اللـه عنها .

ـ من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله، دخل الجنة .

قال رسول الله ﷺ :

ـ أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا أدخل الجنة .

قال أحد الصحابة :

ـ وإن زنا، وإن سرق ؟.

قال : وإن زنا، وإن سرق .

.. وعنه أنه قال ﷺ :

ـ أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة، من قال : لا إله إلا الله خالصة من قلبه .

ـ كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ـ ٨ ـ

كان رسول الله ﷺ يحض على مكارم الأخلاق، ويقول :

ـ إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

ويدعو ربه قائلا :

ـ اللهم كما أحسنت خلقى، فحسن خلقى .

ـ إن صاحب الخلق، يبلغ به يوم القيامة درجة الصائم القائم .
ـ اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن .
ـ من حسن الخلق ترك مالا يعنيك .
جلس رسول الله ﷺ إلى أصحابه فقال لهم :
ـ إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تتجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تنابذوا، وكونوا عباد الله إخوانا، كما أمركم الله تعالى : المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ؛ كل المسلم على المسلم حرام : ماله، ودمه، وعرضه ؛ إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .
.. وأخذ النبى ﷺ يشير إلى صدره، ويقول :
ـ التقوى ها هنا، التقوى ها هنا، التقوى ها هنا .
ـ ألا لا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث.
ـ مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعت له سائر الجسد بالسهر والحمى .
ـ من غشنا فليس منا .
ـ من أدخل على أهل بيت من المسلمين سرورا، لم يرض الله له ثوابا دون الجنة .
ـ أحبب حبيبك هونا ما، عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض بغيضك هونا ما، عسىـ أن يكون حبيبك يوما ما .
ـ يقول الله تبارك وتعالى :وجبت محبتى للمتحابين فى، وللمتجالسين فى، وللمتزاورين فى، وللمتباذلين فى.
ـ ان من عباد الله ناسا ما هم أنبياء، ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة، هم قوم تحابوا بروح الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها ؛ فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، ولا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس .. وقرأ ﷺ هذه الآية : "* ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ."
ـ المسلم أخو المسلم : لا يظلمه، ولا يسلمه؛ ومن كان فى حاجة أخيه، كان الله فى حاجته ؛ ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة ؛ ومن ستر مسلما، ستره الله يوم القيامة، ومن مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه، ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ؛ والله فى عون العبد، ما كان العبد فى عون أخيه .
ـ من ذب عن عرض أخيه، رد الله النار عن وجهه يوم القيامة .
ـ ما أكرم شاب شيخا لسنه، إلا قيض له الله تعالى من يكرمه عند سنه .
ـ ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويأمر بالمعروف، وينه عن المنكر .
ـ أتحب أن يلين قلبك، وتدرك حاجتك : ارحم اليتيم، وامسح رأسه، يلن قلبك، وتدرك حاجتك .
ـ حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنازة، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس .
ـ أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفكوا العانى .
ـ طوبى لمن هدى للإسلام، وكان عيشه كفافا وقنع .
ـ لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدوا خماصا، وتروح بطانا .
ـ ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس .
ـ إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه فى المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه، فذلك أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم .

ـ ليس الشديد بالصرعة، وإنما الذى يملك نفسه عند الغضب .
ـ من ضار ضار الله به، ومن شاق شق الله عليه .
ـ إياكم والجلوس فى الطرقات، فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه : غض البصرـ وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وتغيثوا الملهوف، وتهدوا الضال .
ـ إذا كانوا ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه .
ـ لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه، ثم يجلس فيه، ولكن توسعوا وتفسحوا يفسح الله لكم .
ـ إذا خرج رجل وعاد، فهو أحق بمجلسه .
ـ لا يحل لرجل أن يجلس بين اثنين، إلا بإذنهما .
ـ لا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقى .
ـ المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل .
ـ ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ .
قالوا :
ـ بلى يا رسول الله .
قال رسول الله ﷺ :
ـ إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هى الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين .
ـ أحبب لأخيك ما تحب لنفسك .
ـ المسلم الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم، خير من الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم .
ـ الصدق يهدى إلى البر، والبر يهدى إلى الجنة، وان الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وان الكذب يهدى إلى الفجور، وان الفجور يهدى إلى النار، وان الرجل ليكذب ويتحرى الكذب، حتى يكتب عند الله كذابا .
ـ دع ما يريبك إلى مالا يريبك، فان الصدق طمأنينة، والكذب ريبة .
ـ أد الأمانة لمن ائتمنك، ولا تخن من خانك .
ـ من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فان لم يستطع فبلسانه، فان لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان.
ـ إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر .
ـ إنكم منصورون، ومصيبون، ومفتوح عليكم، فمن أدرك ذلك منكم، فليتق الله تعالى، وليأمر بالمعروف، ولينه عن المنكر، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار .
.. كان رسول الله ﷺ يوصى بوصل الأقارب، ويقول :
ـ الرحم معلقة بالعرش، تقول : من وصلنى وصله الله، ومن قطعنى قطعه الله .
ـ من سره أن يبسط الله تعالى فى رزقه، وأن ينسأ له فى أثره فليصل رحمه .
ـ تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم محبة فى الأهل، مثراة فى المال، منسئة فى الأثر .
ـ الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذى الرحم ثنتان .
.. جاء رسول الله ﷺ وهو يحدث بصلة الرحم رجل، فقال :
ـ يا رسول الله لى أهل أصلهم ويقطعوننى .
قال رسول الله ﷺ :
ـ صلهم .
قال الرجل :
ـ أعطيهم ويمنعوننى .

قال رسول الله ﷺ :
ـ لا تمنعهم وصلهم .
وكان رسول الله ﷺ يوصى المسلمين بالتراحم :
ـ الراحمون يرحمهم الله تعالى، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .
ـ لا يرحم الله من لا يرحم الناس .
ـ لا تنزع الرحمة إلا من شقى .
.. قبل رسول الله حفيده " الحسن "، وكان عنده رجل من المسلمين، فقال :
ـ ان لى من الولد عشرة، ما قبلت منهم أحدا .
فنظر إليه رسول الله ﷺ، ثم قال :
ـ من لا يرحم لا يرحم .
قال رسول الله ﷺ :
ـ جعل الله تعالى الرحمة مائة جزء، فامسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل فى الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه .
عن رسول الله ﷺ أنه قال :
ـ بينما رجل بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا، فنزل فشرب، ثم خرج، وإذا بكلب يلهث يأكل الثرى من شدة العطش، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى، فنزل البئر، فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقى، فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له، فغفر له .
قالوا :
ـ يا رسول الله، وان لنا فى البهائم أجرا ؟.
قال رسول الله ﷺ :
ـ فى كل كبد رطبة أجر .
ـ دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض .
ـ ان الرفق ما كان فى شئ إلا زانه، وما نزع من شئ إلا شانه .
ـ من يحرم الرفق، يحرم الخير كله .

ـ ٩ ـ

خرج رسول الله ﷺ يوما إلى الخلاء لقضاء حاجته، فبينما هو راجع، أبصر بامرأة عجوز تحمل على رأسها حملا ثقيلا من الحطب، فأقترب منها، وقال مستأذنا :
ـ ألا أحمله عنك يا خالة .
قالت العجوز، وهى تنقل إليه حملها :
ـ نعم .
ولما استوى الحمل على كاهل رسول الله ﷺ، قالت له العجوز :
ـ أى بنى، ألا أسدى إليك نصيحة ؟.
قال رسول الله ﷺ :
ـ نعم .
قالت العجوز :
ـ لقد نزل بالمدينة رجل يقال له محمد، فإذا رأيته فلا تتبعه فهو ما ينصحك إلا بما يهلكك .
وسكت رسول الله ﷺ ولم يعقب، واستمر يحمل الحطب حتى أوصله إلى خيمة العجوز، فأنزله حيث طلبت منه، وشكرت له العجوز صنيعه، ثم سألته :
ـ ما اسم الفتى ؟.

قال رسول الله ﷺ :
ـ محمد بن عبد الله .
قالت العجوز :
ـ أأنت هو من خوفونى من اتباع دينه ؛ أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله .
.. وكان رسول الله ﷺ، إذا بعث أحدا فى بعض أمره قال :
ـ بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا .
كما كان رسول الله ﷺ دائم النصح لصحابته باتقاء الله فى جيرانهم، وعن أم المؤمنين عائشة زوج رسول الله ﷺ، أن رسول الله قال :
ـ ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه .
وقال رسول الله ﷺ لصحابته :
ـ لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه .
سأله سائل :
ـ يا رسول الله لى جاران، فمن أهدى ؟.
قال رسول الله ﷺ :
ـ أقربهما منك بابا .
.. كان رسول الله ﷺ دائم الاستماع لمن يسأل، بلا ملل، ولا كلل، بسام لا يغضب إلا لله، يفيض فى كل ما ينفع أصحابه، ويشرح للكل بينما السائل واحد، مرحبا يهش ويقول ﷺ :
ـ سل عما شئت .
.. جاءه عامرى يقول :
ـ أشهد بالله الذى لا إله غيره، أن أمرك حق، فأنبئنى بأشياء أسألك عنها ؛ فأخبرنى يا ابن عبد المطلب ما يزيد فى العلم ؟.
قال رسول الله ﷺ :
ـ التعلم .
قال العامرى :
ـ فأخبرنى ما يدل على العلم ؟.
قال رسول الله ﷺ :
ـ السؤال .
قال :
ـ فأخبرنى ماذا يزيد فى الشر ؟.
قال رسول الله ﷺ :
ـ التمادى .
قال :
ـ فأخبرنى، هل ينفع البر بعد الفجور ؟.
قال رسول الله ﷺ :
ـ نعم، التوبة تغسل الحوبة، والحسنات يذهبن السيئات، وإذا ذكر العبد ربه عند الرخاء، أغاثه عند البلاء .

قال العامرى :

ـ وكيف ذلك يا ابن عبد المطلب ؟.

قال رسول الله ﷺ :

ـ ذلك بأن الله يقول : لا وعزتى وجلالى، لا أجمع لعبدى أمنين، ولا أجمع له أبدا خوفين، إن هو خافنى فى الدنيا، أمننى يوم أجمع فيه عبادى عندى فى حظيرة الفردوس، فيدوم له أمنه، ولا أمحقه فيمن أمحق، وإن هو أمننى فى الدنيا، خافنى يوم أجمع فيه عبادى لميقات يوم معلوم، فيدوم له خوفه .

قال العامرى :

ـ يا ابن عبد المطلب، أخبرنى إلام تدعو ؟.

قال رسول الله ﷺ :

ـ أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن تخلع الأنداد، وتكفر باللات والعزى وتقر بما جاء من الله من كتاب أو رسول، وتصلى الصلوات الخمس بحقائقهن، وتصوم شهرا من السنة، وتؤدى زكاة مالك، يطهرك الله بها ويطيب لك مالك، وتحج البيت إذا وجدت له سبيلا، وتغتسل من الجنابة، وتؤمن بالموت، والبعث بعد الموت، وبالجنة والنار .

قال العامرى :

ـ يا ابن عبد المطلب، إذا فعلت ذلك، فما لى ؟.

رتل رسول الله ﷺ قول الله تعالى :

ـ "* جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ."

قال :

ـ يا ابن عبد المطلب، هل مع هذا من الدنيا شئ، فإنه يعجبنى الوطاءة من العيش ؟.

قال رسول الله ﷺ :

ـ النصر والتمكن فى البلاد .

.. ولم يتوقف رسول الله ﷺ للحظة، عن رعاية المسلمين وتعليمهم، سواء من كان منهم بالمدينة أو فيما حولها، فكان يذهب كل يوم سبت ماشيا، أو راكبا، إلى مسجد قباء ليصلى فيه، فهو أول مسجد بنى فى الإسلام، ويقول عنه :

ـ صلاة فى مسجد قباء كعمرة .

وفى مسجد قباء، يلتقى بصحبه ويتذاكرون أمورهم، ويلقى فيهم درسه، ويجيبهم عما يسألون عنه، ويفصل فيما يحتكمون فيه إليه من الأمور، حسب ما شرع الله فى قرأنه المجيد، وحسب ما يدرسه له جبريل عليه السلام .

وكان يحرص على مشاركة أهل المدينة، المسلم منهم وغير المسلم فى سرائهم وضرائهم، فكان يحضر أفراحهم، ويمشى فى جنازاتهم، ويحثهم على الاقتداء به، وفعل ما يفعل، فكل عمله خير، وتوحيد للمشاعر فى أوقات الفرح والكرب .

.. كان يخدم رسول الله ﷺ غلام من يهود، فمرض الغلام مرضا شديدا أقعده، فلما انقطع عن الذهاب إلى بيت رسول الله ﷺ، سأل عنه، فلما علم بالحال التى هو عليها عاده، وقعد عند رأسه، متأثرا لشدة مرضه، وقال له فى عطف بالغ، وهو يشعر بدنو أجل الغلام :

ـ أسلم .

فراح الغلام ينظر إلى أبيه، وهو لا يدرى ما يقول، فقال له أبوه :

ـ أطع أبا القاسم .

فأسلم الغلام، وخرج رسول الله ﷺ من عنده وهو مسرور، وقال :

ـ الحمد لله الذى أنقذه بى من النار .

.. وكان رسول الله ﷺ يحض المسلمين على التزاور، وعيادة المريض، ويقول :
ـ ما من رجل يعود مريضا، إلا وخرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح، وكان له خريف فى الجنة، ومن أتاه مصبحا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يمسى، وكان له خريف فى الجنة .
ـ من عاد مريضا، أو زار أخا له فى الله تعالى، ناداه مناد : أن طبت، وطاب ممشاك، وتبوأت من الجنة منزلا .
ـ من توضأ، فأحسن الوضوء، وعاد أخاه محتسبا، بوعد من النار مسيرة سبعين ألف خريف .
وكان رسول الله ﷺ يعلمهم، أنه من آداب زيارة المريض، تخفيف الجلوس، وقلة الصخب، وأنه يحسن أن يدعو الزائر لمزوره بطول الأجل، قال ﷺ :
ـ إذا دخلتم على مريض، فنفسوا له فى أجله، فإن ذلك يطيب نفسه.
ـ من عاد مريضا لم يحضر أجله، فقال عنده سبع مرات :
أسأل رب العرش العظيم أن يشفيك . إلا عافاه الله تعالى من ذلك المرض .

ـ ١٠ ـ

.. لما أحس رسول الله ﷺ باستقرار الحياة فى المدينة، بعث زيد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة، ليخرجوا أهله، وأهل أبى بكر، ومن يستطيعون إخراجه من المسلمين
المحصورين فى مكة، وقد ذهب معهما عبد الله بن أريقط ليدلهما على الطريق ؛
فعادوا ومعهم : فاطمة وأم كلثوم ابنتا رسول الله ﷺ، أما إبنته رقية فكانت قد سبقت إلى المدينة مع زوجها عثمان بن عفان، مع من أذن لهم من المسلمين بالهجرة إلى طيبة، وأما زينب فمنعها زوجها أبو العاص بن ربيع، كما عادوا بسودة زوجة رسول الله ﷺ، وأم أيمن وابنها أسامة، وعبد الله بن أببكر ومعه جدته، وأخته أسماء وزوجها الزبير بن العوام، وأم رومان زوج أبيه وابنتها عائشة .
وانتقل رسول الله ﷺ إلى داره، ليعيش مع إبنتيه : فاطمة وأم كلثوم وزوجته سودة، بعد أن أقام بدار أبو أيوب طيلة سبعة أشهر، ولشد ما حزن أبو أيوب وزوجته، لمفارقة رسول الله ﷺ .
..وبنى الأنصار والمهاجرون بيوتا لهم فى الأرض المحيطة بالمسجد، رغبة منهم فى القرب من بيت الله، والتصاقا بالحبيب محمد ﷺ ؛ وحتى الأسواق المتناثرة بين أحياء المدينة بدأت تتجمع وتتوحد فى سوق رئيسية بالقرب من المسجد، وأخذت المدينة تتشكل على صورة أخرى غير تلك التى كانت عليها، حين وفد إليها رسول الله ﷺ .
فلقد توسعت الحياة حول الجامع، وأصبحت مبانى المدينة كتلة سكنية واحدة، بعدما كانت وحدات متفرقة، وهو أمر لم يأت عبثا، بعد أن سادت روح الإسلام التى بثها نبى الله ﷺ فى النفوس، لتتغلغل فيها وتتأصل، فتصير سلوكا، ويصبح التواد والتراحم، هو سمة هذا المجتمع الإسلامى الأول، فالمسلم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ومن هنا زالت مشاعر التربص والقلق والخوف بين القبائل والأفراد، لتحل بدلا منها مشاعر التآخى والتواد، وما كان تقارب المبانى إلا تعبيرا عن توحد المجتمع، وزوال الفرقة بين أفراده، فهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .
.. وإذا كان هذا قد حدث بين من دخل الإسلام من أوس وخزرج وهود، فلقد ظل من عموا عن نعمة الإسلام من اليهود، يعيشون فى أحيائهم المتطرفة، والتى تكاد تكون حصونا .

.. وبهذا توحد المسلمون فى المدينة، وأنشأت وحدتهم مدينة جديدة، تقوم فى ظاهرها على وحدة البناء، وفى أساسها على التقوى .

الفصل الثالث عشر :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾

الطاعنون

ـ ١ ـ

كان يهود المدينة منذ قديم الأزل، يجدون صفة رسول الله ﷺ عندهم فى التوراة، وكانوا كلما دارت عليهم الدوائر، أو أغار عليهم نفر من العرب يؤذونهم، يسألون الله عز وعلا أن يبعثه فكانوا يقولون :

ـ اللهم ابعث النبى الأمى الذى نجده فى التوراة، والذى وعدتنا أنك باعثه فى آخر الزمان .

فإذا ما قاتلوهم، يستفتحون عليهم، ويقولون :

ـ اللهم إنا نستنصرك بحق محمد النبى الأمى، إلا نصرتنا عليهم .

ولأنهم كثيرا ما انتصروا بدعائهم، كان الأوس والخزرج، منذ عاد كبرائهم من مكة يحملون دين الله، يبشرون قومهم، ويحضونهم ليدخلوا فى دين الله أفواجا، حذر أن يسارع اليهود إلى الإسلام، فتكون لهم الكثرة والفضل عليهم، ولكن اليهود لم يسعوا ولم يسارعوا إلى داعى الحق ؛ رغم كونهم كثيرا ما أعلنوا الأوس والخزرج منذرين ومخوفين، بقدوم النبى الخاتم، وأنهم سينضمون إليه، ويحاربوهم معه، فيقتلوهم، ويشردون بهم، فما زالوا ينظرون إلى الأوس والخزرج، رغم مرور مئات السنين على هجرتهم من اليمن إلى طيبة، على أنهم دخلاء علي بلدهم، وأن هودا هم وحدهم الأحق بطيبة وما حولها، رغم أنهم هم أيضا قد جاءوها مهاجرين، فلم تكن اليهود هى الأصول الأولى التى سكنت طيبة، وكانوا يقولون :

ـ سيبعث نبى هذا أوانه، نؤمن به ونقتلكم معه قتل عاد وارم ..

.. وظن الأوس والخزرج أن هود ينتظرون قدوم رسول الله إليهم، ليعلنوا إسلامهم، فلما وفد رسول الله ﷺ إلى طيبة، ظل اليهود على دينهم، ولم يتسابق بنو قريظة والنضير على رسول الله ﷺ، ليدخلوا فى الإسلام أفواجا، بل إذا بهم لما عرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام يرفضون، وقالوا :

ـ سمعنا وعصينا .

.. وفضحهم الله جل وعلا، ونزل جبريل عليه السلام بقول رب العالمين :

ـ "* الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ."

.. وإنه لقول الحق، فلقد كان اليهود يقولون دائما :

ـ والله إننا لأعرف برسول الله منا بأبنائنا، من أجل الصفة والنعت الذى نجده فى كتابنا، أما أبناؤنا فلا ندرى ما أحدث النساء .

.. ولكن ها هم أولاء يفعلون اليوم مع محمد ﷺ، ما فعله أجدادهم مع موسى عليه السلام، فجاهدوه وأجهدوه ليا بألسنتهم، رافضين الاستماع إلى صوت العقل، منكرين لما سبق لهم أن قالوه، فها هم أولاء يدعون أنهم ما قالوا بمقدم النبى الخاتم، وما استفتحوا باسمه على أعدائهم حتى ينصرهم الله، وما قرءوا فى التوراة، أو سمعوا الآباء ينقلون إليهم عن الأجداد أن اتبعوا النبى العربى الذى سيفد إليكم !!.

.. ولم يكفهم إنكارهم، وقالوا منكرين وطاعنين فى نبوة بعض أنبياء الله، فقال أحبارهم :

ـ ألا تعجبون من محمد يزعم أن سليمان بن داود كان نبيا،والله ما كان إلا ساحـرا.

فأنزل الله علا شأنه، وجل قوله من سورة البقرة :

ـ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢)

.. بل إنهم لما أعيتهم السبل، تجاوزوا كل حدود العقل، وأعلنوا طعنهم فى كل الرسالات، وقالوا :

ـ ما أنزل الله على بشر من شئ .

فأنزل الله نقضا لقولهم فى سورة الأنعام :

ـ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ(٩١)

ـ ٢ ـ

.. ولم يتوقف بهم الحال عند حد الرفض والعصيان، وإنكار نبوة من سبقوا، بل أظهروا إنكارهم لنبوة النبى الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ، وراحوا يخوضون قائلين قائلين لرسول الله :

ـ إن لكل نبى ملكا من الملائكة يأتيه من عند ربه بالرسالة والوحى، فمن صاحبك حتى نتبعك ؟.

فلما قال رسول الله ﷺ :

ـ جبريل .

طاعنه اليهود، قائلين :

ـ ذاك الذى ينزل بالحرب وبالقتال، هو عدونا، لو قلت إن صاحبك ميكائيل الذى ينزل بالقطر والرحمة لتابعناك .

ونزل على نبى الله ﷺ رد رب العالمين من سورة البقرة :

ـ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) .. وحين سمعوا بتوعد رب العالمين لهم بالعذاب، زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وما هم بمعذبين، وكذبهم الحق سبحانه وتعالى، وجاءهم السؤال مفحما :

ـ "* فلم يعذبكم بذنوبكم .."

.. لم يستسلموا، وراحوا يهاجمون دين الله، وقالوا ان " ورقة بن نوفل " هو من ألقى على محمد هذه الكلمات، ولقد كان " ورقة " من قبل يهوديا، ثم ترك اليهودية إلى النصرانية، ولكن الله سبحانه رد عليهم كذبهم، وتنزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ وأنبأه من سورة النحل:

ـ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ. (١٠٣)

وصدق رب العالمين، فلقد كان ما يتلو ورقة بلغة العجم، بينما تنزل القرآن بلغة عربية، تكريما للنبى العربى ﷺ، ولم يستح اليهود، بل راحوا يدعون بغير ما جاءهم به موسى من عند ربه، وهذا غير مستغرب، فقد سبق وأنكر بعضهم النبوة عن موسى عليه السلام، بعد أن خاف كهنتهم على سلطانهم، وخاف أغنياؤهم على ثرواتهم، وحرص هؤلاء وهؤلاء على الجاه الذى يجدونه فى الدنيا، ويمكنهم من أن يختصوا أنفسهم بالكبر والتكبر والتعالى على خلق الله .

فإذا ما اشتد عليهم الدليل، وأعوزهم المخرج فلم يجدوه، كانوا يمالئون رسول الله ﷺ، وهم يضمرون غير ما يبدون، فإذا لقوه، قالوا :

ـ راعنا .

وهى كلمة تحمل معنيين، معناها بالعربية : طيب يحمل التقدير والعرفان، ومعناها بلغة اليهود : يحمل السخرية والاستهزاء، وما أرادوا غير الأخير، طعنا فى نبى الله ﷺ، ونزل جبريل عليه السلام، محذرا وموضحا، بقول الله عز وعلا علوا كبيرا فى سورة النساء :

ـ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِه وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلا (٤٦)

.. ومن أجل هذا ما إن سمعها منهم " سعد بن معاذ " وكان يعرف لغة اليهود، حتى ذهب إلى كبرائهم غضبان، وقال لهم :

ـ عليكم لعنة الله، لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبى ﷺ لأضربن عنقه .

قالت اليهود :

ـ ألستم تقولونها .

وكان بعض المسلمين يقولونها لرسول الله ﷺ، لذا نهاهم الله عن ذلك فى سورة البقرة :

ـ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ(١٠٤)

.. ولم يعد المسلمون لقولها، أما هود فلم يرتدعوا، واستمروا على كراهيتهم لرسول الله ﷺ،وفى ليهم للكلام ليا.

.. مر ببيت رسول الله ﷺ جماعة من اليهود، فقالوا :

ـ السام عليكم .

فأجابهم رسول الله ﷺ :

ـ وعليكم مثل ما قلتم .

وغضبت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقالت لهم :

ـ عليكم، ولعنكم الله، وغضب الله عليكم .

قال لها رسول الله ﷺ :

ـ بالرفق، وإياك والعنف والفحش .

قالت أم المؤمنين رضي الله عنها :

ـ أولم تسمع ما قالوا ؟!.

قال رسول الله ﷺ :

ـ أولم تسمعى ما قلت، رددت عليهم ما قالوا، فيستجاب لى فيهم، ولا يستجاب لهم فى .

وحين أعيتهم الأقوال والادعاءات، قالوا :

ـ إن محمدا يتجه فى صلاته إلى المسجد الأقصى تابعا لقبلتنا، وانه بهذا قد تنازل لنا عن نصف دينه .

ولما بلغ قولهم رسول الله ﷺ شق عليه، ورفع وجهه إلى السماء وراح يقلب بصره ضارعا إلى الله أن يرد كيد اليهود.

ورغم هذا جميعه، أعلن رسول الله ﷺ كتاب العهد بينه وبينهم، فلقد أراد أن يوحد جهوده لتربية الأجيال الجديدة من المسلمين، ولإنشاء مجتمع المدينة على أسس إسلامية، توضح العلاقة بين المسلمين، وغيرهم من أصحاب النحل الأخرى .

وكتب رسول الله ﷺ معاهدة بذلك، جاء فيها :

- " بسم الله الرحمن الرحيم

" هذا كتاب من محمد النبى بين : المسلمين من قريش وطيبة، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم : أنهم أمة واحدة من دون الناس .

المهاجرون من قريش على ربعتهم، يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو الحارث على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو جشم على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو النجار على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى،وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

وإن المؤمنين لا يتركون ذا غرم مفظع بينهم، بل يجب أن يعطوه بالمعروف فداء أو عقلا .

وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو سعى بينهم بظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم .

ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر، ولا ينصر كافر على مؤمن .

وإن ذمة الله واحدة، يجير عاليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

وإن من تبعنا من يهود، فله النصر والأسوة،غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .

وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم.

وإن كل غازية غزيت بها معنا يعقب بعضها بعضا .

وإن المؤمنين يكف بعضهم عن بعض، ويعاون بعضهم بعضا فى سبيل الله .

وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه . وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا فإنه يقتل إلا أن يرضى ولى المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر مجرما أو يحميه أو يؤويه، وإن نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

وإنكم مهما اختلفتم فيه من شئ، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ .

وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف .

ومثل ذلك بقية اليهود، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يهلك إلا نفسه .

وإن البر دون الإثم، وإن موالى ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم .

وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته .

وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب من أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون إثم، وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ، وان الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره .

وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم طيبة، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصلحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .وإن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحصن، من أهل هذه الصحيفة ."

ـ ٤ ـ

أعلن اليهود رضاهم عن المعاهدة وأقروا بها، وهو إقرار المغلوب على أمره، وإن أضمروا غير ما أبطنوا، وأصبحوا كالسوس الذى ينخر باطن الخشب دون ظاهره، ليهلكه ويدمره، فجعلوا كل همهم أن يلغوا الأثرة التى أبداها الأنصار للمهاجرين، فكانوا يتقربون إلي الأنصار، يظهرون لهم النصح، ويضمرون الشر قائلين :

ـ لا تنفقوا أموالكم على من أسلم، فإنا نخشى عليكم الفقر فى ذهاب دين محمد، ولا تسرعوا فى الثقة، فإنكم لا تدرون علام يكون محمد ؟.

فأظهر الله قولهم، ونزل جبريل بقول عالم الغيب، فى سورة النساء :

ـ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧)

.. كف اليهود عن وسوستهم للأنصار، بعد أن كشف الله سترهم، وانقلبوا يحاولون الوقيعة بينهم، فلقد هالهم ذلك التآلف الذى ساد بين الأوس والخزرج، فأصبحوا بفضل من الله إخوانا متحابين، ولقد حاولوا الوقيعة بينهم أكثر من مرة، ولكن الله أطفأ نار الفتن التى أرادوا إشعالها، لكنهم لا ييأسون، ويكررون المحاولة عقب المحاولة، وذات يوم جلس شاس بن قيس ـ وهو من زعماء اليهود ـ وراح يدير الحديث بين جماعة من الأنصار، ليلتف به كالأفعى ويصل إلى ما كان فى القديم بين القبيلتين من قتال، حتى تذاكر القوم ما قاله شعراؤهم، ونزغ الشيطان اللعين بينهم، فاشتد القول، وتنابذوا، واستيقظت الفتنة، فتنادوا إلى السلاح، وقالوا :

ـ تعالوا نرد الحرب جذعا كما كانت .

ونادى رجل من الأوس :

ـ يا لأوساه .

ونادى رجل من الخزرج :

ـ يا للخزرج .

وتحول كل فريق من القبيلتين إلى الانحياز لقبيلته، وتواجهت جموع القبيلتين مستنفرين للقتال، ووصل الخبر إلى رسول الله ﷺ وكان فى مجلسه بالمسجد، فأسرع إليهم ومعه نفر من المهاجرين، ووقفوا يفصلون بين الفريقين، ليحولوا بينهم وبين التضارب، وقال الحبيب ﷺ مذكرا، قائلا فى أسف :

ـ يا معشر المسلمين، الله، الله، أدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله إلى الإسلام، وألفكم به، وقطع عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر، وألف بينكم بالإسلام ؟! .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) سورة آل عمران

وماتت نعرة الجاهلية فى قلوب الأنصار، وطفرت الدموع أسفا على ما فرطوا فى حق الله، وهرب الشيطان من بينهم وهو يرى انبعاث نور الله فى القلوب، وانتبه القوم إلى أنهم قد سقطوا فى الفتنة، فتمكن منهم الشيطان ونزغ بينهم، فألقوا سيوفهم وحرابهم، وأزاح الله ما بهم من طائف الشيطان، وتعانقوا فى صفاء الاخوة، وأكلت نار الفشل أكباد اليهود .

وراح إبليس يتلظى من الغيظ ..

ـ ٥ ـ

.. رغم كل ما أضمر اليهود، وأعلنوا، وكادوا، لم ينكث رسول الله ﷺ فيما واثقهم عليه، بل كان يصبر، ويجادلهم بالتى هى أحسن، فهكذا علمه ربه، وهم لا يستحون من الله سبحانه وتعالى، ولا من رسوله ﷺ، فحين سمعوا بقول الله عز من قائل :

ـ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُوراً (١٠١) سورة الإسراء

.. جاء رسول الله ﷺ رهط منهم، يسألونه عن ماهية هذه الآيات التسع، وكأنهم سوف يعجزونه، ويوقعوا به فى شراك الجهل، ولكنه ﷺ قال لهم :

ـ لا تشركوا بالله شيئا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا، ولا تسحروا، ولا تمشوا ببرئ إلى سلطان، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، وعليكم يا يهود خاصة : ألا تعتدوا فى السبت .

فقبلوا يديه ورجليه قائلين :

ـ نشهد أنك نبى .

قال رسول الله ﷺ :

ـ ما يمنعكم أن تسلموا ؟.

قالوا :

ـ نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا يهود، فنحن ضعفاء بينهم .

ولم يكن يهود المدينة هم المجادلين وحدهم، بل لقد استقدموا حبرين من عتاة العلم من أحبار الشام، فلما دخلا على النبى ﷺ ،عرفا فيه مما كان مذكورا عندهم فى الكتاب، فقالا له :

ـ أنت محمد ؟.

قال رسول الله ﷺ :

ـ نعم .

قال الحبران :

ـ وأنت أحمد .

قال رسول الله ﷺ :

ـ نعم .

قالا :

ـ نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها، آمنا بك وصدقناك .

قال رسول الله ﷺ :
ـ سلا ما تريدان .
قالا :
ـ اخبرنا عن الأعظم شهادة فى كتاب الله .
قال رسول الله ﷺ :
ـ قال الله عز وعلا "* شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ."
.. فشهد الحبران، وأسلما، وحسن إسلامهما .
.. ساء يهود المدينة ما حدث فشحذوا الهمم، واستنجدوا بشياطينهم، ثم جاءوا رسول الله ﷺ يواصلون المطاعنة، قائلين :
ـ يا محمد هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله ؟.
غضب النبى ﷺ أشد الغضب لربه، حتى امتقع لونه، وجاءه جبريل ، فقال له:
ـ خفف عليك يا محمد، يقول ربك تبارك وتعالى : لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٨٦) سورة آل عمران
وصدع نبى الله للأمر، وهدأ من انفعاله، وتنزل من عند الله عز وعلا علوا كبيرا، ردا على ما قيل :
ـ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ(١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) سورة الإخلاص
ـ صف لنا يا محمد ربك : كيف خلقه، كيف ذراعه، كيف عضده ؟.
فاشتعل غضب رسول الله ﷺ لربه ثانية، فأتاه جبريل فهون عليه، ونزل قول الله سبحانه وتعالى :
ـ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) سورة الزمر
وبعد أن سمعها هود، قاموا يتكفأون على وجوههم، وقد أخزاهم الله .
ولكن هل للمطموس على قلبه أن يدرك ؟..

جاءت رسول الله ﷺ جماعة من اليهود، فقالوا :
ـ يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنها، لا يعلمها إلا نبى .
قال رسول الله ﷺ سلونى عما شئتم، ولكن اجعلوا لى ذمة الله عز وجل، وما أخذ يعقوب على نبيه، لئن حدثتكم لتتبعننى .
قال اليهود :
ـ فذلك لك .
ثم استطردوا قائلين :
ـ أربع خلال نسألك عنها : أى طعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟.. وأخبرنا كيف يشبه الولد أمه، وإنما النطفة من الرجل ؟.. وأخبرنا كيف هذا النبى الأمى فى النوم، ومن يليه من الملائكة ؟.. وأخبرنا ما هذا الرعد ؟.
قال رسول الله ﷺ :
ـ أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى اسرائيل، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضا طال سقمه، فنذر لئن عافاه الله عز وجل، ليحرمن أحب الطعام والشراب، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها .
قالت اليهود :
ـ اللهم نعم، اللهم اشهد .

قال رسول الله ﷺ :
ـ أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن
ماء المرأة أصفر رقيق،فأيهما علا كان الولد والشبه بإذن الله عز وجل،إن علا ماء
الرجل كان الشبه للرجل بإذن الله تعالى، وإن علا ماء المرأة كان الشبه للمرأة بإذن الله تعالى .
قالت اليهود :
ـ اللهم نعم، اللهم اشهد .
قال رسول الله ﷺ :
ـ فأنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن النبى الأمى تنام عينه ولا ينام قلبه .
قالت اليهود :
ـ اللهم نعم، اللهم اشهد .
ثم استطردوا قائلين :
ـ أنت الآن حدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجامعك أو نفارقك .
قال رسول الله ﷺ :
ـ وليى جبريل، ولم يبعث الله عز وجل نبيا قط إلا وهو وليه .
قالت اليهود :
ـ فعندها نفارقك،لو كان وليك سواه من الملائكة لاتبعناك وصدقناك .
قال رسول الله ﷺ :
ـ فما يمنعكم أن تصدقونى ؟.
قالت يهود :
ـ هذا عدونا من الملائكة .
وقال الله تعالى فيهم :
ـ "* أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ."
وانصرف هود غير مصدقين، فما كانوا مؤمنين، وما كانوا يبحثون عن الحق والحقيقة، ولكنه الأمل فى هزيمة رسول الله ﷺ يداعب أحلامهم، لهذا لم يكفوا جماعات وأفرادا عن السعى بطعنهم إلى الصابر ﷺ

ـ ٦ ـ

جاء رسول الله ﷺ، حبر من يهود فقال :
ـ أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض ؟.
قال رسول الله ﷺ :
ـ فى ظلمة دون الجسر .
قال الحبر :
ـ فمن أول الناس إجازة ؟.
قال رسول الله ﷺ :
ـ فقراء المهاجرين .
استطرد الحبر :
ـ فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟.
قال رسول الله ﷺ :
ـ زيادة كبد نون .
قال الحبر غير قانط :
ـ فما غذاؤهم على أثره ؟.
قال رسول الله ﷺ :

ـ ينحر لهم ثور الجنة الذى يأكل من أطرافها .
واصل الحبر أسئلته مغتاظا :
ـ فما شرابهم عليه ؟.
قال رسول الله ﷺ :
ـ من عين فيها تسمى سلسبيلا .
زفر الحبر وقد أفحم، فاسود وجهه من شدة الغيظ، وقال :
ـ صدقت .
.. جاء رسول الله ﷺ ، ثعلبة بن الحارث وهو من يهود، ليواصل اللجاجة، فكأنه يواصل مقالة الحبر، قال :
ـ يا أبا القاسم أتزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ .
.. وهمس بما يضمر فى نفسه قائلا، قبل أن يسمع قولة الحق : " إن أقر بها خصمته ".
قال رسول الله ﷺ :
ـ نعم، وتجدها فى كتابكم .
قال ثعلبة :
ـ نعم .
قال رسول الله ﷺ :
ـ والذى نفسى بيده إن أحدكم ليعطى قوة مائة رجل إلى المطعم والمشرب والجماع.
قال ثعلبة :
ـ الذى يأكل ويشرب يكون له حاجة !.
قال رسول الله ﷺ :
ـ حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثل ريح المسك، فتضمر بطونهم .
جاءه يهودى، فقال :
ـ يا محمد أخبرنى عن النجوم التى رآها يوسف ساجدة له، ما أسماؤها ؟.
فلم يجبه رسول الله ﷺ بشىء، وانصرف اليهودى يزوم منتصرا ؛ فجاءه جبريل عليه السلام بأسمائها، فأرسل نبى الله ﷺ إلى اليهودى، يسأله :
ـ أتسلم إن أخبرتك بجواب سؤلك ؟.
قال اليهودى فى تردد :
ـ نعم، أسلم .
قال نبى الله ﷺ :
ـ هى : حرثان، وطارق، والذيال، وذو الكنفات، وذو الفرغ، ووثاب، وعمودان، وقابس، والضروج، والمصبح، والفيلق، والضياء، والنور، رآها يوسف فى أفق السماء ساجدة له .
قال اليهودى :
ـ هذه والله أسماؤها .
وهرول منصرفا، ولم يسلم !! .
.. حين سمع اليهود من رسول الله ﷺ قول الله تعالى :
ـ "* من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ."
قال فنحاص أحد زعماء يهود، وهم فى المدراس :
ـ والله ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وآنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغنى، ولو كان عنا غنيا ما استقرض منا أموالنا

كما يزعم محمد، ينهاكم عن الربا ويعطيه لنا، ولو كان عنا غنى ما أعطانا الربا .

وسمع أبو بكر بما قال فنحاص فضربه على وجهه ضربا شديدا، وقال له :

ـ والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينك لضربت عنقك يا عدو الله .

وسمع رسول الله ﷺ بما حدث، فبعث إلى فنحاص يستدعيه، وواجهه بما حدث، وحاول فنحاص أن ينكر ما قاله لأبى بكر، فنزل قول الله سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران مؤيدا للصديق فيما قال، مكذبا المنافق فنحاص :

ـ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١)

ـ ٧ ـ

اجتمعت أحبار اليهود فى بيت الدراس، وقد زنى رجل محصن بامرأة محصنة، فقالوا لبعض منهم :

ـ خذوهما إلى محمد فإنه قد أمر بالتخفيف، فإن أفتانا بفتيا دون الرجم أخذنا بها واحتججنا بها عند الله، وقلنا فتيا نبى من أنبيائك، وإن كنا نعلم أنه ليس بنبى، ولكنه ملك قومه .

فأتوا رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد، فقالوا :

ـ يا أبا القاسم، هذا رجل زنى بعد إحصانه، بامرأة قد أحصنت، فاحكم، فقد وليناك الحكم فيهما .

فقال رسول الله ﷺ :

ـ ما تجدون فى التوراة ؟.

فقالت اليهود :

ـ نفضحهما ويجلدان .

فأفتاهم نبى الله ﷺ بالرجم، فأنكروه، فلم يكلمهم، ونهض وصحبه إلى مدارسهم فوقف بالباب، وقال :

ـ يا معشر يهود أخرجوا إلى علماءكم .

فخرج علماؤهم إلى رسول الله ﷺ، فقال :

ـ أنشدكم الله الذى أنزل التوراة على موسى، ما تجدون فى التوراة على من زنى بعد إحصان ؟.

قالوا :

ـ يحمم ويجبب .

قال عبد الله بن سلام :

ـ كذبتم فإن فيها آية الرجم، فأتوا بالتوراة .

فجاءوا بالتوراة فنشروها، ووضع حبر كفه فوق آية الرجم وقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام :

ـ ارفع يدك .

فرفع الحبر كفه، فإذا آية الرجم ظاهرة .

قال عبد الله بن سلام :

ـ الله أكبر وصدق رسول الله ﷺ، والله يا رسول الله، إننا قد حدنا عن حدود الله لما فشىـ الزنا بين أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، وجلدناه، ثم اجمعنا على أن نأخذ بحد ينفذ على الغنى والفقير، فأجمعنا على التحميم والجلد، أما والله يا رسول الله إنهم ليعرفون أنك نبى مرسل، ولكنهم يحسدونك .

فقال رسول الله ﷺ :

ـ اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه قديما بالشهوة .

.. حين ضاقت باليهود سبل الانتصار بالمجادلة ولى الكلام، لم يملكوا إلا أن قالوا :

ـ نحن أبناء الله وأحباؤه، ولن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى .

وأنزل الله عز وجل، على نبيه ﷺ من سورة البقرة :

ـ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤)

وذهب إليهم رسول الله ﷺ، وقال لهم :

ـ إن كنتم صادقين فى مقالتكم، قولوا : اللهم أمتنا، فوالذى نفسى بيده لا يقولها رجل منكم إلا غص بريقه فمات مكانه .

وأصيب يهود بهلع شديد، وزاغت منهم الأبصار، وعاتبوا رسول الله فيما قال، ولم يتمنوا الموت .

.. ونزل قول الحق سبحانه وتعالى :

ـ "*ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ."

ـ ٩ ـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِي(٨)يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمْ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمْ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) سورة البقرة

.. صنف جديد على الحياة، لم يكن موجودا فى مكة، لأن المسلمين فى مكة لم يكونوا قوة ترهب الذين لا دين لهم، ولكن الوضع فى المدينة قد اختلف تماما عنه فى مكة، فالمسلمون هنا قوة وكثرة ووحدة، ولذلك دخل الإسلام تظاهرا ورياء من دخل، وهم لم يؤمنوا،فكانوا أشد خطرا على الإسلام والمسلمين من الكفار، ومن أهل الكتاب من يهود ونصارى، لأنهم كانوا يظهرون غير ما يبطنون .

كان " نبتل بن الحارث " من الذين دخلوا الإسلام نفاقا، وكان يجلس إلى رسول الله ﷺ ثم ينقل كلامه إلى اليهود، وكان يقول :

ـ إنما محمد أذن، من حدثه شيئا صدقه .

فأنزل الله عز وعلا، قوله بسورة التوبة:

ـ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١)

ولقد جاء جبريل رسول الله ﷺ، فقال له :

ـ إنه يجلس إليك رجل أذلم، ثائر الشعر، أسفح الخدين، أحمر العينين، كأنهما قدران من صفر، كبده أغلظ من كبد الحمار، ينقل حديثك إلى المنافقين، فأحذره .

.. وقد كانت هذه هى صفات " نبتل بن الحارث "، فطرده المسلمون من مسجد رسول الله ﷺ شر طردة .

جاء إلى المدينة وفد من نصارى نجران، فى ستين رجلا فيهم أربعة عشر من أشرافهم، ومن بين الأربعة عشر هؤلاء فوضوا ثلاثة يتولون أمرهم هم : العاقب أمير القوم وصاحب مشورتهم، ولا يصدر عنهم أمر إلا عن رأيه، وأسمه : عبد المسيح ؛ والسيد وهو منظم وقتهم، وإقامتهم وترحالهم، واسمه الأيهم ؛ وأسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم وهو أبو حارثة بن علقمة، وكان من أعلم قومه بأمور دينهم، حتى لقد بنى له الحكام الكنائس وجعلوا أموالهم طوع بنانه، تقربا إليه وتوددا، وطلبا لبركته .

.. توجه الوفد إلى مسجد رسول الله ﷺ، وانضم إليهم بعض نفر من أحبار يهود، لمجادلة رسول الله ﷺ فى أمر دينهم، ولقد حل مع وصول النصارى ميقات صلاتهم، فقاموا إلى ركن من المسجد فصلوا إلى المشرق، فلما أراد بعض الصحابة التعرض لهم، قال لهم رسول الله ﷺ :

- دعوهم .

ولما انتهوا، أقبلوا على رسول الله ﷺ، وتحدث العاقب والسيد والحبر، وتحاج الحضور، واختلف اليهود والنصارى حين قال اليهود إن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا، وقالت النصارى إنما كان إبراهيم عليه السلام نصرانيا، وقال نبى الله ﷺ بما تنزل من عند الله تعالى من سورة آل عمران :

- يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) .

فتطاول واحد من أحبار يهود، قائلا لرسول الله ﷺ :

- أتريد أن نؤمن لك، ونعبدك كما تعبد النصارى عيسى ؟.

قال رسول الله ﷺ :

- معاذ الله أن أعبد غير الله، أو آمر بعبادة غيره، فما بذلك بعثنى الله، ولا أمرنى، يقول ربى سبحانه وتعالى : "مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) سورة آل عمران .

.. وتحدث النصارى فعرضوا ما يؤمنون به فى شعبهم، فقالوا : انهم فى مجموعهم يؤمنون بأن المسيح هو الله، وسبب ذلك عند بعضهم، أنه كان يحيى الموتى، ويبرئ الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائرا ؛ ويحتج البعض الآخر منهم بأن المسيح هو ابن الله، فلم يكن له أب يعلم، وقد تكلم فى المهد، وهذا جميعه لم يصنع لولد آدم من قبل ؛ وهؤلاء وهؤلاء يجمعون بأن السيد المسيح ثالث ثلاثة، ودليلهم أن الله يقول فى الإنجيل حين يتحدث عن ذاته : فعلنا، وقضينا، وأمرنا، وخلقنا، ولو كان وحده لقال : فعلت، وقضيت، وأمرت، وخلقت ولكنه هو وعيسى ومريم .

.. فصمت عنهم نبى الله ﷺ، فأنزل الله فيما قالوا سورة آل عمران، فقرأ عليهم :

- إِذْ قَالَتْ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلا وَمِنْ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي (٥٠)

فلما سمعت النصارى ما تنزل من عند الله، اقشعرت جلودهم، وتغشتهم تجليات الحقيقة، فما عادوا يدرون من أمر أنفسهم شيئا، فران عليهم صمت عميق، ولم يلفظوا بكلمة ؛ وحين وجه إليهم رسول الله ﷺ الدعوة، بأن يدخلوا فى دين الله، ارتج عليهم، وقالوا ملاينين :

ـ يا أبا القاسم، دعنا ننظر فى أمرنا، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه.

وانصرفوا ..

ولما خلوا إلى بعضهم، سألوا العاقب :

ـ يا عبد المسيح، ماذا ترى ؟.

قال عبد المسيح :

ـ والله يا معشر النصارى،لقد عرفتم أن محمدا نبى مرسل، ولقد جاءكم بالفصل فى صاحبكم، ولقد علمتم ما لاعن قوم نبيا قط فبقى كبيرهم، ولا نبت سترهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلا إلف دينكم، والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم، فوادعوا الرجل، ثم انصرفوا إلى بلادكم .

.. فلما ثار بينهم النقاش، انتهوا إلى رأى الغلبة منهم، وأقبلوا على رسول الله ﷺ، وقالوا فى مودة :

ـ يا أبا القاسم، قد رأينا ألا نلاعنك، وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا،

ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها فى أموالنا، فلكم عندنا رضا .

.. فلما سمعت يهود بمسالمتهم، ثاروا عليهم ثورة هائلة، وقالوا لهم :

ـ ما أنتم على شئ .

وردت النصارى على اليهود، قائلين :

ـ بل ما أنتم على شئ .

واشتد بينهم الخلاف واحتدم فى شدة حتى تسابوا، ثم انصرفوا مغاضبين .

.. وتنزل قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة البقرة :

ـ وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ(١١٣)

.. وحين تجهز وفد النصارى للعودة إلى ديارهم، تخير رسول الله ﷺ أبوعبيدة بن

الجراح ليرافقهم، فيكون حكما فيما قد ينشب بينهم من خلاف، ومنذ ذلك اليوم أطلق على أبو عبيدة رضي الله عنه : حبر الأمة .

الفصل الرابع عشر :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ **سورة الحج**

الجهاد

- ١ -

دخلت الهجرة عامها الثانى، واستقرت الحياة فى المدينة، وثبتت العقيدة الإيمانية فى نفوس المسلمين من الأنصار، بعدما نزع الله ما فى قلوبهم من غل، وألف بين قلوبهم، فأصبح الأوس والخزرج : اخوة متحابين، رحماء فيما بينهم، فهم عون لبعضهم البعض فى الضراء قبل السراء، يقول الله تعالى لرسوله ﷺ :

وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) سورة أنفال

.. وكان هذا هو حال الأنصار مع المهاجرين أيضا، وهو ما جعل المدينة أمنا وأمانا وبركة، من فضل الله ورحمته .

.. ورغم ذلك، لم يتوقف اليهود عن لغوهم، ومحاولة الوقيعة بينهم، والقول والمجادلة بالباطل فى دين الله، حسدا وكراهية، ولما ييئسوا من فتنة المسلمين، أو الوقيعة بينهم ؛ بعثوا رسلهم فى كل ناحية، لاستعداء قريش وغيرها من القبائل المحيطة بالمدينة، وتنزل تحذير رب العالمين لنبيه ﷺ بآيات من سورة البقرة :

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩)

.. أثار هذا السلوك العدائى من اليهود، غضب كثير من المسلمين،وتحدثوا بذلك إلى رسول الله ﷺ، وتنزل قول الله تعالى، من سورة آل عمران :

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ (١٨٦)

ونبأهم نبى الله بما نبئ به، والتزم المسلمون بالصبر ..

.. ولم يكن هذا هو مطلب الصبر الوحيد، فالمهاجرون قد اختصوا بالتزام ثان، وهو أن يعفوا ويصفحوا عن الذين انتهلوا أموالهم ودورهم بمكة ظلما واجتراء، فلقد كانوا يتذاكرون ذلك، ويتحدثون به داخل نفوسهم، ويتكلمون به فيما بينهم، ولما فاض بهم الحزن، أفاضوا بالحديث إلى الحبيب محمد ﷺ، فجاءت المطالبة الثانية بالصبر، فى سورة آل عمران :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)

.. ثم بشرهم نبى الله ﷺ، بما تنزل عليه من الله تعالى بسورة الإنسان، من جزاء أعد للصابرين منهم، قال :

ـ إن الله تعالى، يعدكم بما هو أفضل مما أخذ منكم، فى جنات النعيم : وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢)

.. أسعدهم رد رسول الله ﷺ، وهون من شعورهم بالظلم والعجز، وأفرغ على قلوبهم صبرا وسلاما ؛ ولكن إلى حين، فلقد عاودتهم أحاديث المرارة ثانية، ونزل جبريل ﷺ، بآيات من سورة الحج، تعطهم الحق فى قتال من ظلموهم :

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١)

.. وبدأ رسول الله ﷺ يعد المسلمين للجهاد فى سبيل الله، وفى مجلسه أفاض الحديث، فيما تنزل عليه من رب العالمين، من حث على القتال فى سبيل الله، ثم جاء الأمر بالتحريض على القتال، وبالتحول من القول إلى العمل، فى آيات من سورة الأنفال :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (٦٥)

.. ونزلت الآيات تترى حول فضل المقاتلين فى سبيل الله، وفضل المقاتل على من سواه، فى سورة النساء :

لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥)

.. ولما سمع عبد الله بن مكتوم، وكان أعمى، ما تنزل من رب العالمين، انتابه هم عظيم، فعتمت حياته، فامتنع ليومين عن الطعام، وعن الكلام، ثم حزم أمره ووقف بين يدى رسول الله ﷺ يرتعد، وقد شحب لونه من خشية الله، وقال :

ـ يا رسول الله، فكيف من لا يستطيع الجهاد ؟؟.

وغشيت رسول الله ﷺ السكينة، ثم سرى عنه، فأعاد ترتيل الآية، بما تنزل عليه تبيانا من الله سبحانه :

لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥)

.. فما أرحمك يا إلهى بعبادك .

.. استمعت إلى عبدك فأفضت .

.. ولم ترض له ألما ولا خوفا .

.. وأبنت عن هذه الرحمة فى قولك تعاليت، حاسما لأى شك، مانعا لأى ظن، فى سورة الفتح :

لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)

.. كما بينت يا ربنا للمؤمنين عظمة قدر الشهداء، وما أعددته لهم من جنات النعيم، ونزل طيبة، وحياة لا تنقطع، فى سورة آل عمران :

وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)
.. وهكذا أصبحت أعظم أمنيات المسلم، أن يكون له شرف الجهاد فى سبيل الله، وسعادة الاستشهاد والفوز بالجنة .

- ٢ -

.. وحتى لا يثير رسول الله ﷺ مخاوف اليهود، أو يروعهم، تخير متسعا من الأرض البور خارج المدينة، وبدأ المسلمون يتدربون فيه على فنون القتال .

.. وتغير إيلاف الناس، واعتادوا مجافاة نوم القيلولة، بخروجهم وقت الظهيرة فى مهام يكلفون بها، فبعث رسول الله ﷺ بالسرايا فى مهام استطلاعية، وقد تولى رسول الله ﷺ قيادة أول سرية خرجت من المدينة واتجهت إلى الأبواء، حيث دفن بيديه الشريفتين، وهو صبى، أمه آمنة بنت وهب، فوادعه بنو ضمرة أصحاب المكان، وأعطوه عهدا بالا ينصروا عليه أحدا، وألا تكون أرضهم موقعا لعدو، أو مكانا تستطلع منه قوة المسلمين بالمدينة من قبل أعدائهم، وعادت السرية دون قتال، وإن كان المسلمين قد كسبوا حليفا جديدا .

.. ويتوالى إرسال السرايا للاستطلاع، والتدريب، ومتابعة تحركات قوافل قريش، التى تروح وتأتى بين مكة والشام عابرة حدود المدينة، ولتأمين هذه المداخل من أية محاولة للغزو .

.. ولقد خرجت هذه السرايا بقيادات مختلفة لاكتشاف قدرات القادة، ومنها ما عقد لعبيدة بن الحارث بن عبد مناف، فلقد خرج مؤمرا على كتيبة قوامها ثمانون من المهاجرين، فالتقوا بجمع عظيم من قريش قدم مستطلعا قوة المسلمين بالمدينة بأسفل ثنية المرة، وقد كثر الله عدد المسلمين فى نظر المشركين فأصابهم الرعب، وارتدوا مدبرين، ولم يقاتلوا المسلمين رغم تفوق المشركين عددا وعدة، حتى أنه كان يواجه المسلم الواحد عشرة من المشركين .

.. وعاد المسلمون إلى المدينة، وقد لجأ إليهم بضعة نفر من المسلمين ممن كانوا مع المشركين، وكانوا قد احصروا بمكة، وهم يكتمون إسلامهم، ولم يستطيعوا الهجرة : مهللين مكبرين، يحمدون الله على ما أعزهم به

.. بينما عاد المشركون إلى مكة، يقصون على أهلهم ما أراهم الله من القوة التى أصبح عليها من هاجروا .

.. وفى شهر شعبان من ذات السنة، اكرم الله نبيه محمدا ﷺ، واستجاب لكثرة دعائه، لتكون قبلته كقبلة الخليل إبراهيم عليه السلام، وأن تتحول الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة، فتنزل قوله تعالى من سورة البقرة :

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)

.. وتحول المسلمون، وجعلوا قبلتهم إلى مكة المكرمة، وتحدث اليهود بكل ما يسئ، وكثر لغطهم، ورد عليهم علام الغيوب، ووصفهم بالسفهاء فى قوله تعالى بسورة البقرة :

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢)

.. ثم عقد رسول الله ﷺ لحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، لواء سرية من ثلاثين رجلا من المهاجرين، مضت إلى العيص حيث طريق الساحل الذى تسلكه قوافل قريش إلى الشام، فلاقى أبا جهل بن هشام فى ثلاثمائة من المشركين، وألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فنكصوا عن قتال المسلمين، وفروا فرارا، وازدادت خشية قريش، وعظم خوفها من قوة رسول الله ﷺ وصحبه .

كما خـرج رسول الله ﷺ فى سريتين، الأولى إلى "بواط"، واستخلف عند خروجه السائب بن مظعون، تدريبا وتعليما لصحابته على الولاية ؛ وكانت سـريته الثانية إلى العشيرة، وهناك وادع بنى ضمرة للمرة الثانية، وكتب رسول الله ﷺ كتابـا، قال فيه :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتـاب من محمـد رسول الله لبنى ضمرة، بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر على من رامهم، وأن النبى ﷺ إذا دعاهم لنصر أجابوه، عليهم بذلك عهـد اللـه وعهد رسوله .

وإذا كانت كل تلك السرايا لم يتحقق فيها قتال بـين المسـلمين وأعـدائهم مـن المشركين، فلقـد علمـتهم السمع والطاعة، وحطمت فيهم إيلافهم .

.. وفى تلك الأيام من شهر شعبان، فرض الصيام على المسلمين، بعد أن كان تطوعا، ليزيدهم تدريبا عـلى مقاتلة النفس، والصبر على المكاره، فنزل قول الله تعالى، فى سورة البقرة :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ(١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)

.. ومع ثبوت رؤية هلال رمضان ولليلتين خلتا منه، بلغ رسول الله ﷺ خبر قافلة ضـخمة بقيـادة أبى سفيان، كانت عائدة بتجارة لقريش من الشـام فى ألـف بعـير، فبعـث ﷺ بطلحـة بـن عبـد اللـه التيمـى وسعيد بن نفيل، ليتحسسا أخبارها .

ـ ٣ ـ

اليـوم : السبت الثانى عشر .

الشهر : رمضـان .

السنة : الثانية من الهجرة .

.. هذا مشرق بـدر الكبرى، يوم الفرقان، ورغم مرور ما يقرب من عشرة أيـام، لم يعـد الرسـولان اللـذان خرجا لاستطلاع قافلة أبى سفيان، وعزم رسول الله ﷺ على ألا ينتظر عودتهما، فجمع أصحابه، وقال لهم:

ـ هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها.

.. وظن المسلمون أن رسول الله ﷺ لا يقصـد قتـالا، وإنمـا يحفـز المهـاجرين ليسـتردوا أمـوالهم التـى انتهبتها قريش، فاستجاب البعض للنداء، وتثاقل البعض الآخر من الذين هان عليهم ما خلفوا وراءهـم فى قريش، مفضلين ما وعدهم به الله من جزاء أوفى، وإن خرج مع رسول الله ﷺ الأنصـار لأول مـرة، فلقـد كانت السرايا الأولى جميعها من المهاجرين، فكان تعـداد مـن خرجـوا ثلاثمائـة وأربعـة عشرـ مقـاتلا، ولم يخرج معهم عثمان بن عفان، لاشتداد المرض على زوجه رقيـة بنـت محمـد بـن عبـد اللـه ﷺ، ولم يكـن لرقية خادمة ترعاها .

.. واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا لبابة الأنصارى أميرا لها، واستخلف عبد اللـه بـن أم مكتـوم على الصلاة بالمسلمين، ثم سـار بجند الله، وليس معهم إلا ثـلاثة أفراس، وسـبعون بعـيرا، فكـان يتعاقـب كل ثـلاثة منهم على ركـوب البعير الواحد، وكذلك كان يفعل رسول الله ﷺ : وعلى بن أبى طالـب، ومرثـد بن أبى مرثد، فقالا للحبيب ﷺ :

ـ نحن نمشى عنك يا رسول الله، وتظل أنت راكبا .

فقال لهما رسول الله ﷺ :

ـ ما أنتما بأقوى منى على المشى، ولا أنا بأغنى عنكما عن الأجر .
وتواصل مسير جيش المسلمين، حتى نـزل فى بيـوت السـقيا خـارج المدينـة، فعسـكر بهـا، وعنـدما أذن لصـلاة المغرب، أمر نبى الله ﷺ المسلمين بالشرب من مائها وشرب معهم، ثم توضأ واستقبل القبلة وكـبر وتوجه إلى السماء، وقال :
ـ اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك، دعاك لأهل مكة بالبركـة، وأنا محمد عبدك ورسـولك أدعـوك لأهـل المدينة أن تبارك لهم فى مدهم وصاعهم، مثلما باركت لأهل مكة مع البركة بركتين .
.. وبعد أن انتهى رسول الله ﷺ من صلاته، ثم إفطاره، لبس درعه، وتقلد سيفه، واسـتعرض المقـاتلين، ودعا لهم قائلا :
ـ اللهم انهم حفـاة فاحملهم، عـراة فاكسهم، جيـاع فأشبعهم، عالة فأغنهم من فضلك .
.. ولما رأى رسول الله ﷺ بين الجند بعض الضعفاء والغلمان، أمر بردهم إلى المدينة، ولكـن "عمـير بـن أبى وقاص " بكى ـ وكان ابن ستة عشر عاما ـ فرق له قلب الحبيب ﷺ فأجازه .
كما رأى بين الجند "حبيب بن أساف"، فرفض مشاركته فى الحرب، لأنه كان على غير دين الإسلام، وقـال :
ـ لا يصحبنا إلا من كان على ديننا .
فأعلن "حبيب " إسلامه، وضمه رسول الله ﷺ إلى الجند، وسلم اللواء إلى مصعب ابن عمير بن هاشـم، وكان لون اللواء أبيض، وكانت فى المقدمة رايتان لونهما أسود وهما أصغر قليلا مـن اللـواء، إحـداهما مـع على بن أبى طالب ﷺ، والثانية مع سعد بن معاذ ﷺ، وعين على المشاة، وهم مؤخرة الجيش، قيس بـن أبى صعصعة .
.. وصل جيش المسلمين إلى بئر الروحـاء يـوم الاثنـين، ورد رسـول اللـه اثنـين مـن المـرضى إلى المدينـة، وصحبهم الحارث بن حاطب العمرى فلقد ولاه نبى الله ﷺ عـلى بنـى عمـرو بـن عـوف، بعـد أن بلغـه عنهم، ما جعل الشكوك تساوره منهم.
.. وبعد أن استراح الجند، عادوا إلى السير قاصدين بدرا .

ـ ٤ ـ

وعلم أبو سفيان بأمر خروج المسلمين لحصار قافلته،وكان ذا دهاء وحنكة، فاستأجر ضمضم بن عمـرو الغفارى، وبعثه إلى مكة ليستثير همة رجالهـا ليهبـوا إلى نجدتـه، بعـد أن أجـزل لـه العطـاء وأمـره أن يدخـل على قريش فى حـال ذرية حتى يستثير حماسهم .
وبعد ذلك سلك أبوسفيان طريقا مغايرا للطريق الذى اعتاد أن يسلكه، مبتعدا بالقافلة عن بدر، وأخـذ يستحث العير ويسرع بها إلى طريق البحر، ليفلت من المسلمين .
.. وحين وصل جيش المسلمين إلى ذفران، بلغ رسول الله ﷺ أن عير قـريش قـد نجـت مـن الحصـار، وأن قريشا قد استنفرت، وأن القرشيين قد خرجوا إليهم فى نفر كبير، فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه، وقال :
ـ إن القوم قد خرجوا إليكم من مكـة على كل صعب وذلـول مسرعين، فما تقولون : العير أحب إلـيكم من النفير ؟.
فقال بعضهم :
ـ يا رسول الله امش بنا إلى العير، فإننا إنما خرجنا لها، هلا ذكرت لنا القتل حتى نتأهب .
وتغير وجه رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر الصديق ﷺ فقـال وأحسن القول، ثم تبعه عمـر بـن الخطـاب ﷺ، فقال :

ـ يا رسول الله إنها قريش وعزها، والله ما ذلت منذ عزت، وسوف يقاتلونك بكل قوة، فتأهب لذلك أهبته، وأعد لذلك عدته .

ثم قام المقداد بن عمرو فقال :

ـ يا رسول الله، امض لأمر الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها : اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ها هنا قاعدون ؛ ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون . والذى بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك حتى تبلغه .

فدعا رسول الله ﷺ للمقداد بخير، ثم اتجه إلى جموع المسلمين قائلا :

ـ أشيروا على أيها الناس .

فنهض سعد بن معاذ وقد أدرك أن رسول الله ﷺ إنما يريد كلمتهم هم : الأنصار، وقال :

ـ أنا أجيب عن الأنصار يا نبى الله، فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فو الذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، أظعن حيث شئت، وصل من شئت، واقطع من شئت، وسالم من شئت، وعاد من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت ؛ والذى نفسى بيده ما سلكت هذا الطريق قط وما لى به من علم، وما نكره أن نلقى عدونا، وإنا لصبر فى الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا بعض ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله .

أشرق وجه رسول الله ﷺ بنور الرضا بمن نصروه، وقال :

ـ سيروا على بركة الله، وابشروا، فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين إنها لكم ؛ والله لكأنى الآن أنظر مصارع القوم .

ـ ٥ ـ

هب جهيم بن الصلت بن عبد المطلب من غفلته فزعا، فقال لقريش :

ـ إنى بين النائم واليقظان، إذ أنظر إلى رجل قد أقبل على فرس، ومعه بعير له، حتى وقف عليه، ثم قال : قتل عتبة وشيبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، وأبو البحترى، وأبو الحكم بن هشام ..

.. واستطرد يعدد أسماء رجالا من أشرافهم أعمل فيهم القتل، وعدد رجال آخرين تم أسرهم، ثم قال :

ـ ولقد رأيت الرجل ضرب لبة بعيره بسلاحه ، فتفجر منها الدم فأرسلها فى العسكر تجرى، فما بقى خباء من أخبيتنا إلا أصابه منها دم .

.. أصابت قريش فزعة عظيمة مما سمعت، فلقد سبقت رؤية جهيم، رؤية أخرى لعاتكة بنت عبد المطلب، تحققت بوفود رسول أبى سفيان يستنفر القوم، وأراد أبو جهل أن يذهب الروع عن صحبه، فقال متهكما من رؤيا جهيم :

ـ هذا نبى آخر من بنى عبد المطلب، سيعلم غدا إن نحن التقينا من منا المقتول، نحن أو محمد وأصحابه .

لما اطمأن أبو سفيان على نجاة عيره من أيدى المسلمين، أرسل إلى من خرجوا من قريش، كتابا يقول فيه : لا حاجة إلى مجيئكم فأرجعوا .

فلما وصل كتابه، قال أبو جهل :

ـ والله لا نرجع حتى نحضر ماء بدر، فنقيم عليها ثلاثة أيام ننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف القيان، وتسمع بنا قبائل العرب وبسيرنا وجمعنا .

.. بينما أشار الأخنس بن شريق على قومه من بنى زهرة بالرجوع، قائلا :

ـ يا بنى زهرة، قد نجى الله أموالكم، وخلص لكم صاحبكم وما معه، ولم تبق لنا حاجة فى أن تخرجوا من غير منفعة، فاجعلوا الرأى لى،ولا تسمعوا قول أبى جهل.

وحاول أبو جهل أن يثنى الأخنس عن رأيه، لكن الأخنس ذكر له مقولة رسول الله ﷺ بمصارع الأقوام، ثم سأله، قائلا :

ـ باللات والعزى أترى محمدا يكذب ؟!.

قال أبو جهل :

ـ ما عهدنا عليه وهو بين أظهرنا أنه كذب قط، وكنا نسميه الأمين، ولكن إذا كانت فى بنى عبد المطلب السقاية والقيادة، ثم تكون فيهم النبوة، فأى شئ قد تبقى لنا ؟!!.

.. ولم يستجب له الأخنس ورجع ببنى زهرة، وتبعهم بنو عدى، فكان مجموع من عادوا إلى مكة وتركوا معسكر المشركين ثلاثمائة رجل .

ـ ٦ ـ

عسكر المسلمون بالقرب من بدر، وارتحل رسول الله ﷺ يصحبه أبو بكر فابتعدا عن المعسكر، يتحسسان الأخبار فالتقيا بشيخ من العرب، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه، فقال الشيخ :

ـ لا أخبركما حتى تخبرانى من أنتما ؟!.

فقال رسول الله ﷺ :

ـ إذا أخبرتنا أخبرناك .

قال الشيخ :

ـ نعم، ذاك بذاك، بلغنى أن قريشا خرجوا من مكة يوم كذا، فإن صدقنى الذى أخبرنى، فهم الآن بقرب بدر، وبلغنى أن محمدا وصحبه قد خرج من يثرب يوم كذا، فإن صدقنى الذى أخبرنى، فهم الآن بالقرب من بدر، فممن أنتما ؟.

قال رسول الله ﷺ :

ـ من ماء .

.. ثم انصرف ومعه أبو بكر عائدين، فظن الشيخ أنهما من ماء العراق .

وفى المساء، بعث رسول الله ﷺ عليا والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص إلى ماء بدر ليتقصوا الأخبار، فعثروا بغلامين يرتوون مع نفر من قريش، فأمسكوا بالغلامين، وعادوا بهما، وسألوهما ورسول الله ﷺ يصلى، من يكونان فقالا أنهما غلامان لبنى الحجاج وبنى العاص، فقالوا:

ـ وماذا كنتما تعملان .

قالا :

ـ نحن سقاة قريش، بعثتنا لنستقى لهم .

فقالوا للغلامين :

ـ بل أنتم لأبى سفيان وتستقيان لعيره .

وأنكر الغلامان ذلك، فضرباهما، فلما أوجعهما الضرب، قالا :

ـ نحن لأبى سفيان .

.. وكان رسول الله ﷺ قد انتهى من صلاته، فدفعوا إليه الغلامين، فقال لهم :

ـ إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما ؛ والله لقد صدقا، إنهما لقريش .

ثم قال رسول الله ﷺ للغلامين :

ـ أخبرانى عن قريش ؟.

قالا :

ـ هم وراء هذا الكثيب بالعدوة القصوى .
فقال لهما :
ـ كم القوم ؟.
قالا :
ـ كثير عددهم .
قال :
ـ وما عدتهم ؟.
قالا :
ـ لا ندرى .
قال :
ـ كم ينحرون من الإبل كل يوم ؟.
قالا :
ـ يوما تسعا، ويوما عشرا .
فنظر رسول الله ﷺ لأصحابه، وقال :
ـ القوم ما بين التسعمائة والألف .
ثم قال للغلامين :
ـ فمن فيهم من أشراف قريش ؟.
..وراح الغلامان يرددان أسماء أشراف قريش، ولما انتهيا، قام رسول الله ﷺ لأصحابه، وقال :
ـ هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها .

.. كان جيش المسلمين قد نزل فى العدوة الدنيا، وهى ذات تراب كثير ورمال ناعمة، فعطش المسلمون، واشتد بهم العطش، حتى هدهم هدا، قال بعضهم :

ـ أتزعمون أنكم أولياء الله، وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم عطاش، حتى إذا ضعفتم هجموا عليكم وقتلوكم .

وقدمت السحب تترى، وأعتمت السماء، ثم أنزل الله مطرا فجاجا، أطفأ الغبار ولبد الأرض، وشرب المسلمون وسقوا الركائب، واغتسلوا، فطابت أنفسهم، وهدأت وساوس الشيطان ؛ وحمدوا الله كثيرا على ما رزقهم، ثم غلبهم النعاس فناموا لليلتهم نوما عميقا ؛ بينما تحركت السحب إلى حيث أقام المشركون، فاشتد المطر وتواصل، وأبرقت السماء وأرعدت، فذعروا وأصابهم الخوف والفزع .

وأمر رسول الله ﷺ فنودى للصلاة، وبعد انتهائها، وقف فيهم خطيبا، فقال بعد أن حمد الله تعالى:

ـ فإننى أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم عنه، فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالحق، ويحب الصدق، ويعطى على الخير أهله على منازلهم عنده، به يذكرون، وبه يتفاضلون، وإنكم قد أصبحتم بمنزل الحق، لا يقبل الله فيه أحد إلا ما ابتغى به وجهه، وإن الصبر فى مواطن البأس يفرج الله به الهم، وينجى به من الغم، وتدركون النجاة فى الآخرة، فيكم نبى الله يحذركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شئ من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله يقول : " لمقت الله أكبر من مقتكم لأنفسكم ". انظروا الذى أمركم به من كتابه، وأراكم من آياته، وأعزكم به بعد ذله، فاستمسكوا به، يرض به ربكم عنكم، وابلوا ربكم فى هذه المواطن أمرا تستوجبوا الذى وعدكم به من رحمته ومغفرته، فإن وعده حق، وقوله صدق، وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحى القيوم، إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا، وإليه المصير،يغفر الله لى وللمسلمين.

.. وأمر رسول الله ﷺ بالجيش أن يتقدم إلى أقرب مكان من بئر بدر، فينزل بها، فجاءه الحباب بن المنذر بن الجموح، فقال :

ـ يا رسول الله، أهذا المنزل أنزلكه الله تعالى، ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟.

قال نبى الله ﷺ :

ـ بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

قال الحباب :

ـ يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتنزل به، فإنى أعرف عذوبته وكثرته، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ونقذف فيه الآنية، ونغور ما سواه من الأبار، لئلا يأتوها من خلفنا فيشربوا، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربوا .

فقال رسول الله ﷺ :

ـ لقد أشرت بالرأى يا حباب .

ونهض بمن معه من جند الله، وعمل بما أشار حباب، وبات ليلته يصلى عند جذع شجرة قطع أعلاه .

فلما أصبح الصباح ..

.. وانتهى المسلمون من الصلاة، وجلس سعد بن معاذ إلى رسول الله ﷺ، وقال له :

ـ يا نبى الله، ألا نبنى لك عريشا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلى عدونا، فإن أعزنا الله، وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله، ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا، ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، ينصحونك ويجاهدون معك .

وتقبل رسول الله ﷺ ما قاله " سعد " قبولا حسنا، ودعا له، ونهض سعد إلى العمل، فتخير تلا يشرف على ساحة القتال، وبنى فوقه العريش من سعف النخيل .

ـ ٧ ـ

بعث رسول الله ﷺ بعمر بن الخطاب إلى قريش، وطلب منه أن يقول لهم :

ـ ارجعوا، فإنه إن يلى هذا الأمر منى غيركم، أحب إلى من أن تلوه منى، وإن أليه من غيركم، أحب إلى من أن يكون أليه منكم .

ولما سمع المشركون ما حمله إليهم عمر، قام من بينهم حكيم بن حزام، وقال :

ـ قد عرض محمد نصفا فاقبلوه، والله لا تنصرون عليه بعد ما عرض من الإنصاف .

واغتاظ الشيطان من ميل الناس للمسلامة والسلام، ولم يعجبه الحال، فوسوس لأبى جهل حتى أغضبه، فانتفض يرد على حكيم منكرا، وقال :

ـ والله لا نرجع بعد أن أمكنا منهم .

وعاد عمر ﷺ إلى رسول الله ﷺ، ليعلن رفض قريش للمسالمة .

.. ولم يكف الشيطان عن النفخ فى النار التى أوقدها فى نفوس المشركين، بل زين لهم أن يؤكدوا رغبتهم فى القتال ، وإعراضهم عن المسالمة وهم أهل القوة والكثرة، والأقدر على الانتصار، وفح قائلا :

ـ لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم .

واستشاط المشركون غرورا، واندفعوا يسعون إلى حوض الماء الذى أحاط به المسلمون، حتى وردوا الحوض ليعبوا من مائه، وسارع المسلمون لمنعهم، ولكن نبى الله ﷺ، قال لهم :

ـ دعوهم، فلا يشرب منهم أحد إلا هلك .

.. ثم بعثت قريش أبا سلمة الجشمى، ليستطلع حال المسلمين ويقدر عددهم، فأخذ يصول ويجول بفرسه عن مبعدة، وبعد وقت ليس بالقليل، عاد يقول :

ـ هم ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون، ولكن أمهلونى حتى أنظر إذا كان لهم كمين أو مدد.

.. وانطلق بفرسه ثانية، وراح يجوس فى الوادى باحثا، ورجع إليهم يقول :

ـ والله ما رأيت جلدا ولا عددا ولا حلقة ولا كرعا، ولكنى رأيت قوما لا يريدون أن يعودوا إلى أهليهم، قوما مستميتين، ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، زرق العيون كأنها الحصى تحت الجحف، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم، حتى يقتل رجلا منكم، فقروا رأيكم .

فلما سمع حكيم بن حزام ما قيل، مشى فى الناس ليرجعوا عن حرب محمد، حتى أتى عتبة بن ربيعة، وقال له:

ـ يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك فى أمر تذكر فيه بخير حتى آخر الدهر ؟.

قال عتبة :

ـ وما ذاك يا حكيم ؟.

قال حكيم :

ـ ترجع بالناس، وتتحمل أنت دية عمرو الحضرمى .

وكان عمرو قد قتل فى إحدى السرايا التى أخرجها رسول الله ﷺ، قال عتبة :

ـ قد فعلت، وأنت شاهد على بذلك، ولكن عليك بأبى جهل فإنى لا أخشى أن يخالف بين الناس غيره .

وذهب حكيم ليبحث عن أبى جهل، بينما وقف عتبة يخطب فى الناس، قال :

ـ يا معشر قريش، لا تصنعوا شيئا لمحمد وأصحابه، والله لئن ننتصر عليه، لا يزال الرجل منكم ومنهم ينظر فى وجه الرجل الذى قتل أخاه، أو ابن عمه أو ابن خاله، أو رجلا من عشيرته فيندم، وإن انتصروا عليكم كانت الطامة الكبرى، ورأيى أن ترجعوا وتخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذى أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم وحدكم لم تتعرضوا له بسوء .

.. ولما عثر "حكيم" بأبى جهل، عرض عليه العودة، وما رأى عتبة من افتداء لعمرو، فارتعب الشيطان مما عرض حكيم رعبا شديدا، وثار ومار، وقال أبو جهل بلسان الشيطان، وقد أصبح على نفس حاله من الثورة والغضب :

ـ جبن والله عتبة حين رأى محمدا وأصحابه، كلا، واللات والعزى، لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما قال عتبة ما قال إلا خوفا على ابنه الذى يقاتل فى صفوف المسلمين .

وبعث أبو جهل إلى عامر الحضرمى شقيق عمرو، فلما جاءه عامر، نفخ الشيطان فى النار، وقال له :

ـ هذا عتبة حليفك، يريد أن يرجع بالناس بعد أن رأى خذ ثأرك علينا سهلا .

.. ونفث الشيطان، فانتفض عامر وقد أهوسه الغضب، ورمى بقوسه ودرعه، وحثى التراب على رأسه، وأخذ يجأر صارخا فى وجوه المشركين، يقول :

ـ وا عمراه، وا عمراه .

.. أثار ما فعل عامر حمية الجاهلية فى قريش، وتنادوا إلى القتال، وخفت صوت العقل والحكمة، وخرج من بينهم الأسود بن عبد الأسد المخزومى، وقد اشتدت حميته وتمكن منه الشيطان، وأقسم أنه سيرد ماء المسلمين أو يهلك دونه، واندفع مهووسا يجرى إلى معسكر المسلمين، شاهرا سيفه مناديا للمبارزة، فتصدى له حمزة بن عبد المطلب ﷺ بضربة من سيفه فبتر ساقه، ثم ضربه ضربة ثانية أهلكت المشرك .

.. وكبر المسلمون وهللوا للنصرة الأولى، وقال نبى الله ﷺ، وقد أرى الغيب :

ـ والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم ..

.. ثم أخذ نبى الله ﷺ، يشير بيده إلى أماكن محددة من الأرض، ويقول:

ـ هذا مصرع عتبة، وهذا مصـرع أمية، وهذا مصرع أبى جهل، وهذا مصرع فلان، وفلان ...
.. وراح نبى الله ﷺ يعدد أسماء المشركين الذين سيقتلهم الله ببدر، ويحدد الأماكن التـى سـيهلك فيهـا كل واحد منهم، وكان ذلك ليلة الجمعة .

ـ ٨ ـ

.. ولما أشرق صباح يوم الجمعة السابع عشر من رمضان، أعلن رسول الله ﷺ إباحة الإفطـار للصـائمين، وبدأ بنفسه فأكل كسرـة مـن الخبـز وتبلـع بالمـاء، وتبعـه المسـلمون، ثـم أخـذ يصـف الجنـد وينـاديهم بالاسم،ليأخذوا مواقعهم مستوين متلاصقين، وقد جعـل الشمس خلفه، وبينما هو ينظر إلى الصفوف لمح سواد بن غزية، وقد تقدم الصف ببضع خطوات، فدفعه فى صدره برفق، وقال :
ـ استو يا سواد .
قال سواد متألما :
ـ أوجعتنى يا رسول الله .
فتألم رسول الله ﷺ من قولة سواد، وكشف عن صدره، وقال :
ـ رد ضربتى يا سواد .
واندفع سواد من الصف، إلى حيث وقف رسول الله ﷺ، واحتضنه، وأخذ يلصق وجهه بصـدره ويقبلـه، وهو يبكى فى وجد، وسأله رسول الله ﷺ، قائلا :
ـ ما حملك على ما صنعت يا سواد ؟!.
قال سواد، وقد غسل الدمع وجهه :
ـ يا رسول الله، ونحن فى هذا الموقف، توقعت أن أقتل، فأردت أن يكون آخر عهـدى بالـدنيا أن يمـس جلدى جلدك، وأن أعتنقك .
فى مودة، مسح رسول الله ﷺ على رأس سواد، ودعا له بالخير .
.. ثم دفع ﷺ برايته إلى مصعب بن عمـير، وأمـره فوضـعها حيـث أشـار، وذهـب رسـول اللـه ﷺ إلى العـريش، فاستقبل القبلـة، ورفع ذراعيه، وراح يـدعو الله ويستنصره، قائلا :
ـ اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم أتنى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصـابة مـن أهـل الإسـلام لا تعبد فى الأرض .
.. فما زال يهتف بربه، حتى سقطت عباءته عن كتفيه، فلما دخـل أبـو بكـر ورأى الحبيـب عـلى هـذا الحال من شدة الضراعة،رد العباءة على
منكبيه، وأخذ بيده، وقال له مخففا :
ـ يا نبى الله كفاك تناشد ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك .
.. وخرج رسول الله ﷺ من العريش ليطلع على المشركين، فلـما رأى كـثرة عـددهم وعتـادهم، عـاد إلى العريش، فصلى ركعتين، وعن يمينه أبو بكر •، وتوسل إلى الله تعالى قائلا :
ـ اللهم لا تودع منى، اللهم لا تخذلنى، اللهم أنشدك ما وعدتنى .
وخرج عتبة بن ربيعة وعن يمينه أخوه شيبة وعن يساره ابنه الوليد، قاصدين معسكر المسلمين، منادين للمبارزة، فخرج إليهم فتية من الانصار، فلما اقتربوا منهم سألهم عتبة :
ـ من أنتم ؟.
قالوا :
ـ رهط من الأنصار .
قال عتبة :
ـ أكفاء كرام، ليس لنا بكم حاجة، فارجعوا وأخرجوا إلينا أكفاء من قومنا وأبناء عمنا .

.. بلغ الأمر رسول الله ﷺ، فنزل من العريش، وطلب أن يرجع من تقدموا للمبارزة، ثم ذهب إلى حيث تجمع المسلمون، وقال :

ـ يا بنى هاشم، قوموا فقاتلوا بحقكم الذى بعث به نبيكم، إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله، قم : يا على، قم يا حمزة، قم يا عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب .

فقاموا مسرعين، فلما دنوا من المشركين سألهم عتبة من يكونون، فعرفوا بأنفسهم، فقال عتبة :

ـ نعم، أكفاء كرام .

وتبارز ثلاثتهم، فسرعان ما قتل حمزة ﷺ شيبة، فكبر المسلمون، ونزل الرعب والشؤم فى قلوب قريش وازدادوا فزعا، لما رأوا عليا يجندل الوليد، ثم كر حمزة وعلى على عتبة فقتلاه، بعد أن تمكن من عتيبة فجرحه، وارتفعت كلمة النصر :

ـ الله أكبر .

وحمل عبيدة جريحا إلى العريش، وأفرشه رسول الله ﷺ ساقه، فنظر طويلا فى وجه الحبيب، ثم قال متسائلا :

ـ يا رسول الله، إذا مت من جرحى هذا، ألست شهيدا ؟.

قال رسول الله ﷺ :

ـ أشهد أنك شهيد .

ـ ٩ ـ

.. وتواجه الجمعان، فرفع رسول الله وجهه وذراعيه إلى السماء، وقال:

ـ اللهم إنك أنزلت على الكتاب، وأمرتنى بالقتال، ووعدتنى إحدى الطائفتين، وأنت لا تخلف الميعاد ؛ اللهم هذه قريتى قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم أحنهم الغداة.

وتنزل قول العزيز القدير فى سورة الأنفال :

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْف منْ الْملائكَة مُرْدفينَ (٩)

.. فكاَن المسلم لا يرى المشركين إلا قلةَ، وكذلك كاَنَ حال المَشركين؛ فَلما التحم الجيشان، وجدت قريشا المسلمين وقد تكاثر عددهم، بما لا قبل لهم به، فتنزل الرعب فى قلوبهم، ولما اشتد القتال، غادر رسول الله العريش، ونزل إلى المسلمين يشحذ هممهم، ويقول من سورة آل عمران :

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَة منْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣)

.. ثم يستطرد ﷺ قائلا :

ـ والذى نفس محمد بيده، لا يقاتل اليوم رجل، فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة .

.. قال له عمير بن الخمام، وبيده تمرات يأكلهن :

ـ يا رسول الله، أما بينى وبين أن أدخل الجنة، إلا أن يقتلنى هؤلاء.

قال الصادق الصدوق ﷺ :

ـ نعم .

فرمى عمير بالتمرات من يده، وقال :

ـ والله لئن حييت حتى آكلهن، إنها لحياة طويلة .

واستل سيفه، ورمى بنفسه فى خضم المعركة يقاتل فى سبيل الله .

.. وتناول رسول الله ﷺ حفنة من الحصى، ورمى بها فى وجوه قريش، وقال :

ـ شاهت الوجوه، اللهم أرعب قلوبهم، وزلزل أقدامهم .

ثم نادى المسلمين، قائلا :

ـ شدوا .

واقترب المسلمون بعضهم من بعض، وتلاحموا، حتى أصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، إعمالا لأمر ربهم سبحانه وتعالى فى سورة الصف :

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤)

.. ثم اندفعوا إلى لقاء المشركين، واتجه رسول الله ﷺ إلى العريش، يتبعه أبو بكر، وأخذ ﷺ يدعو ربه :

ـ اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم فلن تعبد فى الأرض، اللهم أنشدك وعدك وعهدك .

وأبو بكر ؓ يقول واثقا :

ـ يا نبى الله، إن الله منجز ما وعدك، والله لينصرنك الله، وليبيضن وجهك .

.. وارتعد رسول الله ﷺ، ثم أفاق فقال مستبشرا لأبى بكر :

ـ أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع .

.. وهبت ريح خفيفة، ثم اشتدت الريح، ثم زادت اشتدادا وقوة، ويقال إنها كانت حركة الملائكة تتنزل بأمر ربها، لتحارب مع المسلمين، وتثبت فؤادهم :

إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) سورة الأنفال

مع غروب الشمس انهزم المشركون، وقتل منهم سبعون كان منهم كل من عدد رسول الله ﷺ مصرعهم، كما أسر سبعون، ونكص الشيطان على عقبيه، وفر قائلا للمشركين :

ـ إنى برىء منكم .

ولما جمعت جيف من هلك من المشركين، تم دفنها فى القليب، وقد وقف رسول الله ﷺ عليهم، ونادى قائلا :

ـ يا أهل القليب، يا هيبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا أمية بن خلف، يا أبا جهل بن هشام، يا.

.. وأخذ رسول الله ﷺ يعددهم اسما اسما، ثم قال :

ـ بئس العشيرة كنتم لنبيكم، كذبتمونى وصدقنى الناس، وأخرجتمونى وأوانى الناس، وقاتلتمونى ونصرنى الناس، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟..

فقال عمر بن الخطاب :

ـ يا رسول الله، كيف تكلم أجسادا أجيفوا ولا أرواح فيها ؟!.

قال رسول الله ﷺ :

ـ ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئا .

.. وراجع المسلمون قتلاهم فكانوا ثلاثة عشر شهيدا، من بينهم الصبى : عمير بن أبى وقاص، وعمير بن الخمام .

.. ومكث رسول الله ﷺ ببدر ثلاث ليال، جمعت فيها الغنائم، وكانت مائة وخمسين بعيرا، وعشرة أفراس، ومتاعا وسلاحا وثيابا ..

وقد اختلف المسلمون فى اقتسام الغنائم، فقال الذين قاتلوا العدو :

ـ والله لولانا ما أصبتم الفىء .

وقال الذين سعوا فى جمعه :

ـ هو لنا فلقد عنتنا فى جمعه .

وقال الذين قاموا على حراسة رسول الله ﷺ :

ـ والله ما أنتم بأحق به منا .

.. فنزل قول الله تعالى، من سورة الأنفال :

يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ قُلْ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (١)

ولما سمع عبادة بن الصامت ما تنزل من قول الله، قال آسفا :

ـ نزلت سورة الأنفال فينا معشر أهل بدر حين اختلفنا فى النفل وساءت أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسوله ﷺ .

.. عاد رسول الله ﷺ بجيشه إلى المدينة، وقد صحب معه الأسرى والغنائم، ولما مالت الشمس للغروب تخطى مضيق الصفراء، ونزل بكثيب حيث مات عبيدة ابن الحارث متأثرا بجراحه، فصلى عليه ودفن هناك، وفى نفس المكان، تنزل قول الله تعالى، من سورة الأنفال :

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١)

فأمر رسول الله ﷺ بالغنائم لتقسم، ثم أمر أن تقسم الأربعة أخماس على أهل بدر، فقال سعد بن معاذ :

ـ يا رسول الله، أتعطى فارس القوم الذى يحميهم مثل ما تعطى الضعيف ؟!.

قال نبى الله ﷺ :

ـ وهل تنصرون إلا بضعفائكم ؟.

وانطلق البشير إلى المدينة بخبر النصر، فوجد أهلها قائمين على دفن رقية بنت رسول الله ﷺ، فلما انتهوا، خرجوا لاستقبال الحبيب ﷺ، بمثل الحفاوة والفرحة التى استقبلوه بها يوم وفد عليهم لأول مرة .

.. حمل أول من عاد من أرض القتال، خبر الهزيمة إلى مكة، قبل أن تصل فلول جندهم، فأصاب أهلها حزن شديد، وإن لم يصدقوه لهول ما قال، ثم بدأت شراذمهم تقبل، فتدافعوا يتحسسون فلذات أكبادهم بين من فروا، فلم يجدوهم، وسمعوا أبا سفيان بن المغيرة يقول لأبى لهب وهو كبيرهم :

ـ والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحاهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، ومع ذلك لا ألوم من هزموا، فلقد لقينا رجالا بيضا على خيل بلق، لا يقف أمامهم شئ ولا يبقون على شئ .

.. وهنا انطلق الحزن يجأر بين الشعب والأحياء، ومات أبو لهب بعدها بسبعة أيام منبوذا فقد دهمه الطاعون كما دهم من قبله أبرهة الأشرم، فتباعد عنه بنوه ثم دفعوا جيفته بالعصى إلى أن أسقطوه فى حفرة، ثم أهالوا عليه التراب، وظل النواح والبكاء على قتلى قريش قائما لا ينقطع لمدة شهر .

ولما تدبر العقلاء من قريش أمرهم، قالوا :

ـ لنكف عن النواح، حتى لا نشمت فينا محمدا .

.. ثم ادركوا أن العير التى عاد بها أبو سفيان مازالت تحمل تجارتهم، فتعاهدوا على أن يكون عائد ربحها جميعه من أجل قتال محمد وصحبه ثأرا لقتلاهم .

.. وبدأ القرشيون بفداء الأسرى، وكان من بينهم زوج زينب بنت رسول الله ﷺ أبو العاص بن الربيع، ولم يكن صاحب مال، فأرسلت زينب ﷺ بقلادة كانت قد أهدتها لها أمها السيدة خديجة ﷺ عند زواجها، فرق لها قلب رسول الله ﷺ وطلب من أصحابه أن يعتق " أبو العاص " وترد القلادة لصاحبتها فوافقوه، على أن يرد زينب إلى أبيها، فهى محصورة فى مكة، بعد أن فرق بينهما عدم دخول زوجها فى دين الله .

وانتهى صيام رمضان بثبوت رؤية الهلال لمن خرجوا يستطلعونه، وعند شروق شمس غرة شهر شـوال، أذن بلال للصلاة، وأم رسول الله ﷺ جموع المسلمين لأول مـرة، ليصلوا صلاة عيـد الفطـر، ولما انتهـوا، خطب فيهم، وبين لهم مشروعية زكاة الفطر، وحضهم على إخراجها .

.. وبعد أيام، دخل رسول الله ﷺ بعائشة بنت أبي بكر الصديق ، وكان قـد بنـى لهـا دارا، بجانـب داره الأولى، لصق المسجد .

أما " أبو العاص " فعندما عاد إلى داره، جهز زينب ثم أرسلها إلى المدينـة، وفـاء لما عاهـد عليـه رسول الله ﷺ، وفى غفلة من قريش، التى أصبح همها الذى يهم أهلها بالليل والنهار، وشغلها الشـاغل : تأليب قبائل العرب، على محمد ﷺ وقومه، وخرجت رسلهم إلى كل وجهة، يقـودهم احكـم حكمائهـم، وزعماء سفرتهم : فتوجهوا إلى تهامة وكنانة والأحابيش وغيرها من القبائل، يستنصرونهم ويسـتنفرونهم، ويخوفونهم من زيادة نفوذ محمد فى المدينة وما حولها، ويتمثلون بما هو واقع، فلقد أصبح محمد يمسك بزمام تجارتهم ويتحكم فيها، بتحكمه فى طرقها إلى اليمن والشام، كما أن هناك خطورة من انتشار ديـن محمد وفكره، لأن فيه اندحارا كاملا لنفـوذ السـادة، ومسـاواة بـين الجميـع، وضـياعا لجـبروت الأنسـاب والأحساب، المتسلط على رقاب العباد من الضعفاء، فرب محمد قال :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) سورةَ الحجرات

.. ومحمد ﷺ هو من قال :

ـ لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى .

.. فماذا ينتظرهم جميعا بعد هذا إلا الأفول والضياع ؟!!.

الفصل الخامس عشر :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ سورة الأحزاب

التطهـر

ـ ١ ـ

لم تنس قريش قتلاها ببدر لحظة واحـدة ، فالنسـاء لا يكففـن عـن مضـغ الأحـزان ، وتفلهـا فى وجـوه الرجال ، لدفعهم دفعا للتعجيل بقتال محمد ﷺ وصحبه .

وبدأت الحشود تتجمع فى مكة من كل مكان ، حتى وصلت لأكثر مـن ثلاثـة آلاف رجـل ، وثلاثـة آلاف بعير ، وخمسمائة فرس ، وأخذ الخوف والقلق بتلابيب العباس ابن عبد المطلب عـم النبـى ﷺ ، فبعـث برسالة لابن أخيه يحذره مما جمعته وأجمعت عليه قريش .

.. فى غرة شوال ، وبعد أن اكتملت الحشود ، وتم إعـداد السـلاح والعتـاد ، تحركـت القـوات وقـد ولى القيادة أبو سفيان بن حرب ، كما انضمت إلى الحشود خمس عشرة امرأة على رأسهن هنـد بنـت عتبـة ، يحرضن الرجال ، ويحثونهم على قتل المسلمين ، ولقد وعدت هنـد بـأن تهـب ذهبهـا وحليهـا لمـن يقتـل حمزة قاتل أبيها ، وتخيرت لذلك عبدا حبشيا قوى البنيان ، عرف بقدرته الخارقة على استخدام الـرمح ، اسمه وحشى ، وحين لقيته ، واصلت نفث حقدها فيه ، وقالت له محرضة:

ـ لو قتلته يا وحشى ، وشفيت غليلى ، سوف أدفع ثمنك لسيدك ، وأعتقك لتصبح حرا .

.. وصل رسول العباس ﷺ إلى مسجد قباء ، حيث كان رسول الله ﷺ يدارس أصحابه ، وقرأ أبى بن كعب الرسالة على رسول الله ﷺ ، فطلب منه أن يكتمها ، ولا يذيعها ، ومشى رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وبات ليلته ، فأرى فى منامه بقرا يذبح ، وثلما فى ذبابة سيفه ، وأنه أدخل يده فى درع حصينة ، وأنه ذابح كبشا .

.. ولما أصبح، أرسل نبى الله ﷺ بشابين من شباب المسلمين، ليستطلعا مداخل المدينة ، وعاد المستكشفان مسرعين ، فأخبراه بأن قريشا برجالها وخيلها وعيرها تعسكر على مشارف المدينة، وقد أطلقوا دوابهم ترعى الزرع، حتى أتت على كل ما هو أخضر !.

.. وتكلم الناس بالخبر ، وتجمعوا بعد صلاة الجمعة حول رسول الله ﷺ ، وقد تنادوا للقتال ، فأبلغهم بما جاءه من عمه العباس ، وبصدق الرسالة بعدما تأكد وصول قريش تبغى القتال ، ثم حدثهم بالرؤيا التى رأى ، فتساءل الحضور :

ـ وما تأويلك لها يا رسول الله ؟.

قال ﷺ :

ـ فأما البقر فناس من أصحابى يقتلون ، وأما الثلم فى سيفى فهو رجل من أهل بيتى ، وأما الدرع الحصينة فهى المدينة ، وأما الكبش فإنى أقتل حامى القوم .

.. ثم قال :

ـ أشيروا على ، فإن رأيتم فأقيموا بالمدينة وندعهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم ، فنحن أعلم بها منهم .

فوافقه أكثر الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وقالوا إن الرأى هو ما رأى رسول الله ﷺ ، وأكد الأنصار على صواب رأيه ، فقالوا :

ـ يا رسول الله أقم بالمدينة ، ولا تخرج ، فو الله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها إلا أصبنا منه ، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس ، وإن دخلوها قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم الصبيان والنساء بالحجارة من ورائهم ، وإن رجعوا ، رجعوا خائبين كما جاءوا .

.. ولكن الكثرة الحاضرة من الشباب ، والراغبين فى الشهادة ، أخذتهم الحمية لدينهم ، وقالوا :

ـ يا رسول الله ، أخرج بنا إلى عدونا .

.. فأعرض عنهم الرسول ﷺ ، وهم يعيدون ما قالوا فى إصرار ، وهنا قال حمزة ﷺ وطائفة من الأنصار :

ـ إنا نخشى يا رسول الله ، أن يظن عدونا فى عدم خروجنا إليهم ، أنا جبنا عن لقائهم ، فيكون منهم جرأة علينا ، ولقد كنت يا رسول الله يوم بدر فى ثلاثمائة رجل فظفرك الله عليهم ، ونحن اليوم بشر كثير ، قد كنا نتمنى هذا اليوم ، وندعو الله به فساقه الله إلينا فى ساحتنا .

ولم يزالوا يلحون على رسول الله ﷺ بالخروج وهو كاره ، وبدأت أصوات المؤيدين تزداد وتغلب شيئا فشيئا ، حتى ترجح عنده الرأى بالخروج .

ونهض رسول الله ﷺ إلى داره ، فسارع الناس يتجهزون للخروج ، وتناوبوا حراسة مداخل المدينة ، خوفا من أن يدخلها عليهم القرشيون خلسة ، وقاموا على حراسة رسول الله ﷺ ليلا .

ـ ٢ ـ

اليـوم : السبت ، السابع من الشهر .

الشهر : شوال .

السنة : الثالثة من الهجرة .

صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح، ثم وقف في المصلين خطيبا، وكانوا سبعمائة رجل ، وبعد أن حمد الله تعالى واثنى عليه ، قال :

ـ يا أيها الناس ، أوصيكم بما أوصانى به الله ، فى كتابه من العمل بطاعته ، والتناهى عن محارمه ، ثم إنكم منزل أجر وزخر لمن ذكر الذى عليه ، ثم وطن نفسه على الصبر واليقين والجد والنشاط ، فإن جهاد العدو شديد كريه ، قليل من الصبر عليه إلا من عزم الله له وشده ، فإن الله مع من أطاعه ، وإن الشيطان مع من عصاه ، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد ، والتمسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم بالذى أمركم به فإنى حريص على رشدكم ، وإن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف ، وهو مما لا يحب الله ولا يعطى عليه النصر ولا الظفر .

يا أيها الناس ، إنه قذف فى قلبى أن من كان على حرام فرغب عنه ابتغاء ما عند الله غفر الله له ذنبه ، ومن صلى على صلى الله عليه وملائكته عشرا ، ومن أحسن من مسلم أو كافر وقع أجره على الله فى عاجل دنياه أو آجل آخرته ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فعليه الجمعة يوم الجمعة إلا صبيا أو امرأة أو مريضا أو عبدا مملوكا ، ومن استغنى عنها استغنى الله عنه ، والله غنى حميد .

ما أعلم من عمل يقربكم من الله إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه ، وإنه قد نفث فى روعى الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها ، ولا ينقص منه فى شىء وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله ربكم ، وأجملوا فى طلب الرزق ، ولا يحملنكم استبطاؤه على معصية ربكم ، فإنه لا يقدر على ما عنده إلا بطاعته ، قد بين لكم الحلال والحرام ، غير أن بينهما شبهات لم يعلمها كثير من الناس ، إلا من عصم الله ، فمن تركها حفظ عرضه ودينه ، ومن وقع فيها كان كالراعى إلى جنب الحمى ، أوشك أن يقع فيه ، وليس ملك إلا وله حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، والمؤمن من المؤمنين كالرأس من الجسد ، إذا اشتكى تداعى إليه سائر الجسد ، والسلام عليكم .

ووقف أبو سفيان بن حرب خطيبا فى المشركين فقال :

ـ يا بنى عبد الدار ، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر ، فنزلت بنا المصائب ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، إن هى زلت زلوا ، فإما أن تكفونا لواءنا ، وإما أن تخلوا بيننا وبينه .

.. وثار عليه بنو عبد الدار ، وتوعدوه قائلين :

ـ ستعلم غدا إذا التقينا ، كيف نصنع ؟.

.. وأخفى أبو سفيان ابتسامة الرضا التى علت وجهه ، فلقد استطاع أن يحقق ما يصبو إليه من إثارة حمية أصحاب اللواء .

وحانت صلاة العصر ، وقد تم احتشاد المسلمين ، ووصل عددهم لألف رجل ، وصلى بهم رسول الله ﷺ ، ثم دخل بيته ، وتحدث المجتمعون عن مخالفة بعضهم لرغبة رسول الله فى البقاء بالمدينة ، والدفاع عنها من الداخل ، وقالوا للراغبين فى الخروج :

ـ لقد شققتم على رسول الله ﷺ ، وما كان ينبغى لكم ، فإذا ما خرج علينا ، تحدثتم إليه برغبتكم فى إطاعة أمره .

فلما خرج إليهم رسول الله ﷺ ، وقد لبس ملابس الحرب ، قالوا له :

ـ يا رسول الله لقد رأيت أن تبقى فى المدينة ، وما كان لنا أن نخالفك ، فاصنع ما بدا لك .

فأجابهم رسول الله ﷺ ، قائلا :

ـ دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، ولا ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، امضوا على اسم الله ، فلكم النصر ما صبرتم .

.. واستعرض جند الله ، وسار بهم خارجا من المدينة ، ولكن ثلاثمائة رجل من المنافقين وأشياعهم ، نكصوا على أعقابهم ، ودعواهم أن رسول الله لم يستمع إلى مشورتهم ويبق بالمدينة ، بينما واصل جند الله زحفهم فى عزم .

.. وبدأت الحرب ، ورمى حملة النبل فرسان المشركين ، من فوق جبل " أحد " فأثخنوهم بالجراح ، وأبلى المسلمون من الراجلين ، فى مواجهة قريش وأتباعها بلاء حسنا ، فجعلوهم يفرون فرارا من ميدان القتال ، وأخذت الجند المسلمة تجمع الغنائم ، وحين رأى حملة النبل من فوق الجبل ما يحدث أسفله ، حدثتهم أنفسهم بأن ينزلوا عن الجبل ليغنموا كما غنم غيرهم ، ونفث إبليس فيهم أكثر وأكثر ، حتى لم يصبحوا رائين إلا الغنم والغنائم ، وضاعت تحذيرات زملائهم ممن لم ينسوا وصية رسول الله ﷺ ، وكان قد أوصاهم ألا يغادروا أماكنهم بالجبل ، مهما حدث من أحداث : وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٩٢) سورة المائدة

.. وهكذا جاء العصيان الثانى ، وانكسر سهم المسلمين .

.. فلقد انتهز خالد بن الوليد فرصة نزول حملة النبل ، واعتلى الجبل ومعه رماة النبل ، بينما اندفعت جند قريش ملتفة من خلف الذين شغلتهم أمور دنياهم من المسلمين ، فأعملوا فيهم سيوفهم ونبلهم ورماحهم ، واستطاع " وحشى " أن يقتل حمزة ﷺ، وقتل معه أربعة وسبعون من المسلمين ، وجرح رسول الله ﷺ وسال دمه الشريف ، وأشاع المشركون أنه قتل .

ونادى منادى رسول الله : مذكرا بأمر الله وبوعده ، ومبينا أن رسول الله حى ، فارتعدت القلوب بالحب والفرحة واندفع من بقى من المسلمين بأرض المعركة يلتفون حول الحبيب ﷺ ، وقد هانت عليهم أرواحهم ، فجعلوا من أجسامهم درعا يدرءون به الأذى عن الحبيب محمد ﷺ ، وصعدوا جبل " أحد " ومعهم رسول الله ﷺ وتحصنوا به ، وأنزل الله عليهم رحمته فأنامهم نوما عميقا أخذهم للحظات ، أفاقوا منها وقد اغتسلت أرواحهم مما أصابها من خوف وهلع ، ونشطت أبدانهم المكدودة ؛ بينما انشغل المشركون بالتمثيل بقتلى المسلمين ، فبقروا منهم البطون وفقئوا العيون ، وقطعوا الآذان والأنوف ، حتى وصل الحال بهند بنت عتبة أن بقرت بطن حمزة ، وأخرجت كبده وقضمت منه بأسنانها ، ولكن الله منعها عن بلعه وجعله نارا أحرقت شدقيها ، فبصقته !!..

ثم أتى أبو سفيان بفرسه الجبل ، ووقف حيث تحصن المسلمون ، ورفع بصره لأعلى وقد أخذه الكبر كل مأخذ ، لكنه لم يبصر شيئا فأرخى جفنيه مخذولا ، واطرق برأسه للحظات وقد أخذه الخوف من أن تكون لعنة محمد قد حلت به ، وسرعان ما أدرك شيطانه الخطر الذى حاق بصاحبه، فنفث فيه فنادى ، والكبر والكفر تفوح رائحتهما عفنة كريهة فى كلماته :

ـ أعل هبل .

فقال رسول الله ﷺ :

ـ قم يا عمر ، فأجبه .

فنهض عمر بن الخطاب ، وقال بصوت أوب معه الجبل ، قال :

ـ الله أعلى وأجل .

قال أبو سفيان :

ـ إنها قد أنعمت علينا ، فهذا يوم بيوم بدر ، إن الأيام دول ، وإن الحرب سجال ، وحنظلة بحنظلة .

.. وأخذ أبو سفيان بن حرب يعدد قتلى بدر من المشركين ، وقتلى أحد من المسلمين ، ويقول فلان بفلان ، وفلان بفلان ...

فقال له عمر ﷺ :

ـ إنه لا سواء ، قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار .

قال أبو سفيان :

ـ إنكم تقولون ذلك ، لنا العزى ولا عزى لكم .

قال عمر ﷺ :

ـ الله مولانا ولا مولى لكم .

قال أبو سفيان :

ـ قم إلى يا بن الخطاب ، أكلمك ، أنشدك بدينك : هل قتلنا محمدا ؟.

قال عمر ﷺ :

ـ اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن .

قال أبو سفيان :

ـ أنت أصدق عندى من كل من قالوا .

.. ثم سكت قليلا وقال :

ـ ألا إن موعدكم بدر الصفراء ، فى العام القابل .

فقال رسول الله ﷺ لعمر :

ـ قل له نعم .

فقال عمر ﷺ :

ـ نعم هو بيننا وبينكم موعدا .

.. وقبل أن يستدير أبو سفيان بفرسه ، قال :

ـ إنكم واجدون فى قتلاكم مثلا ، إلا إن ذلك لم يكن عن رأيى ، وما رضيت به ، وما سخطت ، وما نهيت عنه ، وما أمرت .

.. وانصرف ، وانصرفت معه جند المشركين متوجهين إلى مكة ، حينئذ نزل المسلمون ، ومعهم رسول الله ﷺ من جبل أحد ، وأخذوا يتفقدون قتلاهم ، وكان رسول الله ﷺ لا يكف عن سؤال من حوله عن حمزة ، قائلا :

ـ ما فعل عمى ؟.

فلما وقف على جثمانه ، ورأى بطنه وقد بقرت ، وأنفه وأذنيه وقد قطعت ، قال :

ـ لن أصاب بمثلك أبدا ، ما وقفت أبدا موقفا أغيظ إلى من هذا ، ولولا أن تحزن نساؤنا ، ويكون سنة من بعدى ، لتركته حتى يحشر يوم القيامة من بطون السباع وحواصل الطير ، ولئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين من رجالهم .

وتألم من شهدوا الحبيب ﷺ أشد الألم ، لحال الأسى والحزن التى كان عليها ، وقالوا متوعدين :

ـ والله لئن أظفرنا الله بقريش يوما من الدهر ، لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب .

.. وتنزل قول الحق بآيات من سورة النحل موقظا للنفوس الثكلى ، مؤصلا للعدل :

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦)

واستجاب نبى الله ﷺ لأمر ربه ، وأعلن أنه قد عفا وصبر ، ونهى المسلمين عن التمثيل بالموتى ، ثم أمر بجمع القتلى ، وقال :

ـ لفوهم بدمائهم وجراحهم ، فليس أحد يجرح فى الله تعالى ، إلا جاء يوم القيامة جرحه لونه لون دم ، وريحه ريح مسك .

ولما عاد جيش المسلمين إلى المدينة ، كان كل ما يهم من بقى بها من المسلمين ، السؤال فى لهفة عن الحبيب ﷺ ، فلقد أبلغهم اليهود شامتين فرحين مهللين ، أن نبيهم قد قتلته قريش ، وحين اكتحلت عيونهم برؤيته ، توحدت مقالتهم بالصدق :

ـ أما وقد رأيناك سالما ، فلقد هانت كل مصيبة .

.. بينما انتهز اليهود والمنافقون ما حدث لمواصلة الشماتة ، فأظهروا العداوة والبغضاء ، وأخذوا يدعون الناس للانفضاض عن رسول الله قائلين :

ـ إن الأنبياء لا تصاب فى أبدانها ولا فى أصحابها ، وما محمد إلا طالب ملك ، ولو كان من قتل منكم بقوا مثلنا ما ماتوا ، وما قتلوا .

.. وسار عمر بن الخطاب ﷺ بما سمع إلى رسول الله ﷺ ، يستأذنه فى قتل كل من يشيع هذا الحديث ، فقال له نبى الله ﷺ فى ثقة :

ـ يا عمر ، إن الله مظهر دينه ، ومعز نبيه ، ولليهود ذمة وعهد ، فلا أقتلهم .

قال عمر • :

ـ فما بال هؤلاء المنافقين ؟!!

قال رسول الله ﷺ :

ـ أليسوا يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله ؟.

قال عمر ﷺ :

ـ بلى يا رسول الله ، وإنما يفعلون ذلك خوفا من السيف ، فقد بان لنا أمرهم وظهرت حقيقتهم عند هذه النكبة .

قال رسول الله ﷺ :

ـ يا ابن الخطاب ، نهيت عن قتل من قال لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ؛ وإن قريشا لن ينالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن .

ـ ٣ ـ

جاوز اليهود حدود الوقيعة بين المسلمين والطعن فى دين الله ، إلى الرغبة فى إيقاع الأذى برسول الله ﷺ ، وعمدوا إلى السحر حتى أعياهم السعى ، ولم يصيبوا رسول الله ﷺ بأذى ؛ فذهبوا إلى لبيد بن الأعصم ، وهو من أعلمهم بالسحر والسم ، وقالوا له :

ـ يا أبا الأعصم ، أنت أسحرنا ، ولقد سحرنا محمدا فلم نصنع شيئا ، وأنت ترى أثره فينا ، وخلافه ديننا ، ومن قتل منا ومن أجلى ، ونحن نجعل لك جعلا على أن تسحره لنا سحرا يؤذيه ، ولك من أموالنا ما تشاء .

.. ومرض رسول الله ﷺ مرضا شديدا ، فما كان يدرى مما يشتكى ، وطال به المرض ، فتوجه إلى الرحمن الرحيم يسأله أن يكشف عنه الغمة ، فأتاه جبريل وميكائيل ، فجلس الأول عند رأسه ، وجلس الثانى عند رجله ، فقال ميكائيل :

ـ يا جبريل إن صاحبك شاك .

قال جبريل عليه السلام :

ـ أجل .

فقال ميكائيل عليه السلام :

ـ وما وجع الرجل ؟.

قال جبريل عليه السلام:

ـ مطبوب .

قال ميكائيل عليه السلام:

ـ فمن الذى طبه ؟.

قال جبريل عليه السلام :

ـ لبيد بن الأعصم اليهودى .

قال ميكائيل عليه السلام:

ـ فبماذا ؟.

قال جبريل عليه السلام :

ـ فى مشط ومشاقة وجف طلع نخلة ذكر .
قال ميكائيل عليه السلام :
ـ وأين هو ؟.
قال جبريل عليه السلام :
ـ فى بئر ذى أروان تحت صخرة فى الماء .
قال ميكائيل عليه السلام :
ـ فما دواء ذلك ؟.
قال جبريل عليه السلام :
ـ تنزح البئر ، ثم تقلب الصخرة فتؤخذ الكدية ، فيها إحدى عشرة عقدة فتحرق، فإنه يبرأ بإذن الله تعالى .

وأرسل نبى الله ﷺ عليا وعمار، فاستخرجا الجف، فإذا فيها مشط رسول الله ﷺ، وإذا وتر قوس معقود إحدى عشرة عقدة مغرزه بالإبر .

ونزل جبريل عليه السلام بسورة الفلق :

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)

.. ثم بسورة الناس ، ومجموع آيات السورتين ، إحدى عشرة آية :

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)

فكان إذا ما قرأ رسول الله ﷺ آية منها انحلت عقدة ، وكلما نزع إبرة وجد لها ألما ، ثم وجد بعدها راحة .

.. وأمر رسول الله ﷺ بالبئر فطمرت ، وتسابق فرسان المسلمين إلى الحبيب ﷺ يطلبون أن يأذن لهم بقتل لبيد بن الأعصم ، ولكنه رفض أن يقتل الساحر ، وقال مفوضا أمره إلى الله :
ـ ما وراءه من عذاب أشد .

.. وفى شهر ربيع الأول ، من ذات العام الثالث من الهجرة ، عمد يهود بنى النضير إلى محاولة قتل رسول الله ﷺ حين ذهب إليهم ليدفع دية قتيلين من قتلاهم ، قتلا خطأ ، وتظاهروا بالرضا والقبول بالدية ، بينما هم يمكرون مكرهم ؛ وجاءه الوحى فنبأه بأن اليهود قد اتفقوا على قتله ، وأن هناك يهوديا قد اعتلى الجدار الذى يستند إليه ، وقد تهيأ ليلقى عليه بحجر ليقتله ، فترك رسول الله ﷺ مكانه فجأة ، وغادر ناديهم.

ولما رجع إلى المسجد ، بعث إليهم برسول يكشف نيتهم على الغدر ، ونقضهم العهد الذى عاهدوا عليه الله ورسوله ، ثم أمرهم بالجلاء عن المدينة خلال عشرة أيام ، ومعهم نساؤهم وأبناؤهم وأموالهم ، ومن رؤى منهم بعد ذلك الموعد ، ضرب عنقه .

وسب اليهود من أبلغهم الرسالة ، وسبوا المسلمين ، وطعنوا فى الدين ، مظهرين عداءهم ، وقالوا لن نخرج ، ونحن على حربكم قادرون ، وأغلقوا عليهم أبواب حصونهم ، وتجهزوا لحرب المسلمين .

وخرج المسلمون لقتال اليهود ، وأحاطوا بحصونهم ، ولكن اليهود لم يخرجوا من حصونهم لقتال المسلمين ، وكل ما فعلوه أن راحوا يسبونهم بأقذع الألفاظ من وراء الأسوار ، ويرمونهم بالحجارة وبالسهام ، وأثناء الأيام الستة الأولى من الحصار ، حرمت الخمر ، وتنزل قول الله تعالى من سورة المائدة :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)

.. وبهذا حرمت الخمر علي المسلمين تحريما كاملا ، بعد أن كانت مباحة فى غير مواعيد الصلاة ، وهو ما كان يسبب الحزن لدى من حسن إيمانه ، فكان عمر بن الخطاب يدعو الله ليل نهار أن يحرمها على المسلمين ، كراهية لها ، لما كانت تحدثه من مهانة لمن يشربها .

.. مضت على الحصار عشرة أيام كاملة ، ثم بدأ المسلمون يدمرون أملاك اليهود ، حتى يقطعوا لديهم باب الأمل فى البقاء ، فشق ذلك على هود ، وبعث سيدهم حيى بن أخطب إلى رسول الله ﷺ يعلن بأنه يقبل الخروج هو ومن معه بسلاحهم وأموالهم ، فرد عليه رسول الله ﷺ بقوله :

ـ لا أقبله اليوم ، ولكن اخرجوا منها ، ولكم دماؤكم ، وما حملت الإبل إلا السلاح .

.. وثار الخلاف بين اليهود ، فهم بين موافق ورافض ، وآثرت قلة ممن دخل الإيمان قلوبهم ، أن تنزل إلى رسول الله ﷺ وتعلن إسلامها ، فأمنوا على أنفسهم وأموالهم وأهليهم .

وبعد أيام أعلن اليهود قبولهم لما عرض رسول الله ﷺ ، ثم أخذوا يخربون بيوتهم بأيديهم ، والمسلمون يكملون تدمير ما يتبقى ، ثم حمل اليهود ذريتهم ونساءهم وأموالهم وكل ما استطاعوا حمله ، على ستمائة بعير ، وتحرك موكبهم والنساء يجهرن بالغناء ، ويضربن الدفوف ، معلنات فرحتهم بالرحيل ، وما كانت هذه هى حقيقة مشاعرهم ، فما فعلوا ما فعلوا إلا كراهية لشماتة المسلمين فيهم ، إذا ما هم أظهروا حزنهم الذى يعتمل فى أعماقهم !!.

ـ ٤ ـ

جاء عامر بن الأشهل من أهل نجد إلى رسول الله ﷺ ، فعرض عليه رسول الله الإسلام ، لكنه لم يسلم ، وقال :

ـ يا محمد ، إنى أرى أمرك هذا حسنا شريفا، فلو أنك بعثت معى نفرا من أصحابك إلى قومى ، لرجوت أن يستجيبوا لك ويتبعوا دعوتك .

قال رسول الله ﷺ :

ـ إنى أخاف عليهم أهل نجد .

قال عامر :

ـ لا تخف عليهم ، فأنا جار لهم .

.. وكان هناك من الأنصار سبعون رجلا ، دائبين على تدارس القرآن حتى تفقهوا فيه ، فبعثهم الرسول ﷺ مع عامر ، وأعطاهم كتابا إلى عامر بن طفيل يدعوه فيه إلى الإسلام ، فساروا معه حتى إذا وردوا بئرا لبنى سليم ، عسكروا حولها ، وجعلوا على ركائبهم اثنين منهم ، وبعثوا بكتاب رسول الله ﷺ مع واحد منهم إلى ابن طفيل ، فلم يقرأ الكتاب ، بل وثب على الرسول فقتله ، ثم استصرخ قومه ليهبوا لقتال القراء ، ولكن قومه أبوا وقالوا له :

ـ لن نخذل عامر ونقاتل رجالا أعطاهم جواره .

فاتجه إلى قبائل بنى سليم يستعديهم ، فاستجابت له ، وحصروا القراء ، وأعملوا فيهم القتل ، حتى أفنوهم عن آخرهم ، فلما عاد حارسا الركائب ، وجدا أصحابهم قد قتلوا ، فقاتلا بنى سليم فى استماتة ، فقتل أحدهما ، وأسر الثانى ، فلما عرف بنو سليم أنه من قبيلة مضر التى بينهم وبينها عهد ، أطلقوا سراحه ، فعاد إلى المدينة ، وأخبر رسول الله ﷺ بما حدث ، فحزن على القراء حزنا شديدا ، ودعا الله تعالى أن يجعل ثأرهم فيمن قتلهم .

.. ودارت الأيام دورتها .

وحل موعد بدر الصفراء، وبدأ رسول الله ﷺ يعد العدة للخروج، وبعثت قريش بمن دفعت إليه الأموال ، وأغدقت عليه الهدايا ، وأجذلت له العطاء ، ليتسلل إلى صفوف المسلمين ، فيفت فى عضدهم حتى لا يخرجوا ، بعد أن سمعوا بتجهزهم للخروج للقائهم ، وأرجف المنافقون فى المدينة ، حتى دب الوهن والنكوص فى نفوس المسلمين ،

ولكن رسول الله ﷺ ، قال :

ـ والذى نفسى بيده ، لأخرجن ، وإن لم يخرج معى أحد .

وما إن سمعت كلمات الحبيب ﷺ فى المدينة ، حتى دفع الله بالحمية فى نفوس المسلمين ، فتدافعوا خارجين للقاء المشركين ، حتى عسكروا ببدر ، وشعارهم أمام المرجفين بقوة قريش :

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل .

وتنزل قول رب العالمين بسورة آل عمران ، مبديا رضاه عليهم :

الَّذينَ قَالَ لَهُمْ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٤)

.. وشملتهم نعم الوكيل ، فلم يلاقوا عدوا ، ولا خاضوا حربا ، فلقد سار أبو سفيان بن حرب بألفين من قريش ، وهو يشعر بتخاذل شديد ، وعدم رغبة فى قتال المسلمين ، فلقد جاء عامهم هذا عام جدب وقفر ، فالمراعى لا كلأ فيها ، والعير مرهقة ، والناس يشعرون بالهزيمة ، قبل أن يلاقوا عدوا أو يخوضون حربا ، وهو يظن نجاح رسله فى إثناء المسلمين عن الخروج للحرب ، وبهذا يكون قد حفظ ماء وجهه أمام العرب ، وأوفى بما عاهد عليه ، فلما عسكر الحند فى يومهم الأول ، جمع أصحابه ، وقال لهم :

ـ يا معشر قريش ، إن عامكم هذا عام جدب ، ولا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون اللبن ، وإنى راجع ، فارجعوا .

ووافقوه جميعا فيما قال ، وعاد بجيشه بعد يومين من خروجه ، فسخر منه من بقوا بمكة ، وقالوا عن جيشهم :

ـ إنه جيش السويق ، فلقد خرج أبو سفيان وجنوده ليشربوا السويق فى الجبل ، ثم عادوا !!.

وقال صفوان بن أمية لأبى سفيان :

ـ قد والله نهيتك يوم " أحد " ، أن تعد القوم ، وقد ارتقوا علينا الآن ، ورأونا قد خلفناهم ، وتسامع العرب فى كل مكان ، بأن قريشا قد أخلفت موعدها مع المسلمين ، وأن المسلمين قد وفوا وخرجوا لهم ، فازدادت بهذا هيبة الإسلام فى النفوس ، بالقدر الذى ضعفت به الثقة بقريش .

.. وأثارت كلمات صفوان الحمية فى القرشيين ، وجعلتهم يتعاهدون على خوض حرب جديدة ضد محمد ﷺ وصحبه ، مهما بذلوا من أجلها ، فجمعوا من بينهم المال لإعداد الجيش .

.. بينما مكث جيش المسلمين فى بدر ثمانية أيام، وكانت سوق بدر قائمة، فباعوا ما كان معهم من تمر ودقيق ، وربحوا فى تجارتهم ربحا عظيما، عوضهم به الله عما كانوا سيغنمونه من قريش.

ـ ٥ ـ

تفرق يهود بنى النضير بين الشام وخيبر ، وظل الحقد يأكل صدورهم ، والشيطان ينفث فى نفوسهم ، ويزين لهم قتال محمد ﷺ ، واجتمع رأيهم على أن ينفثوا عما فى صدورهم ، ووجههم شيطانهم إلى قريش يستنفرونها ، ويحرضونها ، واتجه وفد منهم بزعامة سيدهم سلام بن أبى الحقيق ، وحيى بن أخطب ، وانضم إليهم رأس النفاق والكفر أبو عامر الراهب ، وذهبوا إلى دار الندوة قائلين :

ـ يا سادة قريش لقد جئنا نحالفكم على عداوة محمد ، وسنكون معكم عليه حتى نستأصله .

فنهض أبو سفيان بن حرب كالشيطان مهللا ، يقول :

ـ أهلا بكم ومرحبا ، فأحب الناس إلينا من أعاننا على قتال محمد ومعاداته .

.. ثم أراد أن يتأكد من صدق يهود، فالعرب أعلم الناس بخداعهم ومكرهم، فقال:

ـ يا معشر اليهود ، أنتم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما نختلف فيه مع محمد ، فأخبرونا : أديننا خير ، أم دين محمد ؟.

فقام الفاسق يجأر بصوت الشيطان ، قائلا :

ـ اللهم أنتم أولى بالحق منه ، إنكم لتعظمون هذا البيت ، وتقومون على سقاية الحجيج ، وتنحرون البدن لله ، وتعبدون ما كان عليه آباؤكم ، ولم تأتوا ببدع جديدة، فدينكم خير من دينه !!.

ولمزيد من التأكد من صدقهم ، قال أبو سفيان :

ـ أفلا نخرج إلى ألهتنا فتتقربون إليها وتنحرون .

وصرخ الشيطان فى وفد اليهود ، محرضا وناصحا ، فقال :

ـ لا تنكصوا اليوم ، مالئوهم تظاهرا ونفاقا .

وذهبت هود إلى : آساف ونائلة ، وود وياغوث ونسرا ، ومناة .. تتظاهر ، فتنحنى ، وتسجد ، وتنحر ، وتتقرب زلفى ، وهم كارهون ، ولأن نفاقهم وكذبهم كان عظيما ، قال فيهم رب العالمين فى سورة النساء ، فاضحا مكرهم :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلا (٥١)

وتحت أستار الكعبة ، تعاقدت اليهود مع قريش على ألا يختلفا ، وأن تتوحد كلمتهم ولا يكون لهم هدف أو سعى ، إلا أن يستأصل محمد وصحبه !!.

.. واستمرت اليهود فى تحريضها لقبائل العرب ، إما بإغرائهم بالمال والسلاح ، أو بترهيبهم من زوال نفوذهم وضياع شأنهم ، إن قويت شوكة محمد ﷺ ، حتى اجتمعت كلمتهم على حرب رسول الله ﷺ .

.. وبلغ نبى الله ﷺ بما تعاهدت عليه قبائل العرب ، فجمع إليه أصحابه يستشيرهم ويستمع إلى ما يفتح الله به عليهم ، وانسحب سلمان الفارسى من بينهم ، واتجه إلى الخلاء ، وجلس فوق أحد التلال المحيطة بالمدينة ، يتأمل ويتدبر فى كيفية مواجهة هذا الموقف العصيب ، الذى وضعت فيه هود مدينة الإسلام ، فرأى عظيم صنع الله تعالى ، فالمدينة قد تسورت بالجبال من كل جانب ، بينما لم يترك للمرور إليها غير جزء بسيط منبسط ، وتهلل وجه سليمان فرحا بما أراه الله ، وبصره به ، ونزل مسرعا إلى المسجد ، حيث انعقد مجلس المشورة ، وقال :

ـ يا رسول الله ، نحفر خندقا فى الجزء المنبسط من مداخل المدينة ، كذاك الذى كان أهل فارس يتحصنون خلفه إذا ما وفد عليهم مغير .

.. ولم يقل سلمان :

ـ نحفر خندقا مثلما كان يفعل أهلى بفارس .

لأنه كان يعتز دائما بما هداه الله تعالى إليه ، ويقول :

ـ إنما سلمان ابن الإسلام .

.. وسلمان هو النموذج المثالى للإنسان حينما تدركه نعمة الإسلام ، فلقد كان ابنا وحيدا لأب ثرى ، من رجال الدين ببلاد فارس ، ولأن عقيدة أهله عبدة النار لم تتفق وفطرته ، ترك الثراء والنعيم ، وخرج يسعى مهاجرا فى سبيل الله ، يبحث حتى وجد قبولا لدى المخلصين من أهل المسيحية ، وحين قرأ عليه آخر القساوسة الذين عاشرهم ما جاء على لسان المسيح من بشارة بأحمد ، وقال له القسيس معقبا أنه قد قرب موعد ظهور النبى الخاتم ، وأنه سيظهر بطيبة ، ولم ينتظر سلمان ، وشق طريقه إلى حيث الملتقى ، ورضى أن يكون عبدا عند يهودى متغطرس بطيبة ، انتظارا لقدوم البشير ، وحين سمع بنزوله بقباء ، لم يستطع صبرا ، وأسرع خارجا من طيبة ليلقاه هناك ، ولما تكشفت له علامات النبوة التى دله عليها القسيس ، أعلن أمام رسول الله ﷺ إسلامه ، وقص على الحبيب قصته ، وسارع اخوة الإسلام يعينونه ، ويجمعون له المال ، ويساعدونه فى العمل ، حتى تحرر من رقه .

.. وحين سمع رسول الله ﷺ ، ما أشار به سلمان ، دعا له بالخير ، وسارع المسلمون يحفرون خندقا عميقا بطول الجانب المكشوف من المدينة ، كان الكل يعملون فى إخلاص ،

فمنذ إشراقة النهار ، وحتى مغرب الشمس ، وهم يحفرون ، ويرفعون التراب ليجعلوا منه ساترا وعائقا للعدو ، ورسول الله ﷺ مثله مثلهم ، يعمل ما يعملون ، ويربط حجرا على بطنه إذا ما اشتد عليه التعب والجوع ؛ ولم ينقطع عن العمل قادر، ولم يتخلف عنه فرد من أهل المدينة، إلا المنافقون واليهود .

ولما انتهوا من حفر الخندق ، وصل إبليس يتبختر فى عنجهية وخيلاء ، فيما يزيد على العشرة آلاف مشرك وكافر من أنصاره ، ترج حركتهم الأرض رجا ، وتثير عيرهم وخيلهم سحبا من الغبار تغطى عين الشمس ؛ لكنه هلع واستشاط غضبا ، حين رأى الساتر الترابى ومن أسفل منه الخندق عميقا ، يضرب فى باطن
الأرض ، ليكون سدا بين جنوده ، وجند الله ، وصاح أبو سفيان فى حنق :

ـ والله ما هذا من صنع العرب ، وإنها لمكيدة .

وكتب أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ ..

: "باسمك اللهم فإنى أحلف باللات والعزى ، لقد سرت إليك فى جمع ، وأنا أريد ألا أعود إليك أبدا حتى أستأصلك ، فرأيتك قد كرهت لقاءنا ، واعتصمت بالخندق ، ولك منى يوم كيوم أحد تبقر فيه النساء ."

وبعث إليه رسول الله ﷺ بالرد يقول ..

: " أما بعد ، فقد أتانى كتابك ، وقديما غرك بالله تعالى الغرور ، وأما ما ذكرت من أنك سرت إلينا ، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا ، فذلك أمر يحول الله تعالى بينك وبينه ، ويجعل لنا العاقبة ، وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإساف ونائلة وهبل ، حتى أذكرك ذلك ."

.. وأراد خالد بن الوليد أن يكرر فعلته ، ويلتف فيجتاز الخندق ، من جانبه الضيق ، لعل المسلمين يكونون عنه غفلا ، فيأخذهم من خلفهم على حين غرة ، ويعجل بإنهاء الحرب ، كما فعل يوم " أحد " ؛ فصحب معه مجموعة من الفرسان ، واندفعوا محاولين اجتيازه ، ولكن ليس ما يدرك مرة يتكرر فى كل مرة ، فلقد رماهم المدافعون عن المدينة بالسهام والحجارة من مرتقاهم بالجبال، وجعلوهم يؤثرون النكوص على أعقابهم فاشلين!.

.. وأعمل إبليس فكره ، فوجد أنه لكى يتحقق له النصر فى أسرع وقت ، لابد من إيجاد حليف داخل المدينة ، يطعن المسلمين من خلافهم ، فيشغلهم عن الخندق ، بما يتيح له ولأنصاره العبور ، ولم يكن هناك غير يهود بنى قريظة ، وأعلن حيى بن أخطب أنه كفيل بهذه المهمة ، وتسلل فى ظلام الليل إلى حصن كعب بن أسد القرظى ، وحين رآه كعب ، أوصد أبواب الحصن فى وجهه ، فراح حيي يتوسل إليه ليفتح ، وكعب يرفض ، فأخذ حيى يناوره ويحاوره ، حتى فتح له وأدخله ، فقال له حيى معاتبا :

ـ ويحك يا كعب ، تقفل بابك فى وجهى ، وقد جئتك بعز الدهر ، جئتك بقريش والعرب على قادتها وسادتها ، وعاهدونى على ألا يبرحوا ، حتى نستأصل محمدا ومن معه .

قال كعب :

ـ ويحك يا حيى ، إنك امرؤ مشئوم ، وقد جئتنى والله بذل الدهر ، وإنى قد عاهدت محمدا ، فلست بناقض ما بينى وبينه ، فلم أر منه إلا صدقا ووفاء .

.. وأخذ حيى يزين الكلمات ، ويمنى بالعزة والنصر ، حتى لان كعب ، ووافق على أن ينقض عهده ، وأعلن أنه برئ مما بينه وبين رسول الله ، ولكنه اشترط أن يأخذ خمسين رهينة من سادات قريش ، حتى لا تتركه قريش فريسة للمسلمين وترحل إلى ديارها ، إذا ما تراءى لها أن تنكص عن حربها محمدا .

وسمع عمر بن الخطاب • بما حدث ، فتكلم به عند رسول اللهﷺ ، فبعث بمن يستوثق مما يشاع ، فعاد الرسل يؤكدون أن يهود بنى قريظة قد أعلنوهم بنقض عهدهم مع رسول الله • ، فبشر نبى الله المسلمين ، قائلا :

ـ أبشروا يا معشر المؤمنين بنصر الله تعالى وعونه ، إنى لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق، وأخذ المفتاح، وليهلكن كسرى وقيصر ، ولتنفقن أموالهم فى سبيل الله .

.. ورغم بشارة البشير ﷺ ، توجس المسلمون من هذا البلاء ، الذى زاد موقفهم سوءا ، واشتد بهم الكرب وزلزلوا زلزالا ، وأرجف المنافقون قائلين :

ـ أيبشرنا محمد بملك كسرى وقيصر ، وبيوتنا أصبحت عورة ، وبات الواحد منا لا يأمن على نفسه إذا ما طلب الخلاء .

ثم أخذ المنافقون يوسوسون بين الناس أن عودوا إلى دياركم وانكصوا عهدكم مع محمد ، ولما امتنع المؤمنون عليهم ، بدءوا يفتعلون الحجج ، يستأذنون رسول الله ﷺ فى العودة إلى دورهم لأنها عورة ، ونبى الله ﷺ يأذن لهم ، ولا يمنعهم من ترك موقع القتال ، فلقد كان يعرف أنه لا خير فيهم ، ووصل عددهم إلى ثلاثمائة ، وقد نزل فيهم قول الله تعالى ، من سورة الأحزاب :

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا (١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلا يَسِيراً (١٤) وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنْ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذًا لا تُمَتَّعُونَ إِلا قَلِيلا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلا قَلِيلا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (١٩)

.. أمر رسول الله ﷺ بحصار بنى قريظة ، وسير إليهم من المسلمين ما يزيد على مائتى رجل ، وحين هموا بالغدر ، وتجهزوا بالسلاح للإغارة على المدينة ليلا، فوجئوا بقوات الحصار تحيط بهم ، فزلزلهم الله زلزلة أوقعت الرعب فى قلوبهم ، فنكصوا عائدين يرعدون إلى حصونهم ، وهم يلعنون حيي لأنه هو الذى اشار عليهم بنقض عهدهم مع رسول الله ﷺ ، خاصة وقد رفض القرشيون مطلبهم بتسليم الرهائن ، بعدما سمعوا أن اليهود سيسلمون رهائنهم إلى محمد ﷺ إذا ما هزموا ، وقابلوا عرضهم بعرض مماثل ، وطلبوا خمسين رهينة من سادة اليهود ، وبدت أنياب الغدر ظاهرة بين طرفى التعاهد ، فانفض العقد قبل أن يبرم ، وباءت اليهود بالعار والحصار .

وتمر الأيام تلو الأيام ، وجنود المشركين لا ينفكون عن مناوشة المسلمين ، ولما لم يجدوا لسعيهم نتيجة ، ولما ضاقت بهم السبل ، وطال بهم البقاء فى الخلاء ، خرج سادتهم فاقتحموا بخيلهم جزءا ضيقا من الخندق ، ولكن المسلمين ردوهم بعنف ، فوقف عمرو بن عبد ود العامرى ، يجأر طالبا النزال ، وكان عظيم الجسم شرسا فى قتاله ، ما نازل أحدا إلا صرعه ، وقد صحب معه " الزبير بن عبد الله " و" هبيرة بن أبى وهب " جناحين ، فطلب على بن أبى طالب ﷺ أن يأذن له رسول الله ﷺ بقتاله ، فعممه وأعطاه سيفه ، ودعا له قائلا :

ـ اللهم أعنه عليه .

وخرج " على بن أبى طالب " ﷺ ومن حوله جناحاه : " الزبير بن العوام " ، و" عمر بن الخطاب " وتبارز الخصمان ، ونصر الله عليا ، وقتل المتعاظم بعد أن استتابه فلم يتب ، وهجم عمر والزبير على جناحيه فأصاباهما ، فتراجعا منهزمين ، مخلفين وراءهما جثة عمرو ، وارتفع صوت المسلمين من فوق ذرى الجبال بالتكبير :

ـ الله أكبر .. الله أكبر ..

فأوبت معه السماوات والأرض والطير :

ـ الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر ..

وازداد شؤم المشركين ، وأرسلوا يفتدون جثة عمرو بعشرة آلاف درهم ، ولكن رسول الله ﷺ ردها إليهم ، ورفض الدية ، قائلا :

ـ لسنا نمنعكم أن تدفنوه ، ولا نأكل ثمن الموتى .

.. ويزداد مر الأيام كآبة على المشركين ، وهم قعود فى صحراء جرداء ، منذ ما يقرب من الشهر ، لا يستطيعون تقدما ولا حربا ، ويتناقص طعامهم ويشح ، فلم يخطر لهم وهم فى كل ذاك الجمع ، وكل تلك القوة والمنعة ، أنهم سيقيمون أكثر من ليلة أو ليلتين بالعراء قبل أن يكونوا فى بيوت المدينة يستدفئون ، ويستحلون حرماتها ، ويسبون نساءها ، وينتهبون أموال المسلمين فيها ؛ ولهذا لم يحملوا معهم من الطعام إلا ما يكفى رحلة المسير من مكة إلى المدينة ، ولقد أمسى حال دوابهم أسوأ من حال رجالهم ، فلقد حصد المسلمون زرعهم قبل أن يصلوا إلى مشارف الديار ، فجاءوا الأرض وهى جدباء ، بلا زرع ولا ماء ، وحين أراد " حيى بن أخطب " أن يسرب إليهم قافلة من عشرة جمال ، محملة بالشعير من بيوت يهود بنى قريظة ، أوقفها الله ومنعها عنهم ، بأن أعثر بها جماعة من المسلمين ، خرجت تشيع جنازة مسلم مات ، فأخذت العير بما حملت ، بينما فر حيى يجر أذيال الخيبة ، ويلعنه المسلمون والكافرون ، وتبدل حال المسلمين ، فطعموا ، وحمدوا الله كثيرا على ما رزقهم .

وكان رسول الله ﷺ لايكف عن الدعاء والتوسل إلى الله تعالى ، قائلا :

ـ اللهم فادفع عنا شرهم ، وانصرنا عليهم ، واغلبهم ، فلا يغلبهم أحد غيرك . اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم .

ولما سأله الناس قائلين :

ـ يا رسول الله ، هل من شىء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر ؟.

قال نبى الله ﷺ :

ـ نعم ، قولوا : اللهم أستر عوراتنا ، وآمن روعاتنا .

.. وحين أظلمت السماء ، قام فى المسلمين فقال ، ووجهه مشرق بالبشر :

ـ يا أيها الناس ، لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإن لقيتم العدو فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف .

.. واشتد الظلام ، حتى كان الرجل لا يكاد يرى بنانه ، ثم أرسل الله بالريح ، فكانت على المشركين ريحا صرصرا عاتية ، تتفجر من خلالها الصواعق والبرد ، فاقتلعت خيامهم ، وأرعبت قلوب رجالهم ، وجعلت كل أمانيهم أن يعودوا من حيث جاءوا !!.

وسأل رسول الله ﷺ من حوله قائلا :

ـ أما رجل يأتينى بخبر القوم يكون معى يوم القيامة ؟.

وكان حوله من المسلمين ثلاثمائة رجل ، فلم يجبه أحد ، خوفا من ذاك الهول الذى أنزله الله على الجانب المقابل من الخندق ، فتخير ﷺ ، حذيفة رضي الله عنه وكان قد جلس يقرقر من شدة البرد ، وقال له :

ـ يا حذيفة ، قم أنت .

قال حذيفة رضي الله عنه وأسنانه تصطك :

ـ يا رسول الله ، ما منعنى أن أقوم إلا شدة البرد ، مرنى بما شئت .

قال رسول الله ﷺ :

ـ ما بك بإذن الله من برد ولا حر ، اذهب حتى تدخل بين ظهر القوم ، فأت قريشا فقل: يا معشر قريش ، إنما يريد الناس إذا كان غدا أن يقولوا : أين قريش ، أين قادة الناس أين رؤوس الناس ؟!.. فيقدموكم ، فتصلوا القتال ، فيكون القتل فيكم ؛ ثم ائت بنى كنانة ، فقل : يا معشر بنى كنانة ، إنما يريد الناس إذا كان غدا أن يقولوا : أين بنى كنانة ، أين رماة الخندق ، فيقدموكم ، فتصيبوا القتال ،

فيكون القتل فيكم ؛ ثم ائت قيسا فقل : يا معشر قيس ، إنما يريد الناس إذا كان غدا أن يقولوا : أين قيس ، أين أحلاس الخيل ، أين الفرسان ، فيقدموكم ، فتصلوا القتال ، فيكون فيكم القتل ؟..

.. وذهب حذيفة فوجد القوم فى شر حال ، والريح تحمل عليهم الحجارة وترميهم بها ، فقال ما قاله له رسول الله ﷺ ، فتنادوا بالرحيل ، حتى ان أبا سفيان ركب جمله متعجلا وهو فى عقاله ، فما استطاع النهوض إلا بعد أن فكوا عقاله .

يقول حذيفة ﷺ :

- عدت إلى قومى ، وقد رجعت أقرقر من البرد ، فإذا بفارسين ملثمين ، يعترضان طريقى ويقولان لى :

- أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم بالجنود والريح .

فلما وصلت مكان رسول الله ﷺ وجدته يصلى ، فلما انتهى اقتربت منه فغطانى بفضل بردته ، فأخبرته بما رأيت وأخبرت ، فقال رسول الله ﷺ :

- الآن نغزوهم ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم ، لا إله إلا الله وحده ، أعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شئ بعده .

وسجد رسول الله ﷺ لله شكرا على نصره للمؤمنين ، وسجدت خلفه ، ثم اعتدل فحمد الله كثيرا ، ونزل قول رب العالمين ، من سورة الأحزاب :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩)

.. وصرف الله الأحزاب عن المدينة وهم فى شر حال، وأذرى منظر، وانصرف جند الله إلى بيوتهم مهللين مكبرين .

- ٦ -

كان الوقت قبل الآذان لصلاة العصر بقليل ، ورسول الله ﷺ فى بيته ، لم ينته بعد من الاغتسال من تراب الطريق ، حين جاءه جبريل بأمر ربه :

- لا تنزع عنك لباس الحرب ، وانهض وسر بجندك إلى يهود بنى قريظة الذين خانوا عهد الله ورسوله .

وبعث رسول الله ﷺ مناديا ينادى فى الناس ، قائلا :

- يا خيل الله اركبى .

.. وأمر بلال فنادى :

- من كان سامعا فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة .

.. وأسرع الناس فمن كان منهم قد دخل داره خرج ، ومنهم من كان بالطريق فتحول ، واجتمعوا محاصرين لقلاع اليهود ، فاستقبلوهم من فوق أسوار حصونهم يسبونهم ويسبون رسول الله ﷺ بأقذع الألفاظ ، وراحوا يرمونهم بالنبل والحجارة ، والمسلمون يردون عليهم الرمى بمثله ، فلما وصل رسول الله ﷺ ، حاول على • أن ينزل رسول الله منزلا يبعد عن ديارهم ، حتى لا يسمع شتمهم ، ووسخ كلامهم ، ولكن نبى الله ﷺ قال له :

- يا على ، أظنك سمعت منهم لى أذى ؟.

قال على :

- نعم يا رسول الله .

قال ﷺ :

- لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا .

.. وسار رسول الله ﷺ إليهم ، وتقدم أسيد بن حضير ﷺ يسبقه ، جاعلا من جسده درعا يدرأ عن الحبيب أى أذى قد يريده به اليهود ، ولما اقترب من مدى يسمعون فيه صوته ، رفع أسيد صوته قائلا :

- يا أعداء الله ، لا نبرح عن حصنكم حتى تموتوا جوعا ، إنما أنتم بمنزلة ثعلب فى جحر .

فقال اليهود :

ـ يا بن الحضير ، نحن مواليك دون الخزرج .

قال أسيد ﷺ :

ـ لا عهد بينى وبينكم ، ولا إلا ، ولا ذمة .

وتقدم رسول الله ﷺ ، فنادى كبارهم ، ثم قال :

ـ هل أخزاكم الله ، أتشتمونني ؟.

فجعلوا يحلفون قائلين :

ـ ما فعلنا .

.. ثم قالوا متوددين :

ـ يا أبا القاسم ، ما كنت فاحشا .

وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه ، وأحاط الحصن بالرماة ، ثم تعاقب الرماة ، فوج من بعد فوج ، يرمون اليهود بالنبل ، وشل الخوف أيدى من خانوا الله ، وتنزل بهم الرعب فلم يعودوا يدرون ماذا هم فاعلون ، وتوقفوا عن رمى المسلمين ، ونادوا قائلين :

ـ دعونا نكلمكم .

قال رسول الله ﷺ :

ـ نعم .

فبعثوا رسولا منهم ، فتحدث إلى رسول الله ﷺ فى أن ينزلوا على ما نزل عليه يهود بنى النضير ، فرفض رسول الله .

فقال رسول اليهود :

ـ تحقن دماءنا ، وتسلم لنا النساء والذرية ، ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل .

.. فرفض رسول الله ﷺ ، إلا أن ينزلوا على حكمه .

.. ولما عاد رسولهم إلى الحصن ، وقف فيهم كبيرهم سعد بن أسد فقال :

ـ يا معشر بنى قريظة ، والله قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإنى عارض عليكم أمورا ثلاثا ، فخذوا منها ما شئتم .

قالوا :

ـ ما هى ؟.

قال سعد :

ـ نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فو الله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل ، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون به على دمائكم وأموالكم ونسائكم ، والله إنكم لتعلمون أن محمدا نبى ، وما منعنا من الدخول فى دينه إلا الحسد للعرب ، وأنه لم يكن من بنى إسرائيل ؛ ولقد كنت كارها لنقض العهد والعقد ..

.. وتوقف عن الكلام ، وأشار حيث جلس حيى بن أخطب ، ثم قال :

ـ ولكن البلاء والشؤم من هذا الجالس ، حين قدم عليكم ؛ أتذكرون قول حبرنا أبى جواس حين قدم علينا يقول : لقد تركت الخمر والخمير والتمير ، ولجأت إلى السقاء والتمر والشعير ، وسألتموه : وما ذاك ، فقال لكم : إنه يخرج بهذه القرية نبى ، فإن يخرج وأنا حى أتبعه وأنصره ، وإن خرج بعدى ، فإياكم أن تخدعوا عنه ، واتبعوه ، فكونوا أنصاره وأولياءه ، وقد آمنتم بالكتابين ، كليهما : الأول والآخر ؛ وأقرئوه منى السلام ، وأخبروه أنى مصدق به .

.. وتوقف كعب قليلا عن الكلام ، ثم قال :

ـ فتعالوا نحكم العقل ، ونتبع وصية حبرنا ، فنتابعه ونصدقه .

.. وهاجت اليهود ، وتصايحوا :

ـ لا نفارق حكم التوراة أبدا ، ولا نستبدل به غيره .

قال كعب :

ـ فإذا أبيتم هـذا ، فهلم نقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمـد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف ، لم نترك وراءنا ثقلا نخاف عليه ، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فـإن نظهـر فلعمـرى لنجـدن النسـاء والأبناء .

.. وتصايح الحاضرون مستنكرين مقولته ، قائلين :

ـ أنقتل هؤلاء المساكين ؟!.. فما خير فى العيش من بعدهم .

قال كعب :

ـ فإن أبيتم هذا ، فإن الليلة ليلة سبت ، وأنه عسى وأن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيهـا ، فـانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة .

قالوا مستنكرين :

ـ أنفسد سبتنا ، ونحدث فيه ؟!.. ولم يحدث من قبلنا إلا من قد علمت فأصابه ما أصابه من المسخ .

قال كعب فى غضب :

ـ ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ، ليلة واحدة من الدهر حازما .

.. وقال نفر منهم :

ـ يا معشر بنى قريظة ، والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأن صفته عندنا ، وحـدثنا بهـا علماؤنـا ، وهذا حيى بن أخطب أولهم .

قالوا :

ـ لا نفارق التوراة .

.. ولما رأى هؤلاء النفر ممن شرح الله صدورهم للإسلام ، تسللوا ليلا إلى رسول الله ﷺ وأعلنوا إسلامهم ، فأمنوا على دمائهم وأموالهم وأهليهم .

وتمر بهم الليالى والأيام ، ولا يقر لهم قرار ، فهم فى شقاق دائم ، فلا هم يريـدون القتـال ، كـما وأنهـم لا يريدون دفع الجزية ، لأنهم فيما يرون أنفسهم ، أعظم شأنا من العرب ، وبعد خمسة عشر يومـا تنـادوا فيما بينهم أن يخرجوا إلى المسلمين بعد أن كادت الذرية تهلك من قلة الطعام والماء ، وقبل رســول اللـه ﷺ أن يحكم فيهم سعد ابن معاذ ، وقال سعد ﷺ :

ـ يقتل مقاتلوهم ، وتسبى نساؤهم وذريتهم ، وتقسم أموالهم .

قال رسول الله ﷺ لسعد :

ـ لقد حكمت فيهم بحكم الله .

وأنزل الله تعالى ، قوله بسورة الأحزاب :

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)

ـ ٧ ـ

.. أصاب انتصار المسلمين على الأحزاب العرب بالتوتر ، فلما كـان مـا أنـزل بيهـود بنـى قريظـة ، اشـتد الخوف والغضب بمن يحيطون بالمدينة من أقوام ، ومنهم الحارث بن ضرار ، سيد بنـى المصـطلق ، الـذى عزم على حرب المسلمين ، ودعا قومه والقبائل من حوله للتجمع للحرب ، ولما سـمع رسـول اللـه ﷺ بمـا عزم عليه ، بعث بمن تحرى الحقيقة ، ثم جلس إلى أصحابه وأبلغهم بما عرف ، فأجمعوا على الخـروج إلى ديار بنى المصطلق .

وزحف من المدينة جيش كبير انضم إليه جمع من المنافقين بقيادة زعيمهم عبد الله بن أبى بن سلول ، طامعين فى مشاركة المسلمين فيما سيغنمون ، وحين رأت القبائل التى استنفرها الحارث بن ضرار ضخامة جيش المسلمين تفرقوا من حوله ، وتركوه وقومه ، فأرسل رسول الله ﷺ يدعوهم للإسلام بدلا من الحرب فأبوا ، ودار القتال، وانتصر جند الله نصرا عظيما ، وغنموا أموال بنى المصطلق ودوابهم ، وأسروا رجالهم، وسبوا نساءهم .

وتزوج نبى الله ﷺ من ابنة سيد بنى المصطلق ، لعل الله جاعل فى مصاهرتهم خيرا ، ولما سمع المسلمون بذلك أطلقوا أسراهم وقالوا :

ـ أصهار رسول ﷺ .

وتسابق من أطلقوا من الأسر ، إلى الدخول فى سماحة الإسلام ، واهتاج إبليس ، واشتد غضبه مما يرى من أنصاره القدامى ، فأثار الفتنة بين شابين أحدهم من موالى المهاجرين ، والثانى من موالى الأنصار فاختصما ، فنادى من هو من

الأنصار قائلا :

ـ يا للأنصار .

ونادى من هو من المهاجرين :

ـ يا للمهاجرين .

وتسابق كل فريق يلبى الدعوة ، وكاد الشيطان أن يصيب المسلمين بالفتنة ، ولكن رسول الله ﷺ خرج عليهم بكلمات أماتت نفث الشيطان ، قال ﷺ :

ـ ما بال دعوى الجاهلية ، من دعا بدعوى الجاهلية كان محشى جهنم .

قال من تابوا وثابوا إلى الله :

ـ يا رسول الله ، وإن صام ، وإن صلى ، وإن زعم أنه مسلم ؟!.

قال نبى الله ﷺ :

ـ وإن صام ، وإن صلى ، وإن زعم أنه مسلم .

وانصرف المتخاصمون بعد أن تصالحوا ، وكل منهم يشعر بضآلة شأنه ، وأسفه على نفسه لقلة إيمانه ، ولاستجابته لنزغ الشيطان ، وكل منهم يقول :

ـ ليتنى استعذت بالله العلى القدير من الشيطان الرجيم .

.. ولكن هل يكف الشيطان يده ولسانه ، عن بث السم فى النفوس ؟

لقد تلبس نصيره عبد الله بن سلول ، فاجتمع إلى بعض من قومه ، وجيش المسلمين قد عسكر للراحة ، وهو فى طريق عودته إلى المدينة ، وقال لهم :

ـ والله ما رأيت كاليوم مذلة ، نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، وأنكروا ملتنا ، والله ما حالنا معشر الأنصار مع جلابيب قريش ، إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

وكان بين من تكلم إليهم زيد بن أرقم ، فحمل ما سمع إلى رسول الله ﷺ ، وواجه رسول الله ﷺ عبد الله بما قال ، فأنكر أن يقول ما قال ، وهو قد قال !!.

.. ثم أذن المؤذن فى الناس ليسيروا ، وقد اشتد الحر ، وعجب صحابة رسول الله ﷺ ، وعلموا أنه لا يكون إلا لحكمة أرادها نبى الله ﷺ ، فذهب إليه من الأنصار أسيد بن حضير ، متسائلا ، قال :

ـ يا رسول الله ، لقد رحلت فى ساعة ما كنت ترحل فى مثلها ؟!!.

فأخبره الحبيب بما قال صاحبهم ، فقال أسيد :

ـ فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الأذل ، وأنت الأعز .

وسمع عبد الله بن عبد الله بن سلول ، بأن هناك من المسلمين من أحل دم أبيه ، بعد أن نزل فيه قرآن يؤكد ما نقل عنه من قول الكفر ، فقال الله تعالى :

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُنْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٧٤) سورة التوبة

فذهب عبد الله إلى رسول الله ﷺ ، وجلس بين يديه ، وقال :

ـ يا رسول الله ، إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن سلول ، لما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا ، فامرنى أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالده منى ، وإنى لأخشىـ إن غيرى يقتله ، فانظر إلى قاتله يمشى فى الناس فأقتله ، فأكون قتلت مسلما بمنافق فأدخل النار .

قال الحبيب ﷺ :

ـ لا نقتله ، بل نترفق به ، ونحسن صحبته ما بقى معنا ..

.. وإن سكنت نار الفتنة ، فإن الشيطان متربص ينفخ فى جذوتها لتشتعل من جديد .

ـ ٨ ـ

عن عبيد الله بن عتبة بن مسعود عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها زوج رسول الله ﷺ ، أنها قالت :

ـ كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين زوجاته ، فأيهما خرج سهمها ، خرج بها رسول الله ﷺ ، فأقرع بيننا ، فخرج سهمى ، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما أنزل الحجاب ، فكنت أحمل فى هودجى ، وأنزل فيه، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته لبنى المصطلق ، آذنوا بالرحيل .

وذات ليلة مشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى ، أقبلت إلى رحلى ، فلمست صدرى ، فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى ، فاحتملوا هودجى فحملوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه ، وهم يحسبون أنى فيه ـ وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يغشهن اللحم ـ فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه ورفعوه ، فبعثوا الجمل فساروا ؛ ووجدت عقدى بعدما سار الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى الذى كنت به ، وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلى ، فبينا أنا جالسة فى مكانى غلبتنى عينى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى من وراء الجيش ، يجمع ما نسيه الناس عند رحيلهم ، فرأى سواد إنسان نائم ، فرفع صوته ، وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ؛ فاستيقظت على استرجاعه ، فخمرت وجهى بجلبابى ، ووالله ما تكلمنا بكلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه ، وهوى حتى أناخ راحلته ، فوطئ على يدها ، فقمت فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين فى نحر الظهيرة وهم نزول ، فهلك من هلك ، وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبى ابن سلول .

فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمت شهرا ، والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا أشعر بشىء من ذلك ، ويريبنى أننى لا أجد من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل على رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول :

ـ كيف تيكم ؟.

.. ثم ينصرف ، فذلك كان يريبنى ولا أشعر بالشر حتى نقهت ، فخرجت مع أم مسطح وأمها خالة أبى ، فأخبرتنى بقول أهل الإفك ، فازددت مرضا على مرضى ، فلما رجعت إلى بيتى ، دخل على رسول الله ﷺ فسلم ، ثم قال :

ـ كيف تبكم ؟.

فقلت له :

ـ هل تأذن لى أن آتى أبوى ؟.
فأذن لى رسول الله ﷺ فقلت لأمى :
ـ يا أماه ، ماذا يتحدث الناس ؟!.
قالت :
ـ يا بنية ، هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها .
فقلت :
ـ سبحان الله ، أوقد تحدث الناس بذلك ؟.
فبكيت تلك الليلة حتى أصبح لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى ، ودعا رسول الله ﷺ : على بن أبى طالب وأسامة بن زيد ، يسألهما ، ويستشيرهما فى فراق أهله ، أما أسامة فأشار على رسول الله الله ﷺ بما يعلمه من براءة أهله، وأما على فقال : يا رسول الله ، لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك .
فدعا رسول الله ﷺ بربرة وقال :
ـ أى بربرة ، هل رأيت شيئا يريبك ؟.
ـ قالت له بربرة :
ـ والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا قط يسوء ، غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله .
فقام رسول الله ﷺ من يومه ، فاستعذر من عبد الله بن أبى سلول ، وهو على المنبر ، فقال : " يا معشر المسلمين ، من يعذرنى من رجل قد بلغنى عنه أذاه فى أهلى ، والله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه خيرا ، ولا يدخل على أهلى إلا معى ."
فقام سعد بن معاذ ، فقال :
ـ أنا يا رسول الله أعذرك ، فإن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك .
فقام سعد بن عبادة ، فقال له :
ـ كذبت ، لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل .
وثار الحيان من الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت ؛ فبكيت يومى ذلك كله لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، وأصبح أبواى عندى وقد بكيت ليلتين ويوما ، حتى لأظن أن البكاء فالق كبدى .
فبينما أبواى جالسان عندى وأنا أبكى ، فاستأذنت على امرأة من الأنصار فاذنت لها ، فجلست تبكى معى ، فبينا نحن على ذلك ، دخل رسول الله ﷺ علينا فسلم ثم جلس ، ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل ، وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنى بشىء ، فتشهد رسول الله ﷺ ، ثم قال : " يا عائشة ، إنه بلغنى عنك كذا .. وكذا .. فإن كنت بريئة ، فسيبرئك الله ، وإن كنت لممت بذنب ، فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف ، ثم تاب ، تاب الله عليه .
فقلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى :
ـ أجب رسول الله ﷺ عنى فيما قال .
فقال أبى :
ـ والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ .
فقلت لأمى :
ـ أجيبى رسول الله ﷺ عنى فيما قال .
قالت أمى :

ـ والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ .
قلت :
ـ لقد علمت أنكم قد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم إنى بريئة ، لا تصدقونى ، ولئن اعترفت لكم بأمر ، الله يعلم أنى منه بريئة ، لتصدقنى ، فو الله لا أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف حين قال : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .
.. ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، والله يعلم أنى حينئذ بريئة ، وأن الله مبرئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحيا يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها ، فو الله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه من العرق مثل الجمان وهو فى يوم شات ، ثم سرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها ، أن قال : يا عائشة أما الله قد برأك .
.. فقد نزل قول الله تعالى فى سورة النور :
إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١)
الفصل السادس عشر :

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ **سورة الفتح**

بشائر الفتح

ـ ١ ـ

.. أرى رسول الله ﷺ فى نومه، أنه دخل مكة هو وأصحابه، آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين، وأنه ﷺ دخل البيت واستلم مفتاحه، ووقف بعرفات، وأخبر رسول الله ﷺ أصحابه بما رأى، فاستبشروا خيرا، وقالوا فيما بينهم :
ـ إنما هى مكة تفتح لنا .
اليوم : الاثنين، الأول من الشهر .
الشهر : ذى القعدة .
السنة : السادسة من الهجرة .
أحرم رسول الله ﷺ من مسجده، وكان قد دعا المسلمين للخروج للعمرة، واستجاب له جمع كبير ممن دعاهم، وخرجوا من المدينة، وقد احرم أكثرهم متجهين إلى بيت الله الحرام بمكة، وقد صحبوا معهم الهدى من إبل وخراف، لا يحملون من أدوات الحرب إلا السيوف فى أغمادها .
ولما بلغ المسلمون الجحفة، خطب رسول الله ﷺ فيهم، وبعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه، قال مما قال :
ـ إنى كائن لكم فرطا، وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلوا أبدا، كتاب الله وسنة نبيه .
وسمعت قريش بخروج النبى ﷺ وصحبه إليهم، وهاجت شياطينهم، فأهاجت فيهم الشر، فتنادوا، وتعاهدوا، وأقسموا على ألا يدخل عليهم محمد ﷺ

قريتهم فى عامهم هـذا، وتجهزوا لحربه، وخرجت فرسانهم ومشاتهم، ومعهم نفر غير قليل من حلفـائهم لملاقاة المعتمرين خارج مكة .

وعلم رسول الله ﷺ بما انتوت قريش، فدعا أصحابه، وقال لهم :

ـ يا معشر المسلمين، أشيروا على، أترون أن نميل إلى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟.

قال أبو بكر الصديق ﷺ :

ـ الله ورسوله أعلم، يا رسول الله، إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ونرى أن نمضى لوجهتنا، فمن صدنا عن البيت قاتلناه .

وأيده المسلمون فيما رأى، فسأل رسول الله ﷺ عن أعلم الرجال بمسالك الجبال ليتقدمهم، فقال بريدة بن الحصيب :

ـ أنا يا رسول الله، علم بها .

فقال ﷺ، وقد بدأت الشمس تميل غاربة :

ـ فسيروا على اسم الله .

.. وسار المسلمون، متحاشين المكان الذى عسكر به فرسان المشركين، بقيادة خالد بن الوليد، وأنار الله لهم ظلمة الليل، حتى لا يشق عليهم السير بين مخانق الجبال، وبعد أن صلى بهم نبى الله ﷺ الصبح، بشرهم بأن الله تعالى قد غفر لهم جميعا ما تقدم من ذنوبهم .

.. ثم عسكروا بالحديبية .

وجاء من تهامة رجال من خزاعة، وبينهم وبين رسول الله ﷺ عهد وميثاق، ومنهم من اسلم ومنهم من وادع، وأبلغوا رسول الله ﷺ أنهم قد قدموا من مكة، وأن قريشا قد جمعت أمرها، وخرجت فى جند كثير، عازمة على ألا تدع رسول الله وصحبه يدخلون مكة، إلا بعد أن يبيدوا كبيرهم وصغيرهم، فأخبرهم رسول الله ﷺ أنه لم يأت لحرب قريش، إنما جاء للطواف بالبيت، ولكن إذا صدوه عنه قاتلهم .

.. وذهب وفد خزاعة إلى نادى قريش، وقالوا لهم :

ـ إنكم لتعجلون على محمد رسول الله ، إنه لم يأت لقتال، إنما جاء معتمرا .

.. ولم يسلم سادة قريش بصدق ما قيل، لمعرفتهم لما بين خزاعة وبين رسول الله ﷺ من ود، وبعثوا بعروة بن مسعود الثقفى ليتحرى ، فجاء رسول الله وهو بين أصحابه، فقال :

ـ يا محمد، تركت كعب بن لؤى، وعامر بن لؤى، على أعداد كمياه الحديبية، معهم أقوى المقاتلين، قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم، قد لبسوا جلود النمور، وهم يقسمون بالله لا يخلون بينك وبين البيت حتى تجتاحهم، وإنما أنت ومن قاتلهم بين أحد أمرين، أن تجتاح قومك، ولم يسمع برجل اجتاح قومه وأهله قبلك، أو بين أن يخذلك من ترى معك، وإنى والله لا أرى معك وجوها، وإنى لا أرى إلا أخلاطا من الناس، لا أعرف وجوههم ولا أنسابهم، وخليقا أن يفروا ويدعوك فتؤخذ أسيرا ..

وأثارت كلمات عروة غضب أبى بكر الصديق ﷺ فسبه سبة عظيمة، ثم قال له:

ـ أنحن نخذله أو نفر عنه !!.

.. بهت عروة من قسوة الرد، وتقافزت شياطين الغضب متحفزة للنزال، لكنه سكت ولم يعقب، بعد أن عرف أن المتكلم كان أبا بكر، فلقد سبقت للصديق مكرمة عليه تمنعه من أن يبذأ فى حقه .

انصرف عروة من عند رسول الله ﷺ، بعد أن أعاد عليه ما قاله من قبل، فلما لقى سادة قريش، وقف فيهم، وقال :

ـ يا قوم، إنى وفدت إلى الملوك : كسرى وقيصر والنجاشى، وإنى والله ما رأيت ملكا قط أطوع فيما بين ظهرانيه من محمد فى أصحابه، والله ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا، وهو ليس بملك، فهو إذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه أيهم يظفر بشىء منه، وإذا تكلم خفضوا صوتهم عنده،

وما يحدقون النظر إليه تعظيما له، ولا يتكلم رجل منهم حتى يستأذن، فإن هو أذن له..تكلم، وإن لم يأذن له سكت ؛ وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

.. وضرب الشيطان على أفئدتهم، فلم يقبلوا نصيحة عروة، فانصرف غاضبا إلى دياره بالطائف، بينما أجمع الرافضون على إرسال من يتحسس أخبار رسول الله ﷺ، فبعثوا بالحليس بن علقمة الكنانى، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلا من بعيد عرف صفته، وعرف أصحابه بأنه من قوم يعظمون البدن، ثم أمر بالهدى أن تساق فى مواجهته، فلما رآها الحليس وقد أكلت أوبارها وعلت أصواتها بالحنين تختلط معها أصوات المسلمين بالتكبير والتلبية، صاح قائلا :

ـ والله ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، هلكت قريش ورب الكعبة إن صدوهم .

.. ورجع الحليس غاضبا، ولم يواصل تقدمه ليلقى رسول الله ﷺ، واتجه إلى دار الندوة، وهو يغالب غضبه، فلما جلس قال لصحبه :

ـ إنى رأيت ما لا يحل منعه، رأيت الهدى فى قلائده قد أكل أوباره، معكوفا من محله، والرجال قد شعثوا وقملوا راغبين أن يطوفوا بهذا البيت، والله ما على هذا حالفناكم ولا عاقدناكم، على أن تصدوا عن البيت من جاءه معظما لحرمته مؤديا لحقه، والذى نفسى بيده، لتخلن بين محمد وما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .

فقالوا يسترضوه :

ـ اجلس يا حليس، فإن ما رأيت من محمد، إنما هو مكيدة .

ـ ٢ ـ

وأراد رسول الله ﷺ، أن يبين لقريش ما جاء له، فأرسل خراش بن أميه على جمل ليخبرهم، فعقر عكرمة بن أبى جهل الجمل، وتكاثر المشركون على خراش يريدون قتله، فحال الأحابيش بينهم وما يريدون، فعاد إلى رسول الله ﷺ ونبأه بما حدث، فقرر أن يبعث إليهم بمن هو عزيز عليهم .

وقال عمر بن الخطاب ﷺ:

ـ يا رسول الله، هل أدلك على رجل أعز على مكة، وأكثر عشيرة وأمنع، وأنه يبلغ لك ما أردت .. عثمان بن عفان .

.. فدعا رسول الله ﷺ عثمان ﷺ ، وطلب منه أن يبلغ أهل مكة أنه إنما جاء معتمرا يريد بيت الله الحرام، وأن يدعوهم إلى الإسلام، وليذهب إلى من تخفوا بينهم مسلمين يبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله تعالى وشيكا أن يظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان .

.. وانطلق عثمان بن عفانﷺ، فلقيه أبان بن سعيد، فرحب به وأجاره، ودخل معه مكة، وفى المساء، قال عثمان لمن اجتمعوا فى دار الندوة :

ـ إن رسول الله ﷺ يدعوكم إلى الإسلام، ويخبركم أنه لم يأت لقتال أحد، إنما جاء معتمرا، معه الهدى، عليه القلائد، ينحره وينصرف .

فردوا عليه قائلين :

ـ قد سمعنا ما تقول، ولا كان هذا أبدا، ولا دخلها علينا عنوة، فارجع إلى صاحبك فأخبره أنه لا يصل إلينا ..

ثم قالوا لعثمان ﷺ :

ـ إن شئت أن تطوف بالبيت فطف .

فقال :

ـ ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ .

.. وفضل عثمان أن يزور أهله بمكة فضيفوه عندهم، وهو ما أراد الزيارة، ولكنه أراد أن يتحرك فى حرية ليبلغ رسالة نبى الله ﷺ للمتخفين بإسلامهم، وحين سجى الليل أمكنه الله من ذلك، بينما بعثت قريش بخمسين من محاربيها الأشداء ليطوفوا حول جند المسلمين، عسى أن يصيبوا منهم شيئا وهم

.. كان رسول الله ﷺ قد أمر الصحابة بالحذر، وتناوب الحراسة ليلا، فلما قدم فرسان المشركين، ترامى حرس المسلمين والمغيرين، فقتلوا مشركا وأوقعوا بهم الهزيمة، وأسروهم جميعا، إلا واحدا منهم استطاع الفرار إلى مكة، فنبأ أهله بما حل بفلذات أكبادهم، فتنافرت قريش، وخرج جمع منهم إلى الحديبية فتراموا مع المسلمين، وتواصل نصر الله، وأسر المسلمون منهم اثنى عشر فارسا .

.. وأشاع بعض من الأسرى بين المسلمين، أن قريشا قد قتلت عثمان، فبعث رسول الله ﷺ بعشرة رجال ليدخلوا مكة سرا، ويستطلعوا أمر عثمان، فعلمت قريش بأمر خروجهم، فكمنوا لهم وأسروهم، وبلغ المسلمين أن قريشا قد قتلتهم كما قتلت من سبقوهم .

فلما وصل الأمر مسامع رسول الله ﷺ، دعا إلى البيعة، وقال :

ـ لا نبرح حتى نناجز القوم .

وبايع الناس رسول الله ﷺ، على أن يصمدوا فى وجه المشركين حتى يأتى نصر الله، وتجهزوا للحرب .

وعلمت قريش بتعاهد المسلمين على قتالهم، فانتابهم فزع عظيم، فها هم أولاء كلما لقوا جند الله باءوا بخسران عظيم، حتى أخذهم الشؤم كل مأخذ فأظلمت الدنيا فى عيونهم، حتى لم يعودوا يرون أنفسهم إلا أسرى عند رسول الله، ولولا بقية من الكبر، لسارعوا إليه رافعين رايات الاستسلام، وها هم أولاء يبعثون سفراءهم إلى رسول الله ﷺ ، قائلين :

ـ يا محمد، إن أصحابك بخير، أما ما كان من حبسهم بمكة، وما كان من قتال من قاتلك، فلم يكن من رأى ذوى رأينا، بل كنا كارهين له حين بلغنا، ولم نعلم به، وكان من سفهائنا : فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أول مرة، والذين أسرت آخر مرة .

فرد رسول الله ﷺ مبعوثيهم، رافضا أن يطلق سراح أسرى قريش، قبل أن تطلق قريش سراح أصحابه .

.. وقد كان .

.. وعاد عثمان مع العشرة الذين أسرتهم قريش، بينما أطلق المسلمون أسرى قريش؛ فلما لقى جمع من المسلمين عثمان سألوه، قائلين :

ـ أشفيت من البيت يا أبا عبد الله ؟.

عقب عثمان على ما قالوا، غاضبا :

ـ بئس ما ظننتم بى، فو الذى نفسى بيده، لو لبست مقيما بمكة سنة، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية، ما طفت حتى يطوف رسول الله ﷺ، وقد دعتنى قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت .

فقالوا له :

ـ هكذا قال رسول الله ﷺ حين بلغه ما ظنناه بك .

قال عثمان رضي الله عنه :

ـ صدق رسول الله ﷺ، وخابت ظنتكم .

ـ ٣ ـ

اجتمع أهل الرأى من قريش، وقد أخذ الشيطان بذيله فى خوف، وجلس بينهم مخذولا لا يوسوس، فخمدت حمية الجاهلية فيهم، ونهض العقل بدوره فى رشاد، فلم يطل نقاشهم، بل أجمعوا على مهادنة محمد، على أن ينصرف عنهم عامهم هذا، ولا يخلص إلى البيت، فتتحدث العرب بأنه قد دخله عليهم راغما لأنوفهم، أما إذا رضى وانصرف عنهم عامهم هذا، فسوف تتسامع العرب بأنهم قد صدوه صدودا، وتظل هيبتهم رافعة ألويتها، أما إذا شاء فليرجع فى قابل حسب عهدهم، فيقيم ببلدهم ثلاثا، وينحر هديه، ولا يدخل بيوتهم ولينصرف .

وقالوا لسهيل بن عمرو :

ـ آت محمدا فصالحه على ما اتفقنا عليه .

فلما أهل سهيل وصحبه من بعيد، على رسول الله ﷺ، قال لمن حوله :

ـ سهل أمركم .
.. جلس سهيل بين يدى رسول الله ﷺ، وجرى بينهما القول، حتى اتفقا على الصلح، وأن تمنع الحرب بينهما عشر سنين، وأن يأمن الناس بعضهم بعضا، وأنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه ـ حتى وإن كان على دين محمد رسول الله ـ رده إلى وليه، وأنه من أتى قريشا ممن تبع محمدا لم يردوه عليه، وأن بينهم وبين رسول الله ﷺ عيبة : ان يمتنع بينهم السرقة والخيانة، وأنه من أحب أن يدخل من قبائل العرب فى عقد وعهد محمد رسول الله دخل فيه، ومن أراد أن يدخل فى عقد وعهد قريش دخل فيه .
وهنا تواثب من حضر من خزاعة، وقالوا :
ـ نحن فى عقد محمد رسول الله وعهده .
بينما تواثب من حضر من بنى بكر، وقالوا :
ـ نحن فى عقد قريش وعهدهم .
.. كره المسلمون هذه الشروط، وامتعضوا منها، فلما جاء وقت المكاتبة، وثب عمر بن الخطاب مغاضبا، وقال :
ـ يا رسول الله، ألست نبى الله حقا ؟.
قال ﷺ :
ـ نعم .
قال عمر :
ـ ألست على الحق، وهم على الباطل ؟.
قال ﷺ :
ـ نعم .
قال عمر رضي الله عنه :
ـ أليس قتلانا فى الجنة، وقتلاهم فى النار ؟.
قال ﷺ :
ـ نعم .
قال عمر :
ـ علام نعطى الدنية فى ديننا، ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم ؟.
قال ﷺ :
ـ إنى عبد الله ورسوله، ولست أعصيه، ولن يضيعنى، وهو ناصرى .
قال عمر :
ـ أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف حقا ؟.
قال ﷺ :
ـ نعم، أفأخبرتك أنك تأتيه العام .
قال عمر :
ـ لا .
قال نبى الله ﷺ :
ـ فإنك آتيه ومطوف به، يا عمر ترانى رضيت وتأبى ؟.
فخجل ابن الخطاب، وسكت فلم يعقب بعدها بكلمة واحدة .
فقال سهيل لرسول الله ﷺ :
ـ هات، أكتب بيننا وبينك كتابا .
فدعا رسول الله ﷺ عليا رضي الله عنه، وقال له :

ـ أكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل :

ـ أما الرحمن الرحيم، فلا أدرى ما هو ؟.. أكتب باسمك اللهم .

فثار المسلمون، وقالوا :

ـ لا تكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم .

وقال نبى الله ﷺ لعلى :

ـ أكتب باسمك اللهم .

فكتب على، فقال رسول الله ﷺ :

ـ هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله .

فاعترض سهيل، وقال :

ـ والله لو كنا نعلم أنك رسول الله، ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، أكتب فى قضيتنا ما نعرف، أكتب : محمد بن عبد الله .

قال رسول الله ﷺ لعلى :

ـ أمحه .

فتلكأ على ﷺ، وقال :

ـ ما أنا الذى أمحك .

فقال نبى الله ﷺ :

ـ أكتب، فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد .

.. ولما أراد على ﷺ أن ينفذ قول رسول الله ﷺ، أخذ أسيد بن حضير وسعد ابن عبادة بيده، ومنعاه أن يمحها، وقالا :

ـ هى محمد رسول الله ﷺ، وإلا فالسيف بيننا وبينهم .

.. وارتفعت أصوات المسلمين مؤيدة لرأيهما، وأخذ رسول الله ﷺ يشير بيديه ليسكتهم، ثم طلب من على أن يريه الكتاب، فناوله له، فمحاه رسول الله ﷺ، وقال لعلى :

ـ أكتب محمد بن عبد الله .

فكتب "على " •، وحين أراد أن يستطرد كاتبا، اعترضوا على أن يرد من جاءهم مسلما إلى قريش، ولا ترد قريش من ذهب إليها، فقال نبى الله ﷺ :

ـ نعم، أنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاء منهم إلينا سيجعل الله له فرجا ومخرجا .

.. ولما قرب الانتهاء من كتابة وثيقة الصلح، إذا أبو جندل بن سهيل قد فر من القيود التى كبله بها أبوه، ونزل على معسكر المسلمين مستجيرا، وكان على الإسلام، فلما رآه سهيل قام إليه يضرب وجهه بغصن شوك، وهو يقول لرسول الله غاضبا :

ـ يا محمد، هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده .

فرجاه الحبيب ﷺ أن يكف عن إيذائه لابنه، وهو لا يستحى ولا يستجيب، فلما أجبره الصحابة على أن يكف يده، أجابه رسول الله ﷺ إلى طلبه، وقلبه يتمزق ألما، قائلا لأبى جندل :

ـ اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا مع القوم صلحا، وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهدا، وإنا لا نغدر .

ورجع أبو جندل مع أبيه مكبلا فى الأغلال، والمسلمون فى غاية الحزن، والكرب من هذه المعاهدة التى كبلتهم فلم يقدروا على نجدة أخ فى الله، فلما نادى رسول الله ﷺ يطالبهم بنحر الهدى، مرة ومرة ومرات، لم يستجب أحد، فاشتد عليه الأمر، ودخل

حزينا على زوجه أم سلمة ونبأها بما كان من أمر المسلمين معه، فقالت له :

ـ يا رسول الله لا تلمهم، فإنهم قد دخلهم أمر عظيم، مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح، ورجوعهم بغير فتح، يا نبى الله أخرج ولا تكلم أحدا كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلق شعرك .

فخرج رسول الله ﷺ، فأخذ حربة وأهوى بها على البدن يذبحها، رافعا صوته يقول:

ـ بسم الله، والله أكبر .

فتواثب المسلمون ينحرون هديهم مسمين مكبرين، وبعد أن انتهوا حلق البعض وقصر البعض الآخر، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من قبته، وهو يقول باسما :

ـ رحم الله المحلقين .

قال المسلمون :

ـ يا رسول الله، والمقصرين .

قال الحبيب ﷺ :

ـ رحم الله المحلقين، رحم الله المحلقين، رحم الله المحلقين، والمقصرين .

قال من سمعوا :

ـ يا رسول الله، ما بال المحلقين قد أكثرت عليهم الترحم ؟.

قال ابن عباس إن رسول الله ﷺ قال لهم :

ـ لأنهم لم يشكوا .

.. وهبت الريح شديدة فحملت شعر المحلقين والمقصرين فألقته فى الكعبة، وهكذا شاء الله أن يستقر شعرهم حيث كان يجب أن يستقر .

.. وجمع المسلمون أغراضهم، وطووا خيامهم، وأعلن عن الرحيل للعودة إلى الديار .

ـ ٤ ـ

.. فى الطريق أصاب المسلمين الجوع، فاستأذنوا رسول الله ﷺ فى أن يذبحوا ما يركبون من بعير، فأذن لهم، ولكن عمر بن الخطاب قال :

ـ يا رسول الله أنذبح ما نركب، فنرهق بالسير، فإذا ما لقينا عدوا لقينا جياعا رجالا، ولكن إذا رأيت أن ندعو الناس ببقايا زادهم فنجمعها ثم تدعو فيها بالبركة، فإن الله سيبلغنا بدعوتك .

ودعا الناس لأن يأتوا بما لديهم من زاد، ووضع مجموعا على بساط، فكان قليل القليل، فقام رسول الله ﷺ فدعا الله بما شاء أن يدعو، واستجاب ربه لدعائه فكثر القليل، واجتمع الناس فأكلوا حتى شبعوا، ثم حشوا أوعيتهم من رزق الله، وبقى مثل ما أكلوا وحملوا، ورسول الله ﷺ يتبسم فى سعادة، قائلا :

ـ أشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله : والله لا يلقى الله تعالى عبد مؤمن بهما، إلا حجب من النار .

وأمطرت السماء والوقت صيف، فشرب المسلمون وارتوت بهائمهم، ثم أذن للرحيل، وفى أثناء المسير إلى المدينة، وسوس الشيطان لبعضهم، فقالوا :

ـ ما هذا بفتح، فلقد صددنا عن البيت، وصد هدينا .

وعن عروة أن رسول الله قال :

ـ بئس الكلام، بل هو أعظم الفتح، قد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم، ويسألونكم القضية، ويرغبون إليكم الأمان، ولقد رأوا منكم ما كرهوا، وأظفركم الله تعالى عليهم، وردكم سالمين مأجورين، فهو أعظم الفتح، أنسيتم يوم أحد، إذ تصعدون ولا تلوون على أحد، وأنا أدعوكم فى أخراكم ؟.. أنسيتم يوم الأحزاب، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار،وبلغت القلوب الحناجر، وتظنون بالله الظنون ؟!.

فقال المسلمون :

ـ صدق الله ورسوله، فهو أعظم الفتح، والله يا نبى الله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبالأمور منا .

.. وأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ سورة الفتح، فكان أول من طلب أن يلقاه عمر بن الخطاب، وحين جلس بين يدى نبى الله ﷺ، شكر الله على ما بشره به، ثم قرأ عليه قول الله تعالى:

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (٣)

فقال عمر :

ـ صدق الله العظيم، وصدق نبيه .

ـ ٥ ـ

بعد عودة المعتمرين إلى المدينة، قدمت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط مهاجرة من مكة إلى المدينة هربا بدينها، فلقد كانت زوجة لمشرك، وحين أراد أهلها استردادها، أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ آية من سورة الممتحنة :

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنفَقُوا وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠)

.. فامتنع نبى الله ﷺ عن تسليمها لهم، وبقيت بين المسلمين وقد طلقت من زوجها، ثم قدم أبو بصير عتبة بن أسيد من مكة، ماشيا على قدميه فارا من حبس قومه له، ومعه خمسة ممن كانوا قد احتجزهم المشركون من مستضعفى المسلمين، ومكثوا بين المسلمين ثلاثة أيام، ثم وفد على رسول الله ﷺ من يحمل إليه كتابا من أهل أبو البصير يطالبونه بحق العهد الذى بينهم وبينه، أن يعيد أبا البصير إليهم، فأمر رسول الله ﷺ أبا البصير أن يعود مع الرجلين إلى أهله، بعد أن بشره بأن الله سيجعل له فرجا ومخرجا؛ وقبل أبو البصير ما أمر به رسول الله ﷺ على مضض، وقد أضمر فى نفسه شيئا، وسار جمع من المسلمين يبشرونه بمقولة رسول الله ﷺ، قائلين :

ـ با أبا البصير أبشر، فإن الله جاعل لك فرجا ومخرجا .

ورغم بشارة نبى الله ﷺ، راحوا يحرضونه على قتل من جاءا لأخذه، فلما وصل ركب أبو البصير ذى الحليفة، صلى صلاة المسافر ركعتين فى مسجدها، ودعا من معه إلى الطعام، فلما أكلوا قام رسول قريش يهز سيفه ملوحا، ثم قال مفاخرا :

ـ لأضربن بسيفى هذا فى الأوس والخزرج يوما إلى الليل .

فقال له أبو البصير :

ـ أصارم سيفك هذا ؟.

قال الرجل :

ـ نعم .

قال أبو البصير :

ـ ناولنيه أنظر إليه إن شئت .

فناوله لأبى البصير، ففاجأه بضربة قتلته، فلما رأى الدليل ما أصاب صاحبه، انطلق يعدو فى هلع متجها إلى المدينة، وطلب من رسول الله ﷺ أن يؤمنه فأمنه، فقدم أبو البصير متمنطقا سيف الرسول، راكبا راحلته، ووقف بين يدى رسول الله ﷺ ، وقال :

ـ يا رسول الله، قد وفت ذمتك وأدى الله عنك، وقد أسلمتنى بيد العدو، وقد امتنعت بدينى من أن أفتن .

فقال رسول الله ﷺ :

ـ ويل لمسعر حرب .

فلما سمع أبو البصير قولة نبى الله ﷺ، خرج فى صحبة مجموعة ممن فروا بدينهم، حتى وجدوا مأمنا فى مكان قريب من طريق البحر، فنزلوا به متحصنين، فلما سمع المحبوسون بقريش من المستضعفين بأمرهم، فروا متسللين إلى حيث أقام أبو البصير، فأقاموا معه، ووصل عددهم أكثر من سبعين رجلا، منهم أبو جندل بن سهيل، وكان طعامهم الحيتان التى يلقى بها البحر إليهم، ثم اجتمع إليهم أناسى كثيرة، حتى بلغ أصبحوا فيما يزيد على الثلاثمائة رجل، فكانوا كلما مرت بهم قافلة لقريش أخذوا بضاعتها، وقتلوا رجالها، فضاقت قريش بصنيعهم، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ يستنجدون به، ويرجونه أن يضم إليه أبا البصير وأبا جندل، ومن فر بدينه من مكة، ولا حرج عليه فيهم !!.

.. وكتب رسول الله ﷺ إلى أبى بصير وأبى الجندل ومن معهما أن يقدموا عليه، فوصل كتاب رسول الله ﷺ إلى أبى بصير، وهو على فراش الموت، فأخذ ينظر إلى كتاب الحبيب محمد ﷺ فى حب، حتى فارقته الروح.

ورجع أبو الجندل ومن معه إلى المدينة، وأقاموا بين أهلها .

ـ ٦ ـ

.. كتب رسول الله ﷺ إلى قيصر الروم، وحمل كتابه دحية الكلبى، فسلمه إلى عظيم بصرى، فأرسله بدوره إلى القيصر فى القدس، فقرءوه عليه :

" بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك بدعوة الإسلام ؛ أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الآرسيين :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) سورة آل عمران

فقال الملك :

ـ ابحثوا لنا عن أحد من قوم محمد رسول الله، نسأل عنه .

.. وجاءوا له بأبى سفيان بن حرب ومن معه من القرشيين، وكانوا فى تجارة لهم بالشام، فطلب قيصر من مترجمه أن يسألهم :

ـ أيكم أقرب نسبا لمحمد ؟.

فقال أبو سفيان :

ـ أنا .

فأدناه قيصر منه، ثم أمر مترجمه أن يطلب من أصحابه، رد أبا سفيان إذا كذب فى أمر من الأمور التى سيسأله عنها، ثم سأل أبا سفيان :

ـ كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟.

قال أبو سفيان :

ـ هو فينا ذو نسب .

قال قيصر :

ـ هل تكلم بما يقول محمد رسول الله، أحد منكم من قبل ؟.

قال أبو سفيان :

ـ لا .

قال قيصر :

ـ هل كنتم تتهمونه بالكذب ؟.
قال أبو سفيان :
ـ لا .
قال قيصر :
ـ فهل كان من آبائه ملك ؟.
أجاب أبو سفيان :
ـ لا .
سأل قيصر، قال :
ـ ومن يتبعونه : أأشراف الناس، أم ضعفاؤهم ؟.
قال أبو سفيان :
ـ بل ضعفاؤهم .
قال قيصر :
ـ وهل يزيدون أم ينقصون ؟.
قال أبو سفيان :
ـ بل يزيدون .
قال قيصر :
ـ هل يرتد أحدهم سخطا على دينه ؟.
قال أبو سفيان :
ـ لا .
قال قيصر :
ـ هل يغدر إذا عاهد ؟.
قال أبو سفيان :
ـ لا، ونحن الآن معه فى ذمة لا ندرى ما هو فاعل بها .
قال قيصر :
ـ فهل قاتلتموه ؟.
قال أبو سفيان :
ـ نعم، والحرب بيننا سجال، مرة لنا ومرة علينا .
قال قيصر :
ـ فيم يأمركم ؟.
قال أبو سفيان :
ـ يقول : اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وينهى عما كان يعبده آباؤنا، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .
قال قيصر :
ـ إنى سألتك عن نسبه، فقلت : إنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ؛ وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول قبله، فقلت : لا، فلو كان أحد قبله قال هذا القول، لقلت : رجل يأتى بقول قيل قبله ؛ وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فقلت : لا، فما كان ليذر الكذب على الناس ليكذب على الله ؛ وسألتك هل من آبائه ملك، فنفيت ذلك، فلو كان من آبائه من ملك، لقلت : رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك : أأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم، فقلت : بل ضعفاؤهم، فالضعفاء أتباع الرسل ؛ وسألتك : هل يزيدون أو ينقصون

، فقلت بل يزيدون ولا يرتد أحد منهم، وكذلك الإيمان حين تخالطه بشاشة القلوب يزيد حتى يتم ؛ وسألتك : هل قاتلتموه، فقلت : نعم، وإن الحرب بينكم وبينه سجال، وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة ؛ وسألتك : بماذا يأمر وهل يغدر، فذكرت بما يأمر، وقلت أنه لا يغدر، وهكذا الرسل تأمر بالخير ولا تغدر ؛ فتيقنت أنه نبى، وقد كنت أعلم أنه مبعوث، ولم أظن أنه فيكم، وإن كان ما كلمتنى به حقا فسيملك موضع قدمى هاتين .

.. وعلا صوت من كان حاضرا من قومه مستنكرين ما قال قيصر، فأمرهم بالصمت، ثم أمر بالقرشيين فأخرجوا من المجلس .

.. سار قيصر إلى حمص، وقد مال للدخول فى دين الإسلام ميلا شديدا، ولما وصل حمص، أمر بجمع عظماء قومه فى قصر له، ثم أمر العسكر فغلقوا عليهم الأبواب، ثم عرض عليهم كتاب رسول الله ﷺ، وشهادة أعدائه له، وقال :

ـ يا معشر الروم، هل أدلكم على سبيل الرشد والفلاح، وأن يثبت ملككم ؟.. بايعوا هذا النبى .

وانتفض الشيطان غاضبا أشد الغضب، فتصايح الحاضرون، ونفروا غاضبين يريدون الأبواب، عازمين على الانقلاب على القيصر، ولكنهم فوجئوا بالأبواب مغلقة، فلما رأى القيصر غضب قومه مما عرض عليهم، وعزمهم على الغدر به وبسلطانه ؛ قال للعسكر :

ـ ردوهم إلى .

.. فلما اكتمل شملهم، هداه شيطانه إلى أنه لا سبيل للخلاص مما هو فيه، إلا بالنكوص عما كان عازما عليه، فقال لهم :

ـ يا معشر الروم، إنما قلت مقالتى أختبر بها شدتكم على دينكم .

فلما عقلوا مقولته، ذهب عنهم الغضب، ورضوا عن مليكهم، وخمد غضب الشيطان، وتبسم منتصرا .

ـ ٧ ـ

.. أرسل نبى الله ﷺ رسالة مماثلة إلى كسرى ملك الفرس، قال له فيها : " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، اشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أدعوك بدعوة الله، فإنى رسول الله إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس ."

.. فلما قرأ كسرى كتاب رسول الله ﷺ إليه، مزقه شر ممزق ؛ وبلغ ما فعله كسرى رسول الله ﷺ، فقال :

ـ مزق الله ملكه كل ممزق .

فما مرت عليه شهور قلائل، إلا وثار عليه ابنه فقتله، وانتزع الملك منه .

.. كما أرسل النبى ﷺ، كتابا إلى المقوقس بن متى، عظيم القبط بالإسكندرية، فلما قرأه قال :

ـ ما منعه إن كان نبيا، أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟!!.

فقال من حمل الكتاب :

ـ ألست تشهد أن عيسى بن مريم عليه السلام رسول الله ؟.

قال المقوقس :

ـ بلى .

قال حامل الكتاب :

ـ فماله حين أخذه قومه ليقتلوه، ألا يكون دعا عليهم، قبل أن يرفعه الله، أن يهلكهم الله ؟!!.

قال المقوقس :

ـ أنت حكيم، جئت من عند حكيم .

وكتب المقوقس ردا على كتاب رسول الله ﷺ، يقول : " بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله، من المقوقس عظيم القبط ؛ سلام عليكم، أما بعد : فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا قد بقى، وظننت أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط، وبثياب، وببغل تركبها، والسلام ."

.. كما أرسل ﷺ برسل حملوا كتبه إلى كثير من الملوك والحكام، فلم يسلم منهم غير النجاشى ملك الحبشة، هو والمنذر بن ساوى ملك البحرين، ولقد كتب بعد إسلامه إلى رسول الله ﷺ يقول : " أما بعد، يا رسول الله، فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين، فكثر منهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه ؛ وبأرضى مجوس ويهود، فأرسل إلى فى ذلك أمرك ."

فكتب إليه رسول الله ﷺ، يقول : " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، فإنى أحمد الله إليك، الذى لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله ؛ أما بعد،فإنى أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فلنفسه، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى، ومن نصح لهم فقد نصح لى، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا، وإنى شفعتك فى قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فأقبل منهم، ومن أقام على يهوديته أو ماجوسيته، فعليه الجزية ."

ـ ٨ ـ

الشهر: ذى القعدة .

السنة : السابعة من الهجرة .

.. وقد مر عام على معاهدة الحديبية، أمر رسول الله ﷺ أصحابه بأن يتجهزوا للعمرة، ولا يتخلف أحد ممن شهدوا صلح الحديبية، وطلب رسول الله ﷺ أن يكفل أهل المال من لا يملك زاده.

فقالوا :

ـ يا رسول الله، بم نتصدق وأحدنا لا يجد شيئا ؟.

فقال ﷺ :

ـ بما كان، ولو بشق تمرة .

وخرج المسلمون ممن شهدوا الحديبية، فلم يتخلف منهم أحد، وأحرم رسول الله ﷺ من باب مسجده، وساق معه ستين بدنة، وصحب المسلمون معهم أسلحتهم، تحسبا لأى عدوان من الكفار، وبينهم مائة فارس، فلما طلعت بشائر الحجيج على قريش أصابهم الرعب مما رأوا، وقالوا:

ـ والله ما أحدثنا حدثا، وإنا على كتابنا، ومدتنا، ففيم يغزونا محمد فى أصحابه؟!.

وبعثوا إليه بنفر منهم، فقالوا :

ـ والله يا محمد، ما عرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر، تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك، وقد شرطت لهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر، السيوف فى القرب .

فقال لهم ﷺ، أنه لن يدخلها عليهم بسلاح، فقالوا له :

ـ هو ما تعرف به، البر والوفاء .

ورجعوا إلى قومهم فطمأنوهم، وكره ناس من الكفار رؤية رسول الله ﷺ فى عقر دارهم، فهجروا دورهم إلى ذرى الجبال، بينما أغلق غيرهم أبواب بيوتهم عليهم، لا يخرجون منها ولا تدخل عليهم، بينما خرج الصبية يدفعهم الفضول ينظرون إلى ما يجرى .

دخل رسول الله ﷺ مكة على ناقته، ثم نزل عنها، واستلم الحجر الأسود وطاف بالبيت سبعا، بعد أن اضطبع بأن كشف عن كتفه اليمنى، وأدخل رداءه من تحت إبطه، وحوله المسلمون يفعلون مثلما يفعل، فرملوا ثلاثة أشواط، ومشوا بين الركنين : اليمانى والأسود وهم يرددون :

ـ لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده .

فلما انتهى رسول الله، ركب راحلته، واتجه إلى الصفا، وسعى راكبا بين الصفا والمروة، وحوله المسلمون ما بين راجل وراكب، فلما أتمها سبعا عند المروة

، حيث تجمعت الهدى، حلق شعره، ثم نحر، وقال :
ـ هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر.
ودخل رسول الله ﷺ الكعبة بعد صلاة العشاء، فمكث فيها، حتى أذن بلال من فوق سطح الكعبة لصلاة الصبح .
ومكث رسول الله بمكة ثلاثة أيام، لم يدخل دارا من دورها، ثم غادر وصحبه عائدين إلى المدينة، وقد لحقت به قلوب ثلاثة من قادة قريش، بعد أن تعاقدوا على الإسلام .
يقول عمرو بن العاص ﷺ :
ـ بعد وقعة الخندق، كنت قد عقدت العزم على الهجرة لأقيم بالحبشة عند النجاشى، حتى إذا ظهر محمد كنت فى حمى بلد غير مكة، فحملت للنجاشى جلودا كثيرة، فلقد كان يحب هذه الهدية، وبينما أنا عنده، إذا برسول يأتى من عند نبى الله، فطلبت منه أن
يسلمه لى لأقطع عنقه، فغضب النجاشى أشد الغضب، وقال :
ـ أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه النموس الأكبر لتقتله ؟!!.
قلت بعد أن اعتذرت للملك لأنى أغضبته :
ـ أيها الملك، فكذلك هو ؟!.
قال النجاشى :
ـ ويحك يا عمرو، أطعنى واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده .
فقلت له :
ـ أتبايعنى على الإسلام ؟!.
فبسط يده فبايعنى، وخرجت إلى أصحابى وكتمت عنهم إسلامى .
فلما عدت إلى مكة، قررت أن أخرج مهاجرا لألحق برسول الله ﷺ بالمدينة، وبينما أنا خارج، إذا بى أجد خالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة، قد سبقانى فى الخروج، معا إلى رسول الله ﷺ وأعلنا إسلامنا عنده .
ولقد بادر رسول الله ﷺ فأرسلنى بكتاب إلى جيفر وعياذ ملكى عمان، فلما وصلت إليهما بدأت بعياذ، فقرأ كتاب رسول الله، فرق قلبه بعد أن علم بمبادئ الإسلام، وقال :
ـ لو كان أخى يطاوعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير تابعا .
فقلت له :
ـ إن أسلم أخوك، ملكه رسول الله على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم، وردها على فقيرهم .
فصحبنى إلى أخيه جيفر، فتكلمت معه بما ألان قلبه للإسلام، فأسلم هو وأخوه .

ـ ٩ ـ

الشهر : جمادى الأولى .
السنة : الثامنة من الهجرة .
بعث رسول الله ﷺ سرية من ثلاثة آلاف مقاتل، للقصاص ممن قتلوا رسوله إلى أمير بصرى ؛ وعسكر جند الله بمنطقة الجرف، فلما صلى بهم رسول الله ﷺ جلس إليهم، وأعلمهم بأن اللواء منعقد لزيد بن حارثة فهو أمير الناس، فإذا ما قتل، فلجعفر بن أبى طالب، فإن أصيب فلعبد الله بن رواحه .
.. فلما تهيأ الناس للمسير أوصاهم رسول الله ﷺ بتقوى الله، وأن يقاتلوا من كفر بالله، وألا يغدروا، ولا يغلوا، ولا يقتلوا وليدا، ولا امرأة، ولا صغيرا ضرعا، ولا كبيرا فانيا، ولا يغرقوا نخلا، ولا يقلعوا شجرا، ولا يهدموا بيتا، ولا يتعرضوا لرجال فى الصوامع معتزلين الناس .
وقال عبد الله بن رواحه :

ـ يا رسول الله، عظنى بشىء أحفظه عنك .
قال رسول الله ﷺ :
ـ أنت قادم غدا بلدا السجود فيه قليل، فأكثر السجود .
قال عبد الله :
ـ زدنى يا رسول الله .
قال رسول الله ﷺ :
ـ اذكر الله فإنه عون لك على ما تطلب .
.. ومضى عبد الله، ثم عاد لرسول الله ﷺ :
ـ يا رسول الله زدنى الثالثة فإن الله وتر يحب الوتر .
فقال رسول الله ﷺ :
ـ ابن رواحه، ما عجزت فلا تعجزن، إن أسأت عشرا فعليك أن تحسن واحدة .

ـ ١٠ ـ

.. لقى المسلمون طلائع جند شرحبيل بقيادة أخيه سدوس، فقاتلوهم وهزموهم شر هزيمة وقتلوا سدوس، ثم بلغهم أن هرقل قد خرج إليهم فى مائة ألف من الروم، ومائة
ألف من قبائل العرب، فقال رجال من المسلمين : " نكتب إلى رسول الله، فنخبره بأمر عدونا، فإما يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضى له .
فقام فيهم عبد الله بن رواحه، قائلا :
ـ يا قوم، والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد، ولا بكثرة سلاح، ولا بكثرة خيل؛ ما كنا نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلقوا، والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد فرس واحد، فإنما هى إحدى الحسنيين : إما الظهور، وإما الشهادة .
وأثارت كلمات ابن رواحه الحمية فى النفوس، وقالوا :
ـ قد والله صدق ابن رواحه .
.. وساروا إلى قرية يقال لها مؤتة فلقوا حشود هرقل، ورأوا ما لا قبل لهم به من العدد والعدة، ورغم ما رأوا قاتلوا جند هرقل قتال الشهداء، فقتل زيد، وتناول منه جعفر الراية فقاتل، فقطعت يمينه، فأمسك الراية بيساره، فقطعت يساره، فأمسك الراية بعضديه، فشطره رجل من الروم بسيفه فشقه نصفين، فتناول ابن رواحه الراية وتردد قليلا، ثم أقدم فقاتل حتى قتل، فسقط اللواء، فاختلط الجند، وانهزم المسلمون، وكروا متراجعين، فالتقط اللواء ثابت بن أقرم ورفعه عاليا، وصاح :
ـ إلى أيها الناس .
فالتف حوله الجند فخطب فيهم قائلا :
ـ يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم .
قالوا :
ـ أنت .
فدفع باللواء إلى خالد بن الوليد، وقال :
ـ خذ اللواء يا أبا سليمان .
وتناول خالد لواء المسلمين ودافع، وثبت فارتد الكفار، وحل الظلام فتوقف القتال.
.. وفى ذات اللحظة، كان نبى الله ﷺ يجلس على المنبر وحوله صحابته، فأخذ يصف لهم ما يحدث للمسلمين، فنبأهم بموت زيد شهيدا، ثم بموت جعفر شهيدا، ثم تغير وجهه قليلا وسكت، ثم قال وقتل ابن رواحه شهيدا، وعقب قائلا : لقد رفعوا إلى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب، فرأيت سرير ابن رواحه فيه ازورار عن

سريرى صاحبيه، فقلت : عم هذا ؟. فقيل لى : مضيا، وتردد عبد الله بعض التردد، ثم مضى .

وقام رسول الله ﷺ من مجلسه، وخرج شاقا طريقه إلى دار جعفر، ولما وصل، استأذن من أهلها، ثم دخل على أسماء بنت أبى بكر، امرأة جعفر، فقال لها :

ـ يا أسماء أين بنو جعفر ؟.

فجاءت بهم إليه، فضمهم الحبيب ﷺ إليه وشمهم، وهو فى غاية التأثر، ثم زرفت عيناه فبكى، وقال :

ـ اللهم إن جعفرا قد قدم إلى أحسن الثواب، فأخلفه فى ذريته بأحسن ما أخلفت أحدا من عبادك فى ذريته .

فقالت زوجة جعفر :

ـ أى رسول الله، لعله بلغك عن جعفر شئ ؟.

فقال ﷺ :

ـ نعم، قتل اليوم، يا أسماء ألا أبشرك ؟.

قالت :

ـ بلى، بأبى أنت وأمى .

قال ﷺ :

ـ فإن الله جعل لجعفر جناحين يطير بهما فى الجنة .

وارتعد بدن أسماء ، وهى تحاول أن تخفى حزنها وتتحمل مصيبتها ، للحظات ، ثم بدأت تصيح، فاجتمعت إليها النساء، فقال لها رسول الله ﷺ :

ـ يا أسماء، لا تقولى هجرا، ولا تضربى صدرا .

وذهب الحبيب ﷺ إلى ابنته فاطمة، فقال لها :

ـ اصنعوا لآل جعفر طعاما، فلقد شغلوا عن أنفسهم اليوم .

.. ولما كان الغد عدل خالد من أوضاع الجند، فجعل الميمنة مكان الميسرة والميسرة مكان الميمنة، فلما رآهم جند هرقل فزعوا ورعبوا ومالوا منهزمين، فناور خالد ﷺ، ثم عاد بجند الله إلى المدينة سالمين .

فلما رآهم الناس، اخذوا يرمونهم بالتراب، وقولون :

ـ يا فرار، أفررتم فى سبيل الله .

فكانوا يسارعون إلى بيوتهم ويغلقون عليهم الأبواب فلا يفتحون لأحد، فأرسل إليهم الحبيب ﷺ رجلا رجلا، وصار يقول لهم :

ـ أنتم الكرار فى سبيل الله .

.. وحين بلغت مقولة رسول الله ﷺ إلى أسماع المسلمين، كفوا ألسنتهم، وتحفزوا مترقبين تحقق بشارة نبى الله ﷺ، ليروا إخوانهم كرارا على أعداء الله .

الفصل السابع عشر :

إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النصر

الفتح الأكبر

ـ ١ ـ

السنة : الثامنة من الهجرة .

الشهر : شعبان .

بعد مرور أقل من عامين على معاهدة الحديبية، عدا بنو بكر وهم فى عقد قريش، على قبيلة خزاعة وهم فى عقد رسول الله ﷺ، وساعدتهم قريش بالسلاح والرجال، فقتلوا منهم الضعاف من الشيوخ والنساء والأطفال، وفر من بقى منهم حتى احتموا ببيت الله الحرام .

وسار عمر الخزاعى فى أربعين رجل إلى رسول الله ﷺ بالمدينة،ودخل عليه المسجد يستصرخه، وقص عليه ما كان من الأمر، فقال له رسول الله ﷺ :

ـ نصرت يا عمرو بن سالم .

ثم قام الحبيب غاضبا، وهو يقول :

ـ لا نصرت إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر منه نفسى .

وبعث رسول الله ﷺ إلى القبائل من يقول : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة ؛ فتجهز خلق كثير، ومع إشراق هلال شهر رمضان، جاءوا بسلاحهم وعتادهم من كل حدب، وهم بين ظان يظن أن رسول الله ﷺ يريد الشام، وآخر يظن أنه إنما يريد هوزان ..

.. ودعا رسول الله ﷺ ربه، قائلا :

ـ اللهم خذ على أبصارهم، فلا يرونى إلا بغتة، ولا يسمعوا بى إلا فجأة .

.. ثم خرج فأعلم الناس بوجهته، وأمر نفرا من أصحابه أن يؤمنوا مخارج المدينة، حتى لا يبلغ أحد قريشا بتجهيزهم، ونبئ النبى بأن حاطب بن بلتعة قد بعث امرأة إلى مكة بكتاب يحذر فيه قريشا من غزو رسول الله ﷺ، فأرسل إلى على بن أبى طالب و"الزبير بن العوام"، وحدد لهما مكان المرأة، وأمرهما أن يلحقا بها، وهكذا فشلت المحاولة الوحيدة لإفشاء سر رسول الله ﷺ، ثم دعا حاطبا، وكان ممن شهدوا بدرا، وسأله عما حمله على فعل ذلك، فاعتذر حاطب، قائلا :

ـ يا رسول الله صلى الله عليك وسلم، أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت، ولكنى كنت امرأ ليس لى فى المدينة آهل ولا أصل، ولى بين أظهرهم فى مكة ولد وعشيرة، فأردت أن أصانعهم عليه .

فقال عمر بن الخطاب :

ـ يا رسول الله ﷺ، دعنى أضرب عنقه، فإن الرجل قد نافق .

فقل له الحبيب ﷺ :

ـ وما يدريك يا عمر، لعل الله تعالى قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر، فقال : اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم .

ـ ٢ ـ

اليوم : الأربعاء، العاشر من الشهر .
الشهر : رمضان .
السنة : الثامنة من الهجرة .
صلى رسول الله ﷺ بالمسلمين، ثم نادى مناديه :
ـ من أحب أن يصوم فليصم، ومن أحب أن يفطر فليفطر .
وخرج رسول الله ﷺ صائما، ومعه المهاجرون والأنصار، وجماعات من العرب، فى عشرة آلاف مقاتل، يركبون الخيل والإبل، وفعل الناس مثلما فعل الحبيب فأمسكوا على صيامهم، وفى اليوم الثانى من الخروج للجهاد، أجهدهم السير فى هجير الصحراء، وبلغ الحبيب ﷺ أن الناس قد شق عليهم الصيام، وكان وقت صلاة العصر قد حل، وهو على راحلته ،فطلب إناء به ماء، ورفعه لأعلى حتى يراه الناس جميعا وشرب، ثم ناوله لمن يجاوره فشرب، وشرب من يليه، وهكذا أفطر المسلمون .
فلما وصل جيش المسلمين بمر الظهران، وحل الظلام، أمر رسول الله ﷺ أن يوقد كل رجل نارا، فأوقدت عشرة آلاف نار، جعلت الصحراء وكأنها فى نور الظهيرة .
وكانت قريش فى قلق شديد من أن يغزوها رسول الله ﷺ، بعد أن عدوا على أهل عهد رسول الله، فخرج أبو سفيان بن حرب، ومعه اثنان من أصحابه، يستطلعون مشارف مكة، والتفت نبى الله ﷺ إلى من حوله، وأخبرهم بمكان أبى سفيان، وأمر بإحضاره هو ومن معه، فخرجت إليه جماعة من المسلمين، وعادت
به وبصحبه، فلما اقترب ورأى النيران، فزع فزعا شديدا، وتساءل قائلا :
ـ من القوم ؟!.
قالوا :
ـ هذا رسول الله ﷺ وأصحابه .
قال أبو سفيان فى عجب :
ـ هل سمعتم بمثل هذا الجيش، نزلوا على أكباد قوم لم يعلموا بهم .
.. ثم ساروا بهم إلى العباس عم رسول الله ﷺ، فأجار أبا سفيان وصاحباه، ثم صحبهم وذهب إلى المسجد، ودخل بهم على الحبيب، فدعاهم رسول الله ﷺ للإسلام فأسلم صاحبيه، وشهد أبو سفيان بأنه لا إله إلا الله، لكنه تردد فى أن يشهد بأن محمدا رسول الله، وقال :
ـ أما هذه ففى النفس منها شئ، فأرجئها .
فطلب رسول الله ﷺ من عمه العباس أن يبيته، ويعود به فى الصباح، فلما أذن لصلاة الصبح، ردد جند الله مع المؤذن، ففزع أبو سفيان، وقال :
ـ ما يصنع هؤلاء، أأمروا فى بشىء ؟!.
قال العباس ﷺ :
ـ كلا، بل هم يستعدون للصلاة .
قال :
ـ وكم يصلون ؟.
قال :
ـ خمس صلوات فى اليوم والليلة .

وأمره العباس بالوضوء فتوضأ، ودخل معه المسجد، فلما دخل رسول الله ﷺ الصلاة كبر، فكبر الناس، وركع فركعوا، ثم رفع فرفعوا، وسجد فسجدوا، فلما انتهوا، قال أبو سفيان فى إعجاب وعجب :

ـ ما رأيت كاليوم طاعة، قوم جمعهم من هنا وهنا، جعلهم ولا أهل فارس الأكارم، ولا الروم ذات القرون أطوع منهم؛ يا أبا الفضل، أصبح والله ملك ابن أخيك عظيما .

فقال له العباس ﷺ :

ـ إنه ليس بملك، ولكنها النبوة .

قال :

ـ أو ذاك .

ثم دخل به العباس ﷺ، على رسول الله ﷺ، فقال له :

ـ يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟.

قال أبو سفيان :

ـ بأبى أنت وأمى، ما أحلمك وأكرمك وأعظم عفوك، إنه لو كان مع الله إله لنصرنى، ولقد استنصرت إلهى، واستنصرت إلهك، وفى كل مرة، أرى أنك قد نصرت على .

قال رسول الله ﷺ :

ـ ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله .

قال له العباس يستحثه هامسا :

ـ ويحك اشهد قبل أن تضرب عنقك .

فشهد أبو سفيان شهادة الحق، ثم قال :

ـ يا رسول الله، جئت بأوباش الناس، من يعرف ومن لا يعرف، إلى أهلك وعشيرتك .

قال رسول الله ﷺ :

ـ أنتم أظلم وأفجر، لقد غدرتم بعهد الحديبية، وظاهرتم على بنى كعب بالإثم والعدوان فى حرم الله تعالى وأمنه .

قال أبو سفيان آسفا :

ـ صدقت يا رسول الله .

قال العباس ﷺ :

ـ يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب أن يحمد فى قومه، فاجعل له شيئا .

قال رسول الله ﷺ :

ـ من دخل دار أبى سفيان فهو آمن .

قال أبو سفيان :

ـ وما تسع دارى .

قال رسول الله ﷺ :

ـ ومن دخل المسجد فهو آمن .

قال أبو سفيان :

ـ وما يسع المسجد .

قال رسول الله ﷺ :

ـ ومن أغلق بابه عليه فهو آمن .

قال أبو سفيان فى ارتياح :

ـ هذه واسعة .

.. ولما أراد أبو سفيان العودة إلى مكة، حبسه العباس، فقال :

ـ اغدرا يا بنى هاشم ؟.

قال العباس ﷺ :

ـ آنا لسنا بغدر، ولكن أريدك أن تنظر إلى جند الله، وما أعد الله للمشركين .

.. وفى الصباح، مرت القبائل على قادتها والكتائب على راياتها، وقد أظهرت ما تحمل من سلاح، فأخذ أبو سفيان يسأل العباس كلما مر به قوم، والعباس يجيبه، فلما مر سعد بن عبادة براية رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء، ورأى أبا سفيان، قال :

ـ اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشا .

وحين اقترب رسول الله ﷺ من موقف أبى سفيان، قال :

ـ يا رسول الله، أمرت بقتل قومك، ألم تعلم بما قال سعد بن عبادة ؟!.

قال رسول الله ﷺ :

ـ وما قال ؟.

قال أبو سفيان ما قاله سعد، ثم أردف :

ـ وإنى أنشدك الله فى قومك، فأنت أبر الناس، وأوصل الناس، وأرحم الناس .

قال الحبيب ﷺ :

ـ كذب سعد يا أبا سفيان، اليوم يوم المرحمة، اليوم يوم يعظم الله فيه الكعبة، اليوم يوم تكسى الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشا .

وأخذ اللواء من سعد ودفعه إلى ابنه، بينما أسرع أبو سفيان يسبق الجميع حتى دخل مكة، واتجه إلى دار الندوة حيث تجمعت رجالات قريش، وصرخ بأعلى صوته :

ـ يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، أسلموا تسلموا، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه وصاحت فى الناس، قائلة :

ـ اقتلوا السمين الذى لا خير فيه، قبح من طليعة قوم .

فقال أبو سفيان :

ـ ويلكم، لا تغركم هذه من أنفسكم، فإن محمدا قد جاءكم بما لا قبل لكم به .

فانفض الناس من حوله، مسرعين كل إلى مهرب، ولكن إبليس نفث فى بعض الفتية من قريش ليهلكهم، فوسوس لهم :

ـ لا تدعوا محمدا يأخذ قريتكم غصبا، أو ليست هى بلدكم، ألستم السادة وورثة السادة، أتتركونها ليتيم، خرج من بينكم خوفا، وهو لا يملك شق تمرة، واليوم يأتى ليحكمكم ويضيعكم بين العرب، فلا تقوم لعزتكم بعدها قومة ؟!!.

.. وحاول سماع إبليس أن يقاتلوا جند الله، ولكن خالد بن الوليد سرعان ما كر عليهم، وهزمهم شر هزيمة، فقتل منهم من قتل، وفر الباقون إلى دورهم فغلقوا عليهم الأبواب، وهم فى هلع مما ينتظرهم من القتل، ولم يسمع عن مقاومة بعدها !!.

ـ ٣ ـ

حين أشرق رسول الله ﷺ على أبواب مكة، راكبا راحلته، تلقته الجن ترميه بالشرر، فقال له جبريل عليه السلام أن يتعوذ بهذه الكلمات الحافظات بأمر الله تعالى :

ـ " أعوذ بكلمات الله التامات، التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر، من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر ما بث فى الأرض، وما يخرج منها، ومن شر الليل والنهار، ومن شر كل طارق يطرق إلا بخير، يا رحمن ."

ودخل رسول الله ﷺ مكة، وقد حنى هامته شكرا لله تعالى، وقال :
ـ هذا ما وعدنى ربى .
ثم قرأ من سورة الفتح بصوت مسموع ثلاثا :
إِذَا جاءَ نَصْرِ اللَّهِ وَالْفَتْحِ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)
وسأله أسامة بن زيد :
ـ يا رسول الله، ألن تنزل فى دارك ؟.
قال ﷺ :
ـ وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دار .
.. ورفض رسول الله ﷺ أن ينزل بدور قريش، ونزل هو وزوجتاه : سلمة وأم ميمونة، فى قبة ضربت له بالجحون .
ورن إبليس رنة حزن عظيمة، سمعها كل أبنائه، فاجتمعوا إليه، فقال :
ـ أيئسوا أن تردوا أمة محمد إلى الشرك بعد يومكم هذا، ولكن أفشوا فيها النواح والشعر .
.. استراح رسول الله ﷺ قليلا، ثم اغتسل وركب ناقته، واتجه إلى الكعبة،
يحيط به أصحابه ويفسحون له الطريق من الناس الذين اجتمعوا من كل صوب، وهم ينزاحون سريعا، خوفا من إغضاب المسلمين، وطاف رسول الله ﷺ بالكعبة سبعا، وكان يستلم الركن بعصا قصيرة كانت فى يده، وكان يشير بها إلى الأصنام التى أحاطت بالبيت، كلما مر بصنم منها فى طوافه، فتسقط الأصنام على أقفيتها، وهو يقول :
ـ جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا .
.. وأكمل المسلمون تحطيم ما بقى من الأصنام .
.. فلما انتهى رسول الله ﷺ من طوافه، أرسل بلالا إلى عثمان بن طلحة يطلب منه مفتاح الكعبة، وكان عثمان قد أسلم قبل الفتح، فقال له :
ـ نعم، ولكن هو عند أمى سلافة .
فرجع بلال إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما قال عثمان، بينما أرسل عثمان إلى أمه برسول يطلب منها المفتاح، فقالت، وقد علمت بإسلامه :
ـ لا، واللات والعزى، لا أدفعه إليك أبدا .
وقال عثمان لرسول الله ﷺ :
ـ يا رسول الله، أرسلنى أخلصه لك منها .
فأرسله ﷺ، فقال عثمان لأمه :
ـ يا أمه، ادفعى إلي المفتاح، فإن رسول الله ﷺ، قد أرسل إلى وطلب منى أن آتيه به .
فقالت :
ـ لا، واللات والعزى لا أدفعه إليك أبدا .
فقال عثمان :
ـ لا، لات، ولا عزى، إنه قد جاء أمر غير ما كنا عليه، وإنك إن لم تفعلى، قتلت أنا وأخى، فأنت قتلتنا، فو الله لتدفعنه أو ليأتى غيرى فيأخذه منك .
فأعطته المفتاح، وذهب به إلى رسول الله ﷺ، فتناوله منه، وفتح به باب الكعبة، ودخلها، وأخذ يكبر، ويحمد الله، ثم صلى بها ركعتين، وقام يتأمل جدرانها، فوجد تمثالا لحمامة فحطمه، كما رأى صورا للملائكة، ولإبراهيم عليه السلام وبيده الأزلام يستقسم بها، فقال ﷺ :
ـ قاتلهم الله، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام، ما شأن إبراهيم الأزلام، ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا، ولكن كان حنيفا مسلما، وما كان من المشركين .

.. ثم طلب من أصحابه محو تلك الصور .

وحين أطل رسول الله ﷺ من باب الكعبة، تعلقت به عيون القرشيين فى خوف، يترقبون ما سينزله بهم من عقاب، جزاء ما قدمت أيديهم من إساءات لرسول الله وصحبه، أما أولئك الذين قسوا واشتدوا على النبى ﷺ أيام أن كان يقيم بينهم، فحاربوه وآذوه بالفعل والقول الظالم تطاولا علي دين الله، وعلى نبى الله ﷺ بالكذب والبهتان والسوء، فقد هربوا لائذين بذرى الجبال، أو فروا خارجين من مكة، وقد قصد بعضهم القبائل التى ما تزال على غير الإسلام يحتمون بها، بينما رأى البعض الآخر ممن يخافون على أنفسهم العذاب، أن يطلب البحر خلاصا من حياته، خوفا من أن ينزل به المسلمون ما كان ينزله بهم من تعذيب .

وتدافع الناس من حول رسول الله ﷺ، فراح خالد بن الوليد يدفعهم عنه حتى نزل من باب الكعبة، ووقف رسول الله ﷺ صامتا، متأملا فضل الله تعالى عليه، وفى صدق وعد الله تعالى له، ولقد مرت هذه اللحظات على أهل مكة، وكأنها السنوات الطوال، فلما انتهى رسول الله ﷺ، قال :

ـ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده .

.. ثم التفت إلى أهل مكة، وقال :

ـ يا معشر قريش، ماذا تقولون، ماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟.

قال القرشيون فى نفس واحد :

ـ نقول خيرا، ونظن خيرا : نبى كريم، وأخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت .

فقال الحبيب ﷺ :

ـ فإنى أقول كما قال أخى يوسف لاخوته : " لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الرحمين "، اذهبوا فأنتم الطلقاء .

.. وما إن انتهى الحبيب محمد ﷺ من كلامه، إذا بمكة ترتج بالتكبير، وإذا بالقرشيين يدخلون فى دين الله أفواجا، وانقلب الحال، فانكب الكارهون والمحاربون لدين الله تعالى، على رسول الله ﷺ وهو على الصفا يعلنون إسلامهم، فجعل يقبل عليهم، فيضعون أيديهم فى يده، ويأخذ عليهم عهدا بالسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس أمامه، وحين انتهى، تحدث الحبيب ﷺ، فقال :

ـ ألا كل ربا فى الجاهلية أو دم مأثرة أو مال يدعى، فهو تحت قدمى هاتين، ألا وفى قتيل العصا والسوط والخطأ شبه العمد دية مغلظة مائة ناقة، منها أربعون

فى بطونها أولادها، ألا وإن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتكبرها بآبائها، كلكم لآدم وآدم من تراب :" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ."

يا أيها الناس، الناس رجلان : فبر تقى كريم، وكافر شقى هين على الله تعالى، ألا إن الله تعالى حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، ووضع هذين الأخشبين، فهى حرام بحرام الله، لم تحل لأحد كان قبلى، ولن تحل لأحد كائن بعدى، لم تحل لى إلا بساعة من نهار يقصرها بيده هكذا، ولا ينفر صيدها، ولا يعضد عضدها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد، ولا يختلى خلاها، إلا الأزخر فإنه حلال، ولا وصية لوارث، وإن الولد للفراش، وللعاهر الحجر، ولا يحل لامرأة أن تعطى من مال زوجها إلا بإذن زوجها، والمسلم أخو المسلم، والمسلمون اخوة، والمسلمون يد واحدة على من سواهم، تتكافأ دماؤهم، وهم يرد عليهم أقصاهم، ويعقل عليهم أدناهم، ومشدهم على مضعفهم، ومثريهم على قاعدهم، ولا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهد فى عهد، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا جلب ولا جنب، ولا تؤخذ صدقات المسلمين إلا فى بيوتهم وأفنيتهم، ولا تنكح المرأة على عمتها، ولا على خالتها، والبينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاث إلا مع ذى محرم، ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح،

وأنهاكم عن صيام يومين : يوم الأضحى، ويوم الفطر، وعن لبستين : ألا يحتبى أحدكم فى ثوب واحد يفضى بعورته إلى السماء، وألا يشتمل الصماء .

.. فقام رجل فقال :

ـ يا رسول الله ﷺ، إنى قد عاهرت فى الجاهلية .

فقال رسول الله ﷺ :

ـ من عاهر بامرأة لا يملكها، أو أمة قوم آخرين لا يملكها، ثم ادعى ولده بعد ذلك فإنه لا يجوز له، ولا يرث، ولا يورث، ولا أخالكم إلا قد عرفتموها .

.. يا معشر المسلمين : كفوا السلاح، وأستغفر الله تعالى لى ولكم .

ـ ٤ ـ

وأقبلت النساء يعلن دخولهن فى دين الله تعالى، ونبذهن لعبادة ما دون الله تعالى من صنم وطاغوت، ولم يصافحن رسول الله ﷺ، فلم يكن يمس جلده جلد امرأة لم يحلها الله تعالى له، وكانت بين النساء : هند بنت عتبة، امرأة أبى سفيان، وقد تنقبت متخفية عن رسول الله ﷺ خوفا مما فعلته بعمه حمزة، فقال لهن :

ـ بايعننى على ألا تشركن بالله شيئا، ولا تسرقن ..

فقالت هند بصوت مسموع :

ـ والله إنى كنت أصبت من مال أبى سفيان الهنة بعد الهنة، وما كنت أدرى أكان ذلك حلالا أم حراما .

فقال لها أبو سفيان :

ـ أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل، عفا الله عنك .

قال رسول الله ﷺ :

ـ ولا تزنين .

قالت هند :

ـ يا رسول الله، أو تزنى الحرة ؟!!!.

قال رسول الله ﷺ :

ـ ولا تقتلن أولادكن .

فقالت هند :

ـ قد ربيناهم صغارا، وقتلتهم كبارا، فأنت وهم أعلم .

فتبسم رسول الله ﷺ، وضحك عمر •، واستطرد ﷺ، فقال :

ـ ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن .

فقالت هند :

ـ والله إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل .

قال رسول الله ﷺ :

ـ ولا تعصين .

قالت هند :

ـ .. فى معروف .

فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب • :

ـ با يعهن واستغفر لهن الله، إن الله غفور رحيم .

قالت هند بنت عقبة :

ـ الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه، لتمسنى رحمتك يا محمد، إنى امرأة مؤمنة بالله، مصدقة به ..

.. ثم كشفت عن وجهها، واستطردت :

ـ يا رسول الله، أنا هند بنت عتبة .

فقال النبى ﷺ :

ـ مرحبا بك .

قالت هند :

ـ يا رسول الله، ما كان من أهل الأرض أريد أن يذلوا إلا ناسك، ثم ما أصبح اليوم على وجه الأرض ناس أحب إلى من أن يعزوا من أهلك .

وحين انتهت بيعة النساء، استجارت برسول الله ﷺ نساء الفارين من رجال قريش، وطلبن منه العفو عن أزواجهن، فعفا ﷺ عنهم، فعادوا ودخلوا فى دين الله راغبين غير مجبرين .

.. ولما سمع النواح على الذين قتلوا من قريش، جاء سفيان بن حرب، وقال لرسول الله ﷺ :

ـ فداك أبى وأمى، البقية فى قومك .

قال رسول الله ﷺ :

ـ لا يقتل قريشى صبرا بعد اليوم .

ونادى منادى رسول الله ﷺ :

ـ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدع فى بيته صنما إلا كسره .

.. وكسرت قريش أصنامها .

ـ ٥ ـ

لما رأى الحبيب ﷺ، حال الفاقة التى أصبح عليها فقراء المسلمين، ممن حضروا الفتح، لأنهم لم يغنموا من مكة شيئا، أرسل إلى صفوان بن أمية ليقترضه خمسين ألف درهم، وإلى عبد الله بن أبى ربيعة ليقرضه أربعين ألف درهم، وإلى حويطب بن عبد العزى ليقرضه أربعين ألف درهم ؛ فأقرضوه، فأخذ يوزعها بين أصحابه من أهل الضعف .

ولقد سرقت امرأة فى الفتح، فقال أهلها :

ـ من يكلم فيها رسول الله متشفعا ؟.

واتفقوا على أن يكلمه أسامة بن زيد، فلما تكلم إلى رسول الله ﷺ، تلون وجهه، وقال :

ـ يا أسامة، أتشفع فى حد من حدود الله ؟!.

قال أسامة :

ـ يا رسول الله، استغفر لى .

فلما كان وقت العشاء، صلى رسول الله ﷺ بالمسلمين، ثم خطبهم قائلا بعد أن اثنى على الله تعالى بما هو أهله :

ـ أما بعد، فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذى نفسى بيده،لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

وقال رسول الله ﷺ :

ـ لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا .

وتخوف الأنصار من أن يحن رسول الله ﷺ إلى أهله فيبقى بمكة، ولا يعود معهم إلى المدينة، فسألوه، فقال لهم ﷺ :

ـ معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم .

لما فتح الله تعالى لرسوله ﷺ مكة، تنافرت قبيلتا هوزان وثقيف، وتنادوا للحرب، وقال أصحاب الرأى فيهما :

- قد فرغ لنا، فلا ناهية له دوننا، والرأى أن نغزوه، وإن محمدا لم يلق قوما أهل حرب، وإنه علينا أن نرده عن باقى العرب، ونحرر القرشيين من كيده.

وكان دريد بن الصمة هو صاحب الرأى فيهم، وقد بلغ من العمر مائة وستين عاما، وفقد بصره، لكنه عرف بينهم بالشجاعة والإقدام والدهاء ؛ فلما أجمعوا رأيهم على حرب محمد ﷺ، ولوه رئاستهم، فقال لهم :

- وماذا وقد عمى بصرى وما استمسك على ظهر فرس، ولكن أحضر معكم على أن أشير عليكم على ألا أخالف، فإن كنتم تظنون أن أخالف أقمت ولم أخرج .

قالوا له :

- لا نخالفك فى أمر تراه .

فاتفقوا على أن يجعلوا كمينا لجيش المسلمين فى الجبل، حتى إذا ما كر المسلمون عليهم، نزل الكمين من الأجناب وفاجأهم، فيتشتت جيش المسلمين .

وبلغ رسول الله ﷺ خبر هوزان، وما أجمعوا عليه، فجمع أصحابه، من أهل المدينة ومكة، فقالوا وقد أعجبتهم كثرتهم :

- الآن نقاتل حين اجتمعنا، لن نغلب من قلة .

.. فشق ذلك على رسول الله ﷺ، ولم يعقب .

وأرسلت هوزان جواسيسها، فتفرقوا بين المسلمين، ولقد رأى أحدهم رسول الله ﷺ نائما تحت شجرة وقد علق قوسه وسيفه فى غصن من أغصانها، فاقترب منه يريد أن يأخذه غيلة، ولما انتبه نبى الله ﷺ، والرجل قائم بالسيف على عنقه يسأله فى غلظة وكبر، قائلا :

- يا محمد، من يمنعك اليوم منى ؟.

قال نبى الله ﷺ :

- الله تعالى .

فسقط السيف من يد الكافر، فحمل عليه رسول الله ﷺ، فشل حركته، ثم نادى أحد صحابته، وقص عليه ما حدث، فقال الصحابى :

- يا رسول الله، دعنى أضرب عنق عدو الله، فإنه من عيون المشركين .

فمنعه، وأطلق الرجل، وقال :

- إن الله تعالى، مانعى وحافظى، حتى يظهر دينه على الدين كله .

.. وعادت إلى هوزان عيونهم، وقد أصابهم الرعب، وقالوا :

- رأينا رجالا بيضا على خيل بلق، والله ما أصابنا إلا ما تروننا عليه، والله ما نقاتل أهل الأرض، إن نقاتل إلا أهل السماء، وإن أطعتمونا رجعنا بقومنا .

.. ولكن إبليس وسوس لمن استمعوا إليهم بأنهم واهمون، وقال لهم انشروا جندكم على جانبى الوادى ومن تحته، واتركوا الإبل والغنم والنساء والصبيان فى الوادى، ليتوهم المسلمون أنهم الجند ؛ وأقبل جيش المسلمين مع خيوط الفجر منحدرا إلى وادى حنين، فما إن وطئوا أرض الوادى، حتى استقبلتهم جنود هوزان بالنبل من على الأجناب، وكان فى المقدمة ألفان من فتية قريش لا خبرة لهم بالحرب، ففروا سراعا، وانكشف جند المسلمين متراجعين، وثبت رسول الله ﷺ فلم يتقهقر خطوة واحدة،وقال :

- اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان .

.. ثم تقدم مخترقا صفوف المشركين، ونادى منادى رسول الله ﷺ على الأنصار، قائلا :

- يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة .

.. ونادى على المهاجرين، قائلا :

ـ يا أيها الذين بايعوا تحت الشجرة .

.. فإذا المهاجرين والأنصار يكرون ملبين، ويحيطون برسول الله ﷺ، إحاطة المشتاق الذى يبغى اللقاء والفداء، ورمى الحبيب ﷺ بحفنة من الحصى فى وجوه أعداء الله، وقال :

ـ شاهت الوجوه، حـم لا ينصرون .

.. فإذا بالدائرة تدور على الكفار فينقلبوا خاسرين، ما بين قتيل وأسير، وفرت القلة الناجية إلى الطائف ؛ ومكن الله تعالى رسوله ﷺ منهم، وجعل لـه أمـوالهم، فأعطاهـا للمؤلفـة قلـوبهم مـن أشراف العـرب، فمنهم من أعطى مائة بعير وأكثر، ومنهم من أعطاه خمسين .

ولما لاحظ الأنصار أن رسول الله ﷺ لم يعطهم شيئا من الغنم، قال قائلهم :

ـ يغفر الله تعالى لرسوله ﷺ، إن هذا لهو العجب، يعطى قريشا، ويتركنا وسيوفنا تقطر مـن دمـائهم ؛ إذا كانت شديدة، فنحن ندعى، ويعطى الغنيمة لغيرنا، ووددنا أنا نعلم ممن كان هذا ؟.. فإن كان من أمر الله تعالى صبرنا، وإن كان من أمر رسول الله ﷺ استعتبناه .

فبعث رسول الله ﷺ إلى الأنصار فجمعهم، وقال :

ـ ألا تجيبون يا معشر الأنصار ؟.

قالوا :

ـ وما نقول يا رسول الله ؟.. وماذا نجيبك، المن لله تعالى ولرسوله ﷺ .

قال نبى الله ﷺ :

ـ والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصدقتكم : جئتنا طريدا فآويناك، وعائلا فواسيناك، وخائفا فأمنـاك، ومخذولا فنصرناك، ومكذبا فصدقناك .

قالوا :

ـ المن لله تعالى ولرسوله ﷺ .

قال الحبيب محمد ﷺ :

ـ وما حديث بلغنى عنكم ؟!.

قالوا :

ـ أما رؤساؤنا، فلم يقولوا شيئا، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا يغفر الله تعالى لرسوله ﷺ : يعطى قريشا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم ..

فقال الحبيب ﷺ :

ـ إن قريشا حديثو عهد بجاهلية ومصيبة، وإنى أردت أن أجبرهم وأتألفهم ؛ أوجدتم يا معشرـ الأنصـار فى أنفسكم لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله تعالى لكم من الإسلام، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير، وتذهبون برسـول اللـه إلى رحـالكم تحوزونه إلى بيوتكم ؟.. فوالله لمن تنقلبون به خير مما ينقلبـون بـه، فوالـذى نفسىـ بيـده لـو أن النـاس سلكوا شعبا وسلكت الأنصار شعبا، لسلكت شعب الأنصـار، أنـتم الشـعار، والنـاس دثـار، الأنصـار كـرشى وعيبتى، ولولا أنها الهجرة لكنت امرأ من الأنصار : اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار .

فبكى الأنصار حتى ابتلت لحاهم بالدمع، وقالوا :

ـ رضينا بالله تعالى ورسوله ﷺ حظا وقسما .

وأراد رسول الله ﷺ أن يكتب لهم خراج البحرين من بعده، فقال الأنصار :

ـ لا حاجة لنا بالدنيا بعدك .

فقال الحبيب ﷺ :

ـ إنكم ستجدون بعدى أثرة شديدة، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض .

.. وأرسل نبى الله ﷺ بمن رد القرض إلى الثلاثة الذين أقرضوه حين فتح مكة، قائلا لكل فرد منهم :
ـ بارك الله لك فى مالك وولدك .
ثم قال ﷺ لمن حوله معلما :
ـ إنما جزاء السلف، الحمد والأداء .

ـ ٧ ـ

.. زحف جند الله إلى الطائف، يقودهم رسول الله ﷺ، فأشار كبيرهم عبد يا ليل على أهلها أن يلجوا إلى الحصون، فتزودوا بقوت كثير يكفيهم لعام، وحين حاصرهم المسلمون أعلنوا أنهم لن يفتحوا حصونهم، ولن يدخلوا فى دين الله، وتراشقوا بالنبل والحجارة، ثم انصرف المسلمون عائدين، بعد أن سأل رسول الله ربه أن يكفيه حربهم، وأن يقدموا عليه مسلمين، وهذا ما كان، وبدأ بلجوء من فر من سادة هوزان وثقيف إلى رسول الله ﷺ معلنين إسلامهم، فردت إليهم نساؤهم وعيالهم .

وأثناء العودة إلى المدينة لحق عروة بن مسعود الثقفى برسول الله ﷺ، وأعلن إسلامه، ثم طلب من رسول الله ﷺ أن يأذن له بالعودة إلى قومه بالطائف ليدعوهم للدخول فى دين الله ، ولكن النبى ﷺ رفض مرارا،فلما ألح عروة قال له النبى ﷺ:
ـ إنهم قاتلوك .
قال عروة :
ـ كيف يا رسول الله، لأنا أحب إليهم من أبكار أولادهم ؟!..
فقال له رسول الله ﷺ :
ـ إن شئت فاخرج .
وعاد عروة إلى الطائف، وهو مستبشر بدخول قومه فى دين الله .

وعسكر رسول الله ﷺ بمنطقة الجعرانة، ثلاث عشرة ليلة، نوى خلالها بعمرة، ونزل إلى مكة فطاف على رجليه وسعى على راحلته، ثم رجع إلى عسكره فى ليلته، وولى عتاب بن أسيد على مكة وهو ابن واحد وعشرين سنة، ومعه معاذ ابن جبل وأبو موسى الأشعرى، يعلمان الناس القرآن والشريعة .

.. وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة، فلما أهل عليها قال :
ـ هذه طابه .

وماتت زينب ابنة الحبيب محمد رضى الله عنها، فلقد ظلت عليلة الصحة منذ عادت من مكة مجهضة نتيجة ما فعله بها خسيسان من مشركى قريش، فأوقعاها من فوق راحلتها، وحزن الحبيب ﷺ لفراقها حزنا شديدا، وكذا لم يبق له من الأبناء غير فاطمة الزهراء رضى الله عنها، ولكن الله تعالى أراد أن يسرى عنه، ففى شهر ذى الحجة من سنة ثمان للهجرة، رزقه الله تعالى بابنه إبراهيم من مارية القبطية، فسر بمولده سرورا عظيما .

.. ولكن ما هى إلا شهور، ومرض إبراهيم مرضا خيف على حياته منه، فقامت أمه مارية، وأختها سيرين على تطبيبه، وأرسل إلى الحبيب ليحضر لحظاته الأخيرة، فذهب متحاملا على عبد الرحمن بن عوف، ونفسه تقطر ألما، وحين وجد فلذة كبده يرسل زفراته غير منتظمة، وضعه فى حجره، وفاض حنانه ودمعه، وقال فى أسى:
ـ إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئا .
فلما، حتى أتاه ملك الموت، ورفع روحه الطاهرة إلى بارئها، وسكتت أنفاسه، وسكن جسده، قال ﷺ :
ـ يا إبراهيم، لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، وأن آخرنا سيلحق بأولنا، لحزنا عليك أشد من هذا.
وعلى قبره، قال الصابر الرحيم ﷺ :
ـ تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى الرب، وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونون

.. فلما أشفق عليه أصحابه لشدة حزنه، ذكروه بنهيه عن إظهار الحزن، قال الحبيب ﷺ :

ـ ما عن الحزن نهيت، وإنما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء، وإن ما ترون بى أثر ما فى القلب من محبة ورحمة، ومن لم يبد الرحمة، لم يبد غيره عليه الرحمة .

ـ ٨ ـ

السنة : التاسعة من الهجرة ..

سميت هذه السنة بسنة الوفود لكثرة ما وفد على المدينة من وفود العرب، قادمة من كل حدب، قاصدة عهد رسول الله ﷺ، والدخول فى دين الله، وبعث رسول الله ﷺ ليجمع الزكاة من الذين آمنوا من العرب، فدفعوها راضين، إلا ما كان من بنى تميم، وكانوا على غير الإسلام، فلم يدفعوا الجزية، فلقد استكثروا الصدقات التى جمعت، فشهروا سيوفهم ومنعوها، فبلغ رسول الله ﷺ ما حدث، فبعث عيين بن حصن الفزارى فى خمسين فارسا لحرب بنى تميم، فوجد بنو خزاعة قد طردوهم من ديارهم، فسار فى أثرهم، فلما رأوه هربوا بعد أن أخذ منهم أحد عشر رجلا وأحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا، فجاء بهم أسرى إلى المدينة .

وقدم وفد من كبار بنى تميم، ودخلوا المسجد قبل الظهر، وكان رسول الله ﷺ بمنزل عائشة، فنادوه من وراء الحجرات طالبين خروجه إليهم، فخرج إليهم وجلس فيهم وقد آذاه صياحهم .

وتحدث خطيبهم فقال :

ـ الحمد لله الذى له الفضل علينا، والذى جعلنا ملوكا، وأعطانا الأموال نفعل فيها المعروف، وجعلنا أهل المشرق وأكثرهم مالا، وأكثرهم عددا، فمن مثلنا فى الناس، ألسنا برءوس الناس ؟.. وذوى فضلهم ؛ فمن يفاخر فليعدد مثلما عددنا، ولو شئنا لأكثرنا من الكلام، ولكنا نستحى من الإكثار فيما أعطانا الله، أقول قولى هذا، لأن نؤتى بقول هو أفضل من قولنا .

فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس أن يقوم ليرد عليهم، فقام، وقال :

ـ الحمد لله الذى السماوات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كل شىء علمه، فلم يكن شىء إلا من فضله، ثم كان ما قدر أن جعلنا ملوكا، ولكن اصطفى لنا من خلقه رسولا، أكرمهم نسبا، وأحسنهم زيا، وأصدقهم حديثا، نزل عليه كتابه، وأئمنه على خلقه، وكان خيرته من عباده، فدعا إلى الإيمان، فآمن به المهاجرون من قومه، وذوى رحمه، أصبح الناس وجها، وأفضل الناس فعالا، ثم كنا أول الناس إجابة حين دعا رسول الله، فنحن أنصار الله ورسوله، نقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه، ومن كفر بالله ورسوله جاهدناه فى ذلك، وكان قتله علينا يسيرا، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم، وللمؤمنين والمؤمنات .

واختلى وفد تميم فتشاوروا، ثم خرجوا إلى رسول الله ﷺ معلنين إسلامهم، وأطلق رسول الله ﷺ سباياهم من الرجال والنساء، ورد عليهم صبيانهم .

وفى شهر رجب من هذه السنة مات النجاشى، وأخبر نبى الله ﷺ بموته من السماء، فصلى عليه صلاة الغائب .

وفى ذات الشهر، جاءت بعض الوفود بخبر خروج الروم واحتشادهم لحرب المسلمين، وحض رسول الله ﷺ المسلمين على النفقة فى سبيل الله تجهزا للقتال، فكان أول من حمل صدقته أبو بكر الصديق •، فسأله الحبيب ﷺ :

ـ هل أبقيت شيئا لأهلك ؟.

فأجاب الصديق، قائلا :

ـ أبقيت لهم الله ورسوله .

ولقد حاول المنافقون، وكانوا يجتمعون فى بيت ليهودى، أن يثبطوا من همم المسلمين، فقالوا لا تنفروا فى الحر، فلما لم يستجيبوا لقولهم، قالوا : إن موسم حصاد ما زرعتم قد حان، أفتتركون زرعكم من أجل حرب ستنقلب عليكم وبالا ؟!.

وحين سمع رسول الله ﷺ بمكرهم، أرسل بمن يحرق دار النفاق، فخاف أهل النفاق وكفا الله المؤمنين أذاهم.

وسار رسول الله ﷺ فى ثلاثين ألفا، فيهم عشرة ألاف فرس،واثنا عشر ـ ألف بعير؛ وفى الطريق تخلف أناس من المنافقين واليهود، وعجز جمل أبى ذر الغفارى عن حمله، فتركه وحمل متاعه على ظهره، وسار حتى لحق برسول الله، وقد أصابه الإجهاد والعطش، فقال له رسول الله ﷺ :

ـ مرحبا بأبى ذر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده .

.. وحين وصل رسول الله ﷺ تبوك، خطب فى المسلمين، فقال بعد أن حمد الله تعالى بما هو أهل له :

ـ أيها الناس، فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم، وخير السنن سنن محمد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عواقبها، وشر الأمور محدثتها، وأحسن الهدى هدى الأنبياء، وأشرف القتل قتل الشهداء، وأعمى الضلالة الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدى ما أتبع، وشر العمى عمى القلب، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى، وشر المعذرة حين يحضر الموت، وشر الندامة يوم القيامة، ومن الناس من لا يأتى الجمعة إلا نذرا، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرا، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله، وخير ما ألقى فى القلب : اليقين، والارتياب من الكفر، والنحاحة من عمل الجاهلية، والغلول من جمر جهنم، والشكر كن من النار، والشعر من إبليس، والخمر جماع الإثم، والنساء حبالة إبليس، والشباب شعبة من الجنون، وشر المكاسب كسب الربا، وشر المال أكل مال اليتيم، والسعيد من وعظ بغيره، والشقى من شقى فى بطن أمه، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربع أذرع والأمر إلى آخرة، وملاك العمل خواتمه، وشر الرؤيا رؤيا الكذب، وكل ما هو آت قريب، وسباب المؤمن فسوق، وقتل المؤمن كفر، وأكل لحمه من معصية الله، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن يتأل على الله يكذبه، ومن يعف يعف الله عنه، ومن يكظم الغيظ يؤجره الله، ومن يصبر يضاعف الله له، ومن يعص الله يعذبه ؛ اللهم اغفر لى ولأمتى، اللهم اغفر لى ولأمتى، أستغفر الله لى ولكم .

ولما انتهى رسول الله ﷺ، طاف على ناقته بالناس، وهو يقول : " يا أيها الناس، يد الله فوق يد المعطى، ويد المعطى الوسطى، ويد المعطى السفلى، أيها الناس، استغنوا عن سؤال الناس ولو بحزم حطب، اللهم قد بلغت، اللهم قد بلغت، اللهم قد بلغت .

ومات بتبوك عبد الله بن عبد نهم المزنى، وهو شاب أسلم تاركا كل خير عمه، وفضل أن يأتى إلى رسول الله ﷺ مسلما، على أن يبقى فى نعيم الدنيا، فجاء وهو ملتف فى قطعتى قماش، بعد أن جرده عمه من ثوبه، وقد نزل الحبيب ﷺ قبره، ووسده بيديه الشريفتين، ودعا له قائلا :

ـ اللهم، إنى أمسيت عنه راضيا، فارض عنه .

ويقول عبد الله بن مسعود • فى ذلك :

ـ يا ليتنى كنت صاحب هذا اللحد .

بعث رسول الله ﷺ بالعيون يتحسسون جموع الروم، فعادوا قائلين أنهم لم يجدوا أثرا لجمعهم، وتبين أن ما قيل لم يكن صدقا، فتشاور رسول الله مع أصحابه، فسألوه :

ـ إن كنت أمرت بالسير فسر .

فقال ﷺ :

ـ لو أمرت به ما استشرتكم فيه .

.. استقر العزم على العودة، وخلال ذلك أمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد أن يأتيه بأكيدر ملك كنده، فسأله خالد عاجبا : كيف يأتى به وهو بين أهله، وليس مع
خالد غير أربعين فارسا، فأخبره نبى الله ﷺ بأنه سيجده يصيد البقر، فليأخذه ولا يقتله، وليأت به
وحين وصل ابن الوليد، كان القمر مكتملا، وجاءت البقر تتمسح بحصن أكيدر فخرج إليها على فرسه وبيده رمحه، وظهر خالد ومن معه من مكمنهم، وجاءوا به إلى رسول الله ﷺ، فحقن دمه وصالحه على الجزية وأعطاه عهد الأمان، بعد
أن رفض الدخول فى الإسلام، فلما سمعت أهل آيل وتيماء وما حولها بما حدث، جاءت وفودهم، فصالحهم رسول الله ﷺ على الجزية وأعطاهم عهد الأمان .
.. وفى طريق العودة، شكا الناس شدة الجوع بعد أن نفد زادهم، وطلبوا من رسول الله ﷺ أن يأذن لهم فى ذبح عيرهم، فأذن لهم، فلما رأى عمر بن الخطاب • ما يفعله الناس، ذهب إلى رسول الله محذرا من أن يفاجئهم العدو وهم مجهدون من السير، وقال له :
ـ يا رسول الله، اطلب منهم أن يأتوك بما تبقى لديهم من زاد، وأدع الله تعالى
فيه بالبركة، فإن الله يستجيب لك .
وبارك الله فيما تبقى من طعام المسلمين، فكفاهم حتى وصلوا إلى المدينة، ولم يذبحوا ركائبهم .

ـ ٩ ـ

.. وما إن أهل شهر رمضان حتى أقبل وفد من الطائف يتقدمهم عبد يا عين، ولم
يكن بينهم عروة الثقفى، فلقد تحققت فيه نبوءة نبى الله ﷺ، فلقد رماه قومه بالنبل حين سمعوه يؤذن للصلاة، فأصابوا كاحله فظل ينزف حتى مات، وسأله قومه قبل أن يموت، ليحدد لهم ممن يؤخذ ثأره :
ـ ما ترى فى دمك ؟ .
قال عروة ﷺ :
ـ هو كرامة أكرمنى بها الله، وشهادة ساقها الله إلى، فليس فى إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنونى معهم .
فدفنوا عروة مع من أستشهد بالطائف، فلما بلغ الأمر رسول الله ﷺ، قال :
ـ " مثل عروة، مثل صاحب يس : دعا قومه إلى الله تعالى فقتلوه ."
وقال الناس حين رأوا وفد ثقيف يدخل المسجد :
ـ يا رسول الله، أيدخلون المسجد وهم مشركون .
فقال ﷺ :
ـ إن الأرض لا ينجسها شىء .
وأمر أن تضرب لهم ثلاث خيام بناحية من المسجد، فكانوا يستمعون إلى ما يتلى
من القرآن فى الصلوات، وإلى خطب رسول الله ﷺ، وظلوا على هذا الحال أياما، ورسول الله ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، وهم مترددون، بينما شرح الله قلب عثمان بن أبى العاص، وهو أصغرهم سنا، فكانوا إذا أخلدوا إلى النوم، ذهب إلى رسول الله ﷺ فسأله فى أمور الدين، حتى فقه وأعلن إسلامه، وحين أراد الوفد العودة، سأل
عبد يا ليل رسول الله ﷺ، قائلا :
ـ ألن تصالحنا حتى نرجع إلى قومنا ؟.
قال رسول الله ﷺ :
ـ إن أنتم أقررتم بالإسلام، قاضيتكم، وإلا فلا قضية ولا صلح بينى وبينكم .
فقال عبد يا ليل :

ـ إن أقررنا، أرأيت أن تبح لنا الزنا، فإنا قوم عزاب ولا يصبر أحدنا على العزبة، ولابد لنا منه.
قال رسول الله ﷺ :
ـ هو مما حرم الله .
قال عبد يا ليل :
ـ أرأيت أن تترك لنا الربا ؟.
قال ﷺ :
ـ الربا حرام .
قال عبد يا ليل :
ـ فإن أموالنا كلها ربا .
قال ﷺ :
ـ لكم رءوس أموالكم .
قال عبد يا ليل :
ـ أرأيت الخمر، فإنها عصير أعنابنا، ولابد لنا منها ؟.
قال ﷺ :
ـ فإن الله حرمها .
قال عبد يا ليل :
ـ أفرأيت أن تدع لنا معبودتنا الطاغية، فلا تهدمه ثلاث سنين ؟.

.. فرفض رسول الله ﷺ، فأخذوا ينقصون المدة سنة فسنة، ورسول الله ﷺ يرفض، حتى وصلوا إلى شهر حتى لا يروعوا قومهم بهدمه منذ اللحظة الأولى من دخولهم فى الإسلام، فرفض رسول الله ﷺ أن يحدد مدة تترك فيها معبودتهم، فسألوه ألا تكسر أصنامهم بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ :

ـ هذه نعفيكم منها .

وأسلم الوفد، وصاموا ما باقى من أيام رمضان، وشاركوا المسلمين فى صلاتهم، وكتب رسول الله لهم كتاب أمان، وأمر عليهم أسبقهم إلى الإسلام وأصغرهم سنا، وأوصاه قائلا :

ـ يا عثمان، تجاوز فى الصلاة، وأقدر الناس بأضعفهم، فإن فيهم الكبير والصغير، والضعيف وذا الحاجة، واتخذ مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجرا .

.. ودخل أهل الطائف فى دين الله أفواجا، وحسن إسلامهم .

ـ ١٠ ـ

وفى شهر ذى القعدة مات رأس الكفر عبد الله بن أبى بن سلول، بعد أن اشتد عليه المرض عشرين يوما، ولقد عاده فى مرضه رسول الله ﷺ، وحين مات وضع فى موضع الجنائز، وتقدم رسول الله ﷺ ليصلى عليه، فاعترض عمر ﷺ ، قائلا :

ـ يا رسول الله، أتصلى على عدو الله، القائل كذا يوم كذا، والقائل كذا ...

وأخذ عمر بن الخطاب يعدد ما قال، فقال له الحبيب ﷺ :

ـ يا عمر، أخر عنى، فإنى خيرت، فاخترت، قد قيل لى :" استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ."، فلو أعلم أنى زدت على سبعين غفر له لزدت .

وصلى عليه، وحضر دفنه، وعزى ابنه عبد الله ﷺ وانصرف، ونزل قول الله تعالى من سورة التوبة : وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤)

.. ومنذ نزلت هذه الآية، لم يصل رسول الله ﷺ على أحد مات من المنافقين .

وحين أذن فى الناس بالحج كره رسول الله ﷺ الخروج بالناس، لأنه كان قد عاهد بعض الكافرين على أن يسمح لهم بالحج مع المسلمين فى عامهم هذا، ولقد كان كثير منهم يطوفون بالبيت وهم عراة كما ولدتهم أمهاتهم، ظانين أنهم بفعلهم هذا إنما يزدادون تقربا للبيت ويزيدونه بذلك تعظيما !! .

.. اختار رسول الله ﷺ أبا بكر ﷺ، وأمره على الحجيج، وأوصاه النبى ﷺ بمخالفة الكفار، وعلمه المناسك، فخرج فى ثلاثمائة رجل، وهو مفرد بالحج، وقد صحب معه الهدى، وبعد خروجه من المدينة، نزلت سورة التوبة على نبى الله ﷺ، فأرسل عليا ﷺ ليلحق بأبى بكر ويصحبه فى الحج، وليقرأ السورة على الناس بعد تمام الحج .

ولما وصل أبو بكر مكة، خطب فى الناس بعد صلاة الظهر قبل يوم التروية بيوم، وحين زاغت الشمس من يوم التروية طاف بالبيت سبعا، ثم ركب راحلته واتجه إلى منى وصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء وبات فيها، ثم صلى الصبح، ومع مشرق الشمس سار إلى نمرة فقيل فيها، ومع غروب الشمس سار إلى عرفات، فخطب فى الناس، وصلى الظهر والعصر بأذان واحد وإقامتين، ثم ركب راحلته ووقف بالناس على هضاب عرفات ودعا الله بما فتح عليه به الله، ومع الغروب سار إلى جمع، ولما بزغ الفجر صلى الصبح، ورمى بعد ذلك الجمرة بسبع حصيات وهو راكب راحلته، ورجع إلى المنحر، فنحر الهدى ثم حلق ومعه الناس، وهنا قرأ على بن أبى طالب ﷺ سورة التوبة كما أمره الحبيب ﷺ :

بَرَاءةٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلا وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١٢) أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلا رَسُولِهِ وَلا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى
الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ الْمُهْتَدِينَ (١٨)

وقال على ﷺ، موضحا للناس :

ـ لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد خاص فهو له إلى مدته إلا من نقض، إعمالا لما أمر الله .

وبعد صلاة الظهر خطب أبو بكر فى الناس وهو على راحلته، وذهب إلى منى يرمى الجمار ماشيا، فلما رمى يوم الصدر، ركب وعاد إلى مكة فصلى المغرب

والعشـــاء، وخـــرج مـــن ليلته عائدا بالحجيج إلى المدينة .
.. فكانت الحجة الأولى للناس فى ظل الإسلام .

سورة المائدة

الفصل الثامن عشر :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣﴾

التمام والختام

ـ ١ ـ

السنة : العاشرة من الهجرة .

.. وكأنما كان نزول سورة التوبة، هـو الفيصـل عنـد مـن بقـوا عـلى شركهـم أو كفـرهم، وبـين حـيرتهم وترددهم بين : الرغب فى والرغب عن دين الله الخاتم، فلقد تزايد وصول وفود العرب والروم والفرس، ما بين راغب فى الدخول فى دين الله، وراغب فى دفع الجزية إقرارا بقـوة وجـود أمـة لا إلـه إلا اللـه محمـد رسول الله.

كما بقى البعض فى أرض اليمن من اليهود لا يبدون رأيا، ومنهم بنو الحارث ابـن كعـب، فبعـث إلـيهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد، فى أربعمائة مقاتل، وطلب منه أن يمكـث بيـنهم ثلاثـة أيـام يـدعوهم إلى الإسلام، ولا يحاربهم، فلما وصل إليهم جند الله، أرسل خالد بالمسلمين فى كـل ناحيـة، يـدعون النـاس إلى دين الله، قائلين :

ـ يا أيها الناس، أسلموا تسلموا .

فأقبلوا عليهم مسلمين، فأخذ خالد يعلمهم كتاب الله، وسنة نبيه، ثم كتب إلى رسول الله ﷺ، يقول :

" بسم الله الرحمن الرحيم

لمحمد النبى رسول الله ﷺ، من خالد بن الوليد : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ فإنى أحمـد إليـك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد ، يا رسول الله صلى اللـه عليـك، بعثتنـى إلى بنـى الحـارث بـن كعـب، وأمرتنـى إذا أتيـتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام، وأن أدعوهم إلى الإسلام ؛ فإن أسلموا قبلت منهم، وعلمتهم معالم الإسلام وكتـاب اللـه وسنة نبيه، وإن لم يسلموا قاتلتهم .

وإنى قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام، كما أمرنى رسول الله ﷺ، وبعثت فيهم ركبانا، قـالوا : يا بنى الحارس، أسلموا تسلموا .

.. فأسلموا ولم يقاتلوا، وأنا مقيم بين أظهرهم، آمرهم بما أمرهم الله به، وأنهاهم عما نهـاهم اللـه عنـه، وأعلمهم معالم الإسلام، وسنة النبى ﷺ، حتى يكتب إلى رسول الله، والسلام عليك يـا رسـول اللـه ورحمـة الله وبركاته ."

فكتب إليه رسول الله ﷺ، يقول :

" بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد النبى رسول الله، إلى خالد بن الوليد، سلام عليك، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فإن كتابك جاءنى مع رسلك بخبر أن بنى الحارث، قد أسلموا قبل أن يقاتلوا، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام، وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن قد هداهم الله بهداه ؛ فبشرهم وأنذرهم، وأقبل وليقبل معك وفدهم، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ."

ـ ٢ ـ

اعتاد جبريل عليه السلام منذ فرض الصيام، أن يدارس رسول الله ﷺ القرآن أثناء اعتكافه فى العشر الأواخر من الشهر، ولكنه عجل فى قدومه، فاعتكف رسول الله ﷺ مرتين، مرة فى العشر الأواسط، ومرة فى العشر الأواخر .

وحين انتهت أيام الاعتكاف، خرج نبى الله ﷺ إلى صحابته، فأكثر من الجلوس إليهم، يفقههم فى أمور دينهم، ويفيض عليهم مما علمه الله، ويوصيهم بالتمسك بشرع الله، ويبشر الصابرين منهم بجنات النعيم، ويحذرهم من مغريات الدنيا فكل ما فيها إلى زوال، وأما ما عند الله فى الآخرة فهو خير وأبقى .

ولم يكن ما يقوله الحبيب محمد ﷺ بغريب عليهم، فهو إمامهم، وهو لهم القدوة فى القول والعمل .

.. فلما كان شهر شوال، أرسل على بن أبى طالب ﷺ إلى اليمن، فيما يزيد على الثلاثمائة من جند الله، ليدعو القبائل التى لم تدخل الإسلام بعد، وأوصاه ألا يقاتلهم، وأن يبدأ بدعوتهم إلى قول : لا إله إلا الله، فإن قالوا : نعم، فأدعهم إلى إخراج صدقة أموالهم ليردوها على فقرائهم، ثم قال ﷺ لعلى :

ـ والله لأن يهدى الله على يديك رجلا واحدا، خير مما طلعت به الشمس، أو غربت .

ودخلت أقوام كثيرة فى الإسلام مختارين، وقاتلت " على " قلة منهم، فنصره الله عليهم، وغنم منهم غنما عظيما، قسمه بين الجند، وأبقى الخمس لله، ورفض أن يتصرف فى شىء منه، حتى يرى رسول الله ﷺ رأيه فيه، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ .

ـ ٣ ـ

ولما آن موعد الحج، أعلن رسول الله ﷺ عزمه على الخروج إلى مكة أداء لفرض من فروض الله، ولركن الإسلام الخاتم ، وسمع من حول المدينة بعزم الحبيب ﷺ على الحج، فتقافز الشوق لبيت الله يهز القلوب هزا، وتوافد الناس أفواجا، وقد زاد من شوقهم رغبتهم رفقة الحبيب محمد ﷺ لأطول مدة، ليسعدوا

بنوره، ويأتموا به، ويشربوا من حوضه، ويقتدوا بهداه .

وتزينت المدينة وازدادت نورا، والمسلمون يفدون عليها من كل حدب بالآلاف، يسوقون الهدى، ويلبون، ويكبرون، ويحمدون الله على ما هداهم، وعلى ما رزقهم، وجميعهم قاصدون إلى حيث الإمام والقائد والحبيب محمد ﷺ .

تحرك الموكب المهيب، خارجا من المدينة، قاصدا بيت الله الحرام، وكلما مر بمكان، انضم إليه أهله، حتى وصل عدد الحجيج على مشارف مكة، لما يزيد على المائة وأربعة عشر ألفا، وتجسد فيهم التصوير الربانى فى سورة الحج، كل التجسد :

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧)

.. فالناظر من فوق جبل، يرى أمامه رجالا من كل القبائل، قد ضمرت أبدانهم جهادا فى سبيل الله، فبدوا عماليق تتطاول جباههم لتلامس ذرى الجبال الشامخات،

يسعون فى إصرار وعزم، يرددون تلبية نبيهم ﷺ فى عقيدة، مستجيبين لدعوة الداعى العظيم :

ـ لبيك اللهم لبيك .
ـ لبيك لا شريك لك لبيك .
ـ إن الحمد والنعمة لك والملك .
ـ لا شريك لك .
.. وترتج الجبال رجا من صدق الترديد وقوته، بينما تتصاعد سحابات الغبار إلى عنان السماء تحمل التلبية، وتعبر عن مكابدة المخلصين سعيا لإرضاء الله، فتضيف على الموكب مهابة ورهبة، تزلزل قلوب اللائذين بوساوس الشياطين ..
فهؤلاء والله هم أهل الحق .
.. ولما وصل رد رسول الله ﷺ لعلى، وفيه أعلمه بخروجه للحج، وطلب منه أن يلحق به، فولى " على " إمارة الجيش لأبى رافع، وأسرع ليلحق بالحبيب فى مكة .

ـ ٤ ـ

.. وصلت جموع الحجيج إلى مشارف مكة، تسبقها أصوات التكبير والتهليل، وكان من انتوى الحج ومن لم ينتو من أهلها، قد خرجوا من مساكنهم ينتظرون حجاج بيت الله، أملين فى رؤية نور الحبيب محمد ﷺ، ولقاء الأقارب من المهاجرين .
.. ولما أهلت طلعة البيت الحرام، رفع الحبيب محمد ﷺ يديه إلى السماء،ودعا ربه، قائلا :
ـ اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة وبرا .
.. ثم نزل الحبيب ﷺ عن راحلته، وتوضأ من ماء زمزم، وتوجه إلى الكعبة فكبر ثلاثا واستلم الحجر الأسود، وابتدأ طواف القدوم : أسرع فى ثلاث طوافات، ومشى فى الأربع المتبقية، ولما انتهى من طوافه، اتجه إلى مقام إبراهيم، فصلى خلفه ركعتين بقراءة سورتى : الفاتحة والكافرون فى الركعة الأولى، وقرأ فى الركعة الثانية سورتى : الفاتحة والإخلاص ؛ وحين انتهى من صلاته، قرأ من سورة البقرة قول الله تعالى :
وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥)
.. وأستلم الحبيب محمد ﷺ الحجر الأسود، ثم اتجه إلى زمزم فشرب من مائها، وحث الخطى إلى الصفا، فلما استوى فوقه، قرأ من سورة البقرة قول الله تعالى :
إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)
ثم قال الحبيب ﷺ :
ـ نبدأ بما بدأ الله تعالى به .
ثم اتجه ببدنه ناظرا إلى البيت، وكبر، وقال :
ـ لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، لا إله إلا الله، وحده، أنجز وعده، وصدق وعده، وهزم الأحزاب وحده .
ودعا الله تعالى بما شاء، ثم نزل، ورمل ومشى، حتى إذا رقى المروة نظر إلى البيت، وقال مثلما قال وهو على الصفا، ودعا ربه، ونزل فرمل ومشى ؛ فلما أتمها سبعة أشواط، قال :
ـ يا أيها الناس، لو استقبلت من أمرى ما استدبرت، لم أسق الهدى، ولجعلتها عمرة، فمن لم يكن معه هدى فليحل، وليجعلها عمرة .
فقال سراقة بن مالك :
ـ ألعامنا هذا يا رسول الله ؟.
فقال الحبيب محمد ﷺ :
ـ للأبد، للأبد، للأبد، دخلت العمرة فى الحج إلى يوم القيامة .

فحل الناس إحرامهم، وحلقوا وقصروا، وخلعوا ملابس الإحرام ولبسوا المخيط، إلا الحبيب ﷺ لأنه صحب معه هديه .

مكث ﷺ بمكة ثلاثة أيام هـى : الثلاثـاء والأربعـاء والخمـيس، وكـان يصـلى الظهـر والعصر والعشـاء ركعتين، وقد رفض أن ينزل بدار من دورها، ونزل فى خيمة ضربت له بجوار المسجد .

وقد وصل على بن أبى طالب عائدا من اليمن، ورسـول اللـه ﷺ بمكـة، ثـم لحـق بـه أصـحابه، فخـرج يستقبلهم ليدخل بهم على الحبيب ﷺ، فوجد أكثرهم قد لبسوا من الخمس الذى جعل للـه، فغضـب " على " غضبا شديدا، وطلب منهم أن يخلعوا ما لبسوا نهبا، فشكوه إلى الحبيب ﷺ، فسكت ولم يعقب .

فلما كان يوم الخميس، قال الحبيب محمد ﷺ للناس :

- من استطاع أن يصلى الظهر بمنى، فليفعل .

.. وركب الحبيب ﷺ إلى منى .

- ٥ -

اليـوم : الجمعة، يوم التروية، الموافق الثامن من الشهر .

الشهر : ذى الحجة .

السنة : العاشرة من الهجرة .

أحرم من تحللوا بعمرة، وأهلوا للحج، وركب الحبيب محمد ﷺ، وخرج بالحجيج إلى منى، وهناك صلى بها الجمعة، وخطب فى الناس، فبين لهم مناسك الحـج .

.. وقد صلى الحبيب ﷺ بمنى صلوات : العصر والمغرب والعشاء والصبح، ومكث حتى طلعت الشمس، ثم سار إلى عرفة، فنزل بخيمة ضربت له بنمرة .

.. ولما أذن للصلاة، صلى الحبيب محمد ﷺ بالناس صلاة الظهر، ثم أقام فصلى صـلاة العصر ولم يصـل بينهما شيئا، حتى إذا زاغت الشمس أمر بناقته،

وركبها إلى وادى عرفة، وقد تحلق حوله الحجاج، ما بين ماش وراكب، فلما وصل بطن الوادى، حمـد اللـه وأثنى عليه وخطب فى الناس، فنهاهم عن الصوم فى يومهم هذا، وقال :

- إن دعائى ودعاء من كان قبلى من الأنبياء : لا إله إلا الله، وحده لا شريك لــه، لـه الملـك ولـه الحمـد، بيده الخير، يحيى ويميت، وهو على كل شىء قدير .

ثم ركب ناقته واتجه إلى الموقف بعرفة، فاستقبل القبلة وأخذ يدعو الله تعالى، بما فتح عليه بـه : فقـرأ آية :

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِـيمُ (١٨) سـورة آل عمران

.. ثم أعقبها بقوله :

- وأنا على ذلك من الشاهدين .. يا رب .

.. وكان من دعاء الحبيب ﷺ فى هذا الموقف العظيم :

- اللهم اجعل فى بصرى نورا، وفى سمعى نورا، وفى قلبى نورا، اللهـم اشرح لى صـدرى، ويسر لى أمـرى، اللهم أعوذ بك من وسواس الصدر، وشتات الأمر، وشر فتنة القبر، وشر مـا يلـج فى الليـل، وشر مـا يلـج فى النهار، وشر ما تهب به الرياح، وشر بوائق الدهر .

اللهم إنك تسمع كلامى، وترى مكانى، وتعلم سرى وعلانيتى، ولا يخفى عليك شىء من أمرى، أنا البـائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجل المشفق، المقـر بذنبـه، أسـألك مسـألة المسـكين، وأبتهـل إليـك ابتهـال الذليل، أدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذل لـك جسـده، ورغـم لك أنفه، اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا، وكن ربى رءوفا رحيما، يا خير المسئولين، ويا خير المعطين .

ولقد دعا الحبيب محمد ﷺ لأمته بالرحمة والمغفرة، فأكثر الدعاء، فأوحى له الله

: أنى قد فعلت إلا ظلم بعضهم بعضا، وأما ذنوبهم فيما بينى وبينهم فقد غفرتها .

.. وتنزل على نبى الله ﷺ، وهو فى هذا الموقف، قول الله تعالى فى الآية الثالثة من سورة المائدة :

.. الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِيناً فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

.. حتى إذا ما غربت الشمس حرك الحبيب ﷺ ناقته، وهو يقول للناس :

ـ أيها الناس، السكينة .. السكينة .

ولما وصل المزدلفة صلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد، وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئا، وجمع حصوات العقبة، ولما قرأ ما تنزل عليه، بكى عمر بن الخطاب، فسأله الحبيب محمد ﷺ :

ـ ما يبكيك ؟.

قال عمر رضي الله عنه :

ـ أبكانى يا رسول الله، أنا كنا فى زيادة من ديننا، فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شىء إلا نقص .

قال نبى الله ﷺ :

ـ صدقت .

وتوافد عليه أصحابه، فلما خرجوا من عنده، اضطجع حتى طلع نور الفجر، فصلى بهم الفجر بأذان وإقامة، ومكث حتى تبين له الصبح، فركب ناقته حتى أتى

المشعر الحرام، فاستقبل القبلة : ودعا لله تعالى، وحمده، وكبره، وهلله، ووحده.

.. وقبل أن تطلع الشمس، سلك إلى الجمرة الكبرى فرماها بسبع حصايات، مكبرا مع رمى كل حصاة، ثم انصرف إلى أرض النحر، وقال ﷺ : كل أرض مكة منحر، فذبح الأضاحى، وساعده على •، ثم طلب تقسيمها وتوزيعها، وأخذ قطعة لحم فطبخت، وأكل من لحمها وشرب من مرقها، وتلا قول الله تعالى من الآية الثامنة والعشرين من سورة الحج :

..وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)

.. ودعى الحلاق، فحلق له شعره، وركب إلى البيت فطاف طواف الإفاضة، وصلى بالناس صلاة العيد، وخطب فيهم، فقال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهل له :

ـ أيها الناس، اسمعوا قولى واعقلوه، فإنى والله لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا، فى موقفى هذا، رحم الله امرأ سمع مقالتى فوعاها ؛ أيها الناس، أى شهر هذا ؟.

فسكت أغلب الناس، وقال بعضهم :

ـ الله ورسوله ﷺ أعلم .

وسكت الحبيب ﷺ قليلا، ثم قال :

ـ هذا شهر حرام، وأى يوم هذا ؟.

فسكت الناس، فقال الحبيب محمد ﷺ :

ـ هذا يوم حرام، وأى بلد هذا ؟.

فسكتوا، فقال :

ـ هذا بلد حرام .

.. ثم أستطرد الحبيب ﷺ، فقال :

ـ إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هـذا، فى بلدكم هذا، ألا هل بلغت ؟.

قال الناس :

ـ اللهم نعم .

قال الحبيب محمد ﷺ :
ـ اللهم فاشهد .
.. ثم قال :
ـ إنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون، وإن ربا عمى العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم فى الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ربيع بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .
أما بعد، أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك، فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم .
أيها الناس، إن النسىء زيادة فى الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب الذى بين جمادى
وشعبان .
أما بعد، أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقا، ولهن عليكم حقا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، وألا يعصين فى معروف، فإن عصين، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، وانكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولى، فإنى قد بلغت .
وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به، فلن تضلوا أبدا، أمرا بينا : كتاب الله، وسنة نبيه .
اسمعوا قولى واعقلوه، إن كل مسلم أخ للمسلم، وإن المسلمين جميعا اخوة،
فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلموا أنفسكم، اللهم قد بلغت .
قال المسلمون :
ـ اللهم نعم .
فقال الحبيب محمد ﷺ :
ـ اللهم فاشهد .

ـ ٦ ـ

.. عاد رسول الله ﷺ إلى منى، فأقام بها أيامها، يرمى الجمرات، ثم نزل إلى مكة، فطاف طواف الوداع، وأخذ طريقه راجعا مع الحجيج إلى المدينة .
وفى الطريق تحدث إلى الناس بما يبين لهم قدر أهله عنده، قاصدا محو ما علق
فى أذهان بعض من صحبوا عليا فى رحلته إلى اليمن، من مظنة أنه يقسو فى معاملته لهم، فقال :
ـ أيها الناس لا تشكو عليا، فوالله إنه لأخشن فى سبيل الله من أن يشكى .
ثم أخذ بيد على • وقال :
ـ من كنت مولاه فهذا وليه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه .
.. وفى المدينة، وقف الحبيب محمد ﷺ على المنبر، وخطب فى الناس قائلا :
ـ أيها الناس إن أبا بكر لم يسؤنى قط، فاعرفوا ذلك له، إنى عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين راض، فاعرفوا ذلك لهم .
أيها الناس، احفظونى فى أصحابى وأصهارى وأحبابى، لا يطلبكم الله بمظلمة أحد منهم .

أيها الناس، ارفعوا ألسنتكم عن المسلمين، وإذا مات أحد منهم فقولوا فيه خيرا:
جلس صحابة رسول الله ﷺ فى المسجد بعد صلاة المغرب فقالوا :
ـ لو جلسنا حتى نصلى معه العشاء .
واستراحوا لما قالوا، فجلسوا، حتى خرج إليهم الحبيب ﷺ فقال :
ـ ما زلتم ها هنا ؟.
قالوا :
ـ نعم .
قال ﷺ :
ـ أحسنتم .
ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال :
ـ النجوم آمنة إلى السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابى، فإذا ذهبت أتى أصحابى ما يوعدون، وأصحابى أمنة لأمتى، فإذا ذهب أصحابى، أتى أمتى ما يوعدون .
.. وقال رسول الله ﷺ :
ـ سألت ربى عز وجل، عن اختلاف أصحابى من بعدى، فأوحى إلى : يا محمد إن أصحابك عندى بمنزلة النجوم فى السماء، بعضها أقوى من بعض، ولكل نور، فمن أخذ بشىء مما هم عليه من اختلافهم، فهو عندى على هدى .
ـ أصحابى كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم .
.. وقال رسول الله ﷺ فى قدر صحابته رضوان الله عليهم :
ـ لا تسبوا أصحابى، فوالذى نفسى بيده، لو أن أحدا أنفق مثل " أحد " ذهبا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه .
ـ ما من أحد يموت من أصحابى بأرض، إلا بعث لهم نورا وقائدا يوم القيامة.
ـ خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ثم إن بعدهم قوما يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر
فيهم السمن، ويحلفون ولا يستحلفون، تسبق أحدهم يمينه ويمينه شهادته .
ـ أرحم أمتى بأمتى : أبو بكر، وأشدهم فى أمر الله تعالى : عمر، وأشدهم حياء : عثمان، وأقضاهم : على، وأعلمهم بالحلال والحرام : معاذ بن جبل، وافرضهم : زيد بن ثابت، وأقرأهم :أبى بن كعب، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة : أبو عبيدة بن الجراح، وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من : أبى ذر، أشبه بعيسى عليه السلام فى ورعه .
ـ إنى لا أدرى ما قدر بقائى فيكم، فاقتدوا باللذين من بعدى " وأشار إلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما " واهدوا بهدى عمار بن ياسر، وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه .
ـ رأيتنى دخلت الجنة فإذا أنا بالرمضاء امرأة أبى طلحة رضى الله عنهما، وسمعت خشخشة، فقلت : من هذا ؟. قالوا : بلال . ورأيت قصرا بفنائه جارية،
فقلت : لمن هذا ؟. قالوا : لعمر بن الخطاب . فأردت أن أدخله فأنظر إليه،فذكرت غيرتك، فوليت مدبرا .
فبكى عمر وقال : أعليك أغار يا رسول الله .
.. قال له نفر من أصحابه رضى الله عنهم :
ـ يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك ؟.
قال رسول الله ﷺ :

ـ نعم، أنا دعـوة أبي إبراهيم، وبشـرى أخى عيسى، ورأت أمـى حين حملت بي أنــه خــرج منهـا نــور أضـاء لهـا قصور بصرى من أرض الشام .

ـ إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسك الماء، فنفع الله تعالى بها الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك مـاء ولا تنبـت كـلأ ؛ فـذلك مثـل مـن فقـه دين الله تعالى ونفعه ما بعثنى الله تعالى به فعلم وعلم، ومثل مـن لم يرفـع بـذلك رأسـا ولم يقبـل هدى الله الذى أرسلت به.

ـ إنما مثلى ومثلكم، كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضـاءت ما حوله، جعل الفراش وهذه الـدواب التـى تقع فى النار، تقع فيها، فجعل ينزعهن، ويغلبنـه، فيقـتحمن فيهـا، فأنـا آخـذ بحجـزكم عـن النـار، وأنـتم تقتحمون فيها .

.. سأل جماعة من الصحابة، أمهات المؤمنين رضى الله عنهن وأرضاهن، عن عبادة رسول اللـه ﷺ، فلـما اخبروا بما كان يفعل، قالوا :

ـ أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ .

وعزموا أمرهم، فقال أحدهم :

ـ أما أنا فأصلى الليل أبدا .

وقال الآخر :

ـ وأنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال الثالث :

ـ وأنا أعتزل النساء، ولا أتزوج أبدا .

ولما علم رسول الله ﷺ بما قالوا، جاء إليهم، فقال :

ـ أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟.

قالوا :

ـ نعم .

قال رسول الله ﷺ :

ـ أما والله إنى لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكنى أصوم وأفطـر، وأصـلى، وأرقـد، وأتـزوج النسـاء، فمـن رغب عن سنتى فليس منى .

سألت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت :

ـ كان " قرآن " يمشى على الأرض .

قال أنس بن مالك :

ـ خدمت رسول الله ﷺ فلم يقل لى عن شئ لم أفعله، لم لم تفعله، ولا عن شئ تركته، لم تركته .

سئل رسول الله ﷺ :

ـ ما بالك تقوم الليل والنهار عابدا ذاكرا لله مستغفرا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبـك ومـا تـأخر ؟!.

قال رسول الله ﷺ :

ـ أفلا أكون عبدا شكورا .